فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
	المقدمة	
	المدخل العام	
	1- الموقع الجغرافي	
	2- الطبيعة	
	3- المعطيات التاريخية	
	4-المناخ السياسي	
	5- الجانب الإداري	
	6- الجانب الاجتماعي	
	7- البيئة المحيطة	
	8- التعليم في البحرين	
	9- التعليم شبه النظامي	
	00- التعليم النظامي	
	الفصل الأول	
	التمهيد	
	اولاً : أصالة وطفولته	
	1- مولده وأصله	
	2- أبوه	
	3- أمه	
	4- أخوته	
	5- طفولته	
	6- أغاني المهد والّوال	
	7- الحكايات والأساطير	
	ثانياً : دراسته وثقافته	
	أ- دراسته	
	1- تعلمه في الكتّاب	
	2- المرحلة التحضيرية	
	3- خبرته العملية	
	4- هواية القراءة	
	5- المرحلة المتوسطة	
	6- المرحلة النهائية	
	ب- ثقافته	
	صلته بالمؤسسات الثقافية	
	2- المكتبة	
	3- الأندية	
	4- وسائل الإعلام	
	5- أسرة الأدباء	

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
	ثالثـــــاً : إنتاجـــــه الأدبي وأنشـــــطته	
	أ- إنتاجـــــــــــــــــــــــــه الأدبي	
	1- ملامـــــــــــــــح شخصـــــــــــــــيته	
	2- محـــــــــــــــاولات أدبيـــــــــــــــة	
	3- إنتاجـــــــــــــــــــــــــــــه الأدبي	
	4- ديـــــــــوان أنـــــــــين الصـــــــــواري	
	5- ديـــــــوان إضـــــــاءة لـــــــذاكرة الـــــــوطن	
	6- ديـــــــوان في وداع الســـــــيدة الخضـــــــراء	
	7- ديـــــــوان عطـــــــش النخيـــــــل	
	8- ديـــــــوان عصـــــــافير المســـــــاء	
	ب- أنشـــــــــــــــــــــــــــطته	
	1- المـــــــــــــــــــــــــــــؤتمرات	
	2- تأســـــــــــــــيس درا الغـــــــــــــــد	
	3- إصـــــــــــدار مجلـــــــــــة كتابـــــــــــات	
	4- الاهتمـــــــــــــــام بـــــــــــــــالتراث	
	5- الموقـــــــــــف مـــــــــــن التـــــــــــراث	
	6- الأمســـــــــــــــــــــــــــــيات	
	7-النـــــــــــــــــــــــــــــــدوات	
	8- الاهتمـــــــــــــــام بالثقافـــــــــــــــة	
	الفصـــــــــــــــــل الثـــــــــــــــاني	
	التمهيـــــــــــــــــــــــــــــــد	
	اولاً : إجـــــــــرات رحلـــــــــة الغـــــــــوص	
	1- رصد ظـــاهرة البحـــر في دواويـــن الشـــاعر	
	دواويـــــــــــــــــــــــــن الشـــــــــــــــاعر	
	أ- أنـــــــــــــــين الصـــــــــــــــواري	
	ب- إضـــــــــاءة لـــــــــذاكرة الـــــــــوطن	
	ج- في وداع الســـــــــــيدة الخضـــــــــــراء	
	د- موضـــــــوعات ذات صـــــــلة بـــــــالبحر	
	2- الاســـــــــتعداد لرحلـــــــــة الغـــــــــوص	
	أ- التـــــــــــدريب علـــــــــى الغـــــــــوص	
	ب-صـــــــــــــــيانة الســـــــــــــــفن	
	ج- ترديـــــــــــــــد الأهـــــــــــــــازيج	

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
	د- حمـــــــــــل أدوات الســـــــــــفينة	.....
	هـــــ- توظيـــف الشـــاعر لحظـــة الاســـتعداد	.....
	- التهيئـــــــــــة النفســـــــــــية	.....
	التـــــــراث والإعـــــــداد المـــــــادي	.....
	3- لحظـــــــــــة الـــــــــــوداع	.....
	أ- الوقـــــــوف علـــــــى الشـــــــاطئ	.....
	ب- ترديـــــــــــد الأهـــــــــــازيج	.....
	ج- توظيـــــف الشـــــاعر لحظـــــة الـــــوداع	.....
	- النصـــــــــــــــــــــــــائح	.....
	- الأهـــــــــــــــــــــــــازيج	.....
	4- لحظـــــــــــة الإبحـــــــــــار	.....
	أ- الرّكْبـــــــــــــــــــــــــة	.....
	ب-وصـــــف مشـــــاعر الغّـــــواص الشـــــيخ	.....
	ج- وصـــــــف معـــــــدات الســـــــفينة	.....
	د- معـــــــــــــنى الإبحـــــــــــار	.....
	هـــــــــ- تعريـــــــف الغـــــــوص	.....
	ثانيـــــــاً : شخصـــــــيات الغـــــــوص	.....
	1- بحّـــــــــــارة الســـــــــــفينة	.....
	2- أعمـــــــــــال البحّـــــــــــارة	.....
	- توظيـــــف الشـــــاعر للشخصـــــيات	.....
	أ- الّتبـــــــــــــــــــــــــاب	.....
	ب- الرضـــــــــــــــــــــــــيف	.....
	ج- الغّـــــــــــــــــــــــــواص	.....
	د-النوخـــــــــــــــــــــــــذة	.....
	ه- الطـــــــــــــــــــــــــــواش	.....
	و- النّهـــــــــــــــــــــــــام	.....
	ثالثاً : الأخطار والأمراض الـــتي تصـــيب الغّـــواص	.....
	1- المخـــــــــــاطر العامـــــــــــة	.....
	أ- أخطـــــــار البيئـــــــة والكـــــــوارث	.....
	ب- الطعـــــــام ومـــــــاء الشـــــــرب	.....
	ج- الإرهـــــــاق الجســـــــمي والنفســـــــي	.....

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
	2- مخـــــاطر الغـــــوص في البحـــــر	
	أ- الأسمـــــــــــــــــــــاك	
	القـــــــــــــــــــــــــرش	
	اللُّخْمـــــــــــــــــــــــــة	
	الـــــــــــــــــــــــــــدول	
	ب- أخطـــــــــار مـــــــــاء البحـــــــــر	
	المـــــــــــــاء البـــــــــــــارد	
	التيـــــــــــــارات المائيـــــــــــــة	
	ج- أمـــــــراض الغـــــوص ومضـــــاعفاتها	
	أمـــــــــراض الجهـــــــاز التنفســـــــي	
	أمـــــــــــــــــــــراض الأذن	
	أمـــــــــــــــــــــراض الجلـــــــــــــد	
	الصـــــــــــــــــــــــــرع	
	3- توظيـــــف الشـــــاعر مخـــــاطر البحـــــر	
	أ-المخـــــــــــــاطر العامـــــــــــــة	
	ب- الطعـــــــــــام والمـــــــــــاء	
	ج-الأسمـــــــــــــــــــــــاك	
	د-أمـــــــــراض الجهـــــــاز التنفســـــــي	
	هـــــــــ-أمـــــــــراض الجلـــــــــد	
	و- أمـــــــــــــلاح البحـــــــــــــر	
	رابعًا : الآثار المعنوية المترتبة على رحلـــة الغـــوص	
	1- همـــــــــــــوم الغّـــــــــــــواص	
	أ- الفقـــــــــــــــــــــــــــر	
	ب-الـــــــــــــــــــــــــــدين	
	ج-الغربـــــــــــــــــــــــــة	
	2- همـــــــــــــوم الزوجـــــــــــــة والأم	
	أ- المشـــــــاعر تجـــــاه الـــــزوج الغائـــــب	
	ب- المشـــــاعر تجـــــاه المدنيـــــة المقفـــــره	
	ج-الخـــــــــوف علـــــــــى الابـــــــــن	
	د- مشـــــاركة الابـــــن لـــــلأم همومهـــــا	

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
	الفصل الثالث : أبعاد البحر في دواوين الشاعر	
	التمهيد	
	اولاً : الاتجاه الاجتماعي	
	1: العطف على الطبقة البائسة – البؤس الاقتصادي	
	2: إبراز دور المرأة وأثرها في المجتمع	
	3: إبراز قضايا الكادحين	
	الوجهة الإنسانية العامة – الخاصة	
	ثانياً : الاتجاه الوطني القومي	
	أ– الاتجاه القومي	
	1: الروح الوطنية في الأدب العربي	
	2: الروح الوطنية في الأدب البحريني	
	3: إبراز الاتجاه الوطني	
	ب: الاتجاه القومي	
	1: الاتجاه القومي العام	
	2: إبراز الشاعر الاتجاه القومي	
	ثالثاً : الاتجاه الذاتي	
	أ: الاتجاه العاطفي	
	1: الوصف الحسي	
	2: الوصف المعنوي	
	– الاتجاه العاطفي والبحر	
	1: التوظيف المباشر للبحر	
	2: التوظيف الرمزي للبحر	
	ب: الاتجاه النفسي المعنوي	
	1: الموقف من معالم الحضارة المادية	
	2: الموقف من تراجع القيم	
	ج: الاتجاه الفكري	
	1: الاتجاه الفكري العام – التفكير في الحياة الروحية	
	– الالتفات إلى الواضع المعنوية والمجردات – النظر المعنوي إلى الطبيعة والريف	
	2: إبراز الشاعر الاتجاه الفكري – معجم السفر والرحيل – الموقف من الكون – العلاقة بالبحر	

المقـــــــــــــــدمة

تتناول هذه الرسالة دراسة شاعر بحريني معاصر ، ودراسة ظاهرة البحر في شعره ، وعنوان هذه الرسالة هو " على خليفة حياته وظاهرة البحر في شعره ".

وقد اخترنا موضوع الدراسة هذا لأهمية الشاعر من جهة فهو شاعر مشهور في بلاده ، ومعروف على نطاق واسعٍ في البلاد العربية [1]، ويعتبره المهتمون بدراسة الأدب العربي رائداً من رواد الشعر الحديث والحركة الأدبية التي انبثقت في الستينيات وصاحبت التطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وامتزجت بها حيث أصدر علي خليفة خمسة أعمالٍ شعرية بالفصحى والعامية [2] عن دور نشر لبنانية وبحرينية (1969 -- 1993) ، عبّر فيها عن واقع الحياة ومظاهر البيئة المحلية وهموم عمال البحر المشتغلين بصيد اللؤلؤ الطبيعي، وتطلعات الأجيال إلى المزيد من الحرية والتقدم [3] .

ونظراً لما حوته أشعاره من مضامين وخصوصية فنية أصبحت أداة للدراسة والتحليل لطلبة الدراسات العليا في الجامعات والمعاهد، ومن أهمها رسالة ماجستير في (السوربون) الفرنسية أشرف عليها البروفيسور (سايمون جارجي) عام (1993) وهي مكتوبة باللغة الفرنسية ، وأخرى في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة أشرف عليها الدكتور محمد خلف الله ، والدكتورة سهير القلماوي (1975) ، وهي بعنوان دراسات في أدب البحرين[4]، وقد أطلّعنا على الأخيرة وأفدنا منها في رسالتنا هذه ، كما ترجمت مقطوعات من أشعار علي خليفة إلي الإنجليزية والفرنسية والروسية و الأوردية والإيطالية وأدخلت نصوص منها إلى مناهج تعليم اللغة العربية في مدارس البحرين ودولة الإمارات العربية المتحدة ، ولحن بعضها وتغنى بها المطربون المشهورون في الخليج[5].

وعلي خليفة شاعر بالفصحى والعامية ، وله مساهمات وأنشطه ثقافية وأدبية ، كما أنه باحث ودارس ومبدع للمّوال الشعبي في الخليج ، وهو عضو في اتحاد أسرة الأدباء والكتّاب البحرينية[6]، وناشر ورئيس مجلة كتابات الأدبية [7]، ومؤسس داراً للنشر والتوزيع[8] ، وأمين عام مساعد للمجلس الأعلى للثقافة والفنون[9] بالبحرين ومدير تحرير مجلة البحرين الثقافية[00]

---

(1) أمريكا، ولاية ديلاور ، الخطاب المترجم إلى الشاعر (1989)

(2) الأعمال الأدبية هي أنين الصواري (1969) ، عطش النخيل (1971) ، إضاءة لذاكره الوطن (1973) عصافير المساء (1983) ، في وداع السيدة الخضراء ، (1992)

(3) أمريكا ، ولاية ديلاور ، م.س ، (1989).

(4) دراسة تحت إشراف الدكتورة سهير القلماوي ، الدكتور محمد خلف الله ، القاهرة ، معهد البحوث العربية .

(5) أمريكا ، ولاية ديلاور ، م.س ، (1989).

(6) كيان أدبي تأسس عام (1969) في البحرين .

(7) مجلة كتابات : دورية أدبية متخصصة أصدرت عام (1976) ثم توقفت عام (1987) .

(8) دار الغد مؤسسة للنشر والتوزيع أسسها علي خليفة عام (1974) بهدف نشر الأعمال الأدبية .

(9) المجلس الأعلى للثقافة والفنون افتتح عام (1976) بهدف المحافظة على التراث والجانب التوثيقى وهو تابع لوزارة الثقافة والإعلام .

(00) البحرين الثقافية ، مجلة ثقافية أدبية فصليه يصدرها المجلس الأعلى الوطني للثقافة والفنون والتراث .

أما السبب في اختيارنا ظاهرة البحر في شعر علي خليفة فمردّه ، إلى الارتباط الشديد بالبحر في نفوس الجيل المعاصر من الأدباء إذ أصبح البحر لديهم رمزاً لكفاح الآباء والأجداد ؛ لذلك برز بوضوح في الشعر الذي يعد أغزر النتاج الأدبي في

منطقة الخليج العربية ، ولا يمكن تفسيره ودراسته إلا مقترناً بالظروف التي نبع منها وعبّر عنها ، فهو المذاق الخاص لشعر الخليج الذي يتضح في الاهتمام برحلة الغوص على اللؤلؤ وطقوسها ومخاطرها ولياليها[1] .

وقد عبّر شعراء الخليج عن مرحلة الغوص وعالم البحر في أدبهم الشعبي قبل ظهور التعليم وكان تعبيرهم ينصّب في الحنين إلى الأحباب المقيمين في البحر[2] ، أما بعد ظهور التعليم فقد تناول شعراء الخليج تجربة الغوص ، وموقف الغّواص من زاوية رومانسية تؤكد الانتماء للماضي ، فوصفوا رحلة الغوص وجمال لياليه ، وتحدثوا عن مشاعر السعادة التي يحسّ بها الغّواص ، ومن ذلك قول الشاعر أحمد محمد الخليفة [3] .

أنا الغّواص في البحرِ حليفُ المجدِ
أعِيشُ معَ الأيام اِلهُوجِ في كَرٍ وفّرِ
أصيدُ اللؤلؤَ النادِرَ في الدُنيا مِنَ القعرِ
وأهزَجُ بالنشيدِ الحُلو في الدُنيا وفي الفخر[4]

وقد أبدع علي خليفة نوعاً متميزاً من أدب البحر شعر الغوص على اللؤلؤ مّما جعله يقدم إضافة ثرية لأدب البحر فاهتم به وخصّصه بقصائد كثيرة في دواوينه بالفصحى والعامية بعد الفترة التي برز فيها أوائل الشعراء البحرينيين المعاصرين من زوايا أخرى جديدة محللاً ظاهرة البحر من حيث الظروف ، ومسهباً في عرض آلا مهاوأ حزانها والتعبير عن ملامحها بوضوح وصدق ، ففي دواوينه بالفصحى وهي موضوع دراستنا برز البحر بألفاظه ورموز ودلالاته وصوره في أنين الصواري في ست عشرة قصيدة ، وفي ديوان إضاءة لذاكرة الوطن في إحدى عشرة قصيدة ، أما ديوان في وداع السيدة الخضراء فقد ذُكر البحر في اثنتي عشرة قصيدة أما ديواناه عطش النخيل وعصافير المساء ، فهما بالعامية و ليسا محل دراستنا فقد ورد فيهما البحر في سياق موضوعات أخرى كالوطن والمرأة والنخلة .

ولنا في أقوال الشاعر ما يؤكد اهتمامه بالبحر في جوانب من حياته ، وإنتاجه فهو يقول :" كان والدي غوّاصاً ، وعائلتي توارثت العمل في البحر ذاكرتي منذ الطفولة مليئة بحكايات حقيقية خارقة عن صراع الرجال مع قوى الطبيعة وظلم الأنظمة السائده وجشع المتحكمين .بمهنة الغوص آنذاك[5].

---

(1) ماهر حسن فهمي ، تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج ، ص 22.

(2) ماهر حسن فهمي ، م.ن ، ص 22.

(3) أحمد محمد الخليفة من مواليد البحرين (1929) عاش بقرية الزلاق عشرين عاماً ما بين (1929) فتأثر بجمال الطبيعة فيها ، درس اللغة العربية في الثانوية العامة ، ثم تلقى دورساً على أيدي بعض العلماء في البحرين ونشر بعض محاولاته الأدبية في الصحف والمجلات مثل صوت البحرين ، اصدر ديوانه الأول من أغاني البحار عام (1959) وتلته مجموعاته الثلاث التي جمعها في ديوان العناقيد الأربعة ، وقد كتب الشعر النبطي قبل الشعر الفصيح ، علوي الهاشمي ، شعراء البحرين المعاصرون ن ص 89 .

(4) أحمد محمد الخليفة ، من أغاني البحار ، ص 49 .

(5) عبد الحميد المحادين ، علي خليفة صوت من الخليج ، في مجلة الثقافة العربية ، ليبيا ، (رجب 1395هـ /يوليو 1975) ص 66 .

ومن أقوال علي خليفة التي تدل على أهمية البحر في شعره : " قد كان الغوص خنجراً يغوص في قلبي كلّما ازددت وعياً وإدراكاً لحقيقة الأمور وأبعادها ويبقى في نظري رمزاً لأي واقع يستلب الإنسان ويصادر قُوته وإنسانيته وفي محاولاتى

الشعرية المبّكرة عبرّت عن هذه التجربة بعفوية وبفكر محدود بدأ يتبلور بعد ذلك في استقلال موضوع التجربة استقلالاً يصّور الواقع [6] .

ومّما يدل على أهمية البحر كموضوع في شعر علي خليفة أنه ركّز على مواجهة الواقع مواجهة صريحة من خلال قضية الغّواص شأنه شأن الكثير من الشعراء في منطقة الخليج العربية ، ومنهم الشاعر الكويتي محمد الفايز[2] الذي حصر نفسه في تجربة الملاحة والغوص ومغامرات البحّار ، وقد أصدر علي خليفة ديوانه أنين الصواري بعد أربع سنوات من مذكرات بحّار ، إلا أن الموقف الانفعالي والتجربة مختلفان ، فقد ركز محمد الفايز على وصف رحلة الغوص بينما ضّمن علي خليفة تلك التجّربة معاناة الإنسان موظفاً ظاهرة البحر في دواوينه بصورة مباشرة حيناً وبصورة غير مباشرة حيناً آخر .

أما الموضوعات البارزة التي تناولها الشاعر في دواوينه بالفصحى إلى جانب موضوع البحر فهي : المرأة ، والنخلة والوطن وقد تبين لنا أن خلال الإحصائيات أن البحر قد احتل في دواوينه نسبة 7 , 41 % ، بينما بلغت نسبة النخلة 26 % ، ووصلت نسبة المرأة إلى 17 % ، أما الحيز الذي احتله الوطن فنسبته تقدر بـ 5, 14% .

ولاحتلال البحر حيزاً كبيراً في دواوين الشاعركان تركيزنا على الاهتمام بموضوع البحر دون سائر الموضوعات ، حيث سنرى أن البحر بدلالة ألفاظه وعناصر ورموزه ومعانيه ظاهرة تستحق الاهتمام بإعطائها حقها من الدراسة بعيداً عن التشعب وتلافياً للعموميات والسطحيات علماً بأهمية باقي الموضوعات إلا أنها تحتاج إلى دراسة مستقلة .

وتتناول هذه الرسالة دراسة حياة الشاعر في الفترة الزمنية ما بين (1944-1998) ، وذلك لأهمية الفترة الزمنية بين هذين العامين في بيان المؤثرات التي تركت بصماتها في حياة الشاعر منذ مولده في عام (1944) ثم نشأته بعد ذلك ، وصلته بالبيئة ودراسته وسائر أنشطته وأعماله .

إن هذه الفترة الزمنية تحّدد لنا أن الشاعر قد انحدر من صلب تجربة الغّواص وعالم البحر متواصلاً مع عذاب البّحارة التاريخي الطويل مقهوراً بقهرهم وشقائهم ومثقلاً بجراحهم [3]، فتوثقت صلته بمجتمع البحر وتجربة الغوص المريرة عن كثب ، ممّا يساعد على الربط المتسلسل زمنياً بين تجارب الشاعر والواقع الذي عبّر عنه موظفاً البحر ومعطياته في إنتاجه الأدبي .

---

(6) عبد الحميد المحادين ، علي خليفة صوت من الخليج ، في مجلة الثقافة العربية ، ليبيا ، (رجب 1395هـ /يوليو 1975) ص 66 .

(2) محمد الفايز العلي: ولد في العراق (1932) وانتقل إلى الكويت (1956) ويعُد من أبرز شعراء الكويت المعاصرين ، نشر محاولاته الأدبية في الصحف والمجلات الثقافية والأدبية ، وهو عضو رابطة الأدباء في الكويت، وكان يشرف على البرامج الثقافية في محطة إذاعة وتلفزيون الكويت ، توفي عام (1993) من إنتاجه الأدبي : الأرض والتفاح قصص قصيرة ، خالد بن الوليد ، ديوان شعر (1971) ، مذكرات بحّار ، نورية صالح الرومي ، الحركة الشعرية في الخليج العربي ما بين التقليد والتطوير ، ص 463 ، راجع : يوسف السالم ، معجم أدباء شعراء الكويت، ص 51 .

(3) علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 419.

ويلاحظ قارئ الرسالة أننا خصّصنا تمهيداً مستقلاً لعرض المعلومات العامة عن البحرين بأوضاعها المختلفة الجغرافية والسياسية ، والاجتماعية والإدارية ، والثقافية ، والتاريخية .

وتتألف رسالتنا من أربعة فصول وهي كالتالي : علي خليفة حياته ، مهنة الغوص ، أبعاد البحر ، الدراسة الفنية .

أما الفصل الأول فيتناول تحقيق سيرة حياة الشاعر في ثلاثة أجزاء هي : أصل الشاعر وطفولته ، دراسته وثقافته ، إنتاجه وأنشطته .

وسوف نعالج في هذه الأجزاء ، الجوانب التالية : مولد الشاعر ، وعائلته ، وطفولته ، وتأثير أغاني المهد والحكايات فيه ، وتعلمه في مختلف المراحل الدراسية ، وهواية القراءة لديه والتحاقه بالوظيفة الرسمية ، وصلته بالمؤسسات الثقافية ، وسنستعرض أيضاً محاولاته الأدبية وإنتاجه متمثلاً في دواوينه بالفصحى أنين الصواري ، إضاءة لذاكرة الوطن ، في وداع السيدة الخضراء ، ودواوينه بالعامية عطش النخيل ، وعصافير المساء .

وسنحاول قدر الإمكان الربط بين هذه الجوانب وأحداث في حياة الشاعر وملامح شخصيته ، ومواقفه ،واهتماماته .

ولتحقيق سيرة ، حياة الشاعر سوف نطرح الأسئلة المحورية التالية : متى بدأت صلة الشاعر بالبيئة المحيطة ؟ وهل للبيئة البحرية أثر في حياة الشاعر ؟ وما مدى تفاعله مع البيئة البحرية بمكّوناتها ؟ وهل للمجتمع والواقع والأحداث أثر في حياة الشاعر وإنتاجه الأدبي ؟ وما هو دور التعلم والثقافة في حياته وآثاره الأدبية فيما بعد ؟ وما هي أبرز ملامح شخصيته ؟

وقد اعتمدنا ذلك التخطيط في تأليف الفصل الأول لإدراك الترابط والتسلسل الزمني المتتبع لحياه الشاعر مرحلة مرحله ، ومن ثم محاولة الربط العضوي بين الواقع وتجربة الشاعر ، و الوصول إلى أجابه محددة للأسئلة الواردة أعلاه .

ويتناول الفصل الثاني دراسة مهنة الغوص في أنين الصواري حيث اقتصر الديوان على هذا الموضوع وذلك في أربعة أجزاء رئيسية وهي كالتالي : إجراءات رحلة الغوص ، شخصيات الغوص أثار رحلة الغوص المادية – آثار رحلة الغوص المعنوية .
أما القضايا التي سوف نركز عليها في أجزاء هذا الفصل فهي الاستعداد لرحلة الغوص ولحظات الوداع فالإبحار ، وشخصيات البحر ورحلة الغوص من تّباب [1] ، وغوّاص [2] وطوّاش [3] ونّهام[4] ، ومخاطر البحر المادية متمثلة في الأسماك المفترسة ، وعوامل الطبيعة ، والظروف القاسية ، والظروف الصحية القاسية التي يتعرض لها الغّواصون ، وآثار رحلة الغوص المعنوية على الغّواص واسرته .

وفي تأليف الفصل الثاني لجأنا إلى الأسئلة التالية : في ما أبرز الدواوين التي ركز فيها الشاعر على ذكر مهنة الغوص ؟ وكيف وظف الشاعر البحر بألفاظه وعناصره ورموزه في وصف مهنة الغوص ؟ وما هو موقف الناس من البحر متمثلاً في رحلة الغوص ؟ وهل ثّمة تطوّر نلاحظه في بروز ظاهرة البحر بمكّوناته وعناصره من ديوان إلى الديوان ، وما دلالة هذا الاختلاف بالنسبة لتطور تجربة الشاعر ؟ .

---

(1) التّباب : هو ابن أحد البّحارة أو أقاربه ويقوم بالخدمة في السفينة وسنه ما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة ، عبد الله خليفة الشملان ، صناعة الغوص ، ص 00

(2) الغوّاص : هو الذي يغوص إلى أعماق البحار بحثاً عن المحار المحتوي على اللؤلؤ مرتدياً البسه تقية آفات البحر ، وبرحله حبلان أحدهما للإسراع به إلى قاع البحر والآخر للإسراع به إلى سطح السفينة ، عبد الله خليفة الشملان ، م.ن، ص 7-00 .

(3) الطّواش : هو تاجر يجوب البحر في مركب خاص بحثاً عن سفن الغوص ليشتري اللآلئ من عرض البحر تجنباً لمنافسة تجار آخرين على خليفة ، أنين الصواري ، ص 53

(4) النّهام : هو مغني البحّارة على ظهر السفينة والذي يخفف عنهم معاناتهم بمواويله الشجية لحظات الإبحار وبين ساعات العمل وليلاً ، عبد الله خليفة الشملان م.س ، ص 12

إن ذلك التخطيط المعتمد في دراسة هذا الفصل إنما هو لإلقاء الضوء على حضور بعض مكّونات ، البحر كواقع حي في شعر علي خليفة متمثلاً في أنين الصواري ، حيث بدا لنا البحر وعناصره بصورة مباشرة ، علماً بأن البحر قد ورد كلفظة مباشرة في ديواني إضاءة لذاكرة الوطن وفي وداع السيدة الخضراء ، إلا أن البحر في هذين الديوانين كان تعبيراً ورمزاً إلى

قضايا سوف نناقشها في الفصل الثالث ، لذلك انصّب تركيزنا في هذا الفصل على رحلة الغوص كحقيقة مستمدة من تراث البحر في شعر علي خليفة وفي الأبحاث والدراسات .

أما الفصل الثالث فمعّد لدراسة أبعاد البحر في دواوين الشاعر ، وذلك في ثلاثة أقسام هي البعد الاجتماعي ، البعد الوطني القومي ، البعد الذاتي .

وسنتناول في هذا الفصل الأمور التالية : اتجاه الشاعر نحو قضايا المجتمع والوطن ، وموقفه من احتلال بعض الجزر العربية ، وتوظيفه البحر للتعبير عن همومه الذاتية والحياتية ، وآرائه في الكون .

وفي تأليف هذا الفصل طرحنا الأسئلة التالية : ما هو المقصود بأبعاد البحر ؟ وكيف استخدم الشاعر البحر للتعبير عن البعد الاجتماعي الثوري ؟ وما هو المقصود بالبعد الاجتماعي ، والبعد الوطني القومي ، والبعد الذاتي ؟ وماذا أصبح البحر يمّثل لدى الشاعر ؟ وما دلالة ذلك على تطور تجربته الشعرية من ديوانٍ إلى ديوان ؟ .

أما التخطيط المتبّع في تصميم الفصل الثالث فهو لبيان تطور التجربة الشعرية عند الشاعر من خلال موضوع البحر وعناصره، حيث بدأ البحر كما سنتبين في الديوان الأول كحقيقة وواقع ثم تحول إلى رمز يعبر عن قضايا اجتماعية ووطنية وقومية ، ثم أصبح له دلالات ومعانٍ ذات صلة بروح الشاعر وأحاسيسه وفلسفته في الحياة

أما الدراسة الفنية لأعمال الشاعر الأدبية فقد خّصصنا لها الفصل الرابع ، وهو يقوم على ثلاثة أقسام رئيسية يتناول القسم الأول منه دراسة اللغة ، وأهميتها في الشعر ، والمؤثرات الإنسانية ، والاتجاه الاجتماعي في لغة الشاعر ، ودارسة السّجلات اللفظية في الموضوعات البارزة الأخرى وهي النخلة والمرأة ، والوطن ، وتوظيف مفردات البيئة البحرية ودلالتها .

أما القسم الثاني فمخصص لدراسة الصورة الخيالية وملامحها العامة في شعر علي خليفة ، ودراسة التصوير الخيالي وتطوره من محسوس إلى مجرد في الدواوين الثلاثة ، وتحديد مواطن التشبيه والاستعارة ، والكناية ، والصورة المركّبة والقصيدة الصورة في شعر علي خليفة .

ويتضمن القسم الثالث دراسة الإيقاع الموسيقي من حيث تحديد مفهوم الإيقاع وتطوره ، ودراسة المؤثرات التي أثرت في تجربة علي خليفة الإيقاعية ومستوى التحليل العام لخصائص التجربة الموسيقية عند الشاعر ؟ ثم تحليل خصائص البنية الإيقاعية في قصائد البحر وتوظيف مفردات البيئة البحرية وعلاقتها بالبنية الإيقاعية .

ولتوضيح الجانب الفني في الدراسة اعتمدنا الأسئلة المحورية التالية وهي : ما هي المرجعية التي اعتمدها الشاعر في لغته الشعرية ؟ هل هي مرجعية تقليدية ، أم رومانسية ، أم واقعية ، وما أبرز المؤثرات العامة في شعره ؟ وهل هناك انسجام بين اللفظ المستخدم والحقل الدلالي ، من معان وأفكار ووجدان ؟ وكيف بدا التعبير الفني في شعر علي خليفة من خلال توظيف البحر ؟ وهل انتقل التعبير الفني من المحسوس إلى المجرد ؟ وما السياقات التي ورد فيها التعبير الفني ؟ وهل ينتهي الشاعر إلى مدرسة العمود ، أم إلى مدرسة الشعر الحّر ، أم إلى مدرسة التفعيلة ، وما هي أبرز المؤثرات التي أثرت في الإيقاع

في شعر علي خليفة ؟ وما هو الاتجاه العام للإيقاع عند الشاعر؟ وهل كل ديوان مثل مرحلة موسيقية مثلما مثــلّ مرحلــة فكرية ومضمونيه .

ويقوم هذا الفصل أساساً على تجميع الملاحظات الفنيــة الــتي تتنــاثر مــن خــلال مقــاطع القصــائد في الــدواوين وإحصاء هذه الظواهر وتبويبها لتكون بناء فنياً يبرز الخصائص الفنية ذات الصلة بموضوع البحر ، ويبينالتطور الموســيقي في تجربة الشاعر ما بين (1969 – 1992) وقد اعتمدنا في تأليف هذه الرسال المنهج التاريخي،والمنهج الوصفي التحليلي .

أما والمنهج المعتمد في دراسة الفصل الأول فهو المنهج التاريخي القائم على التتبع الزمني في تحقيق سيرة حياة الشاعر مرحلة مرحله ، وذلك لإدراك التفاعل بينه وبين البيئة والمجتمع اللذين عاش فيهما ، ومن ثم استناط اتجاه الشاعر الأدبي ، ومــدى التجاوب بينة وبين الوسط الذي صّوره .

وتبدو أهمية المنهج التاريخي في أنه منهج يدرس العمل الأدبي دراسة ذاتية موضوعية أي دراسة لها صلة بتأثرنا بالعمل الأدبي ، وخصائص أسلوب الشاعر الفنية . وهو يدرس العمل الأدبي دراسة تاريخية ، ويشير إلى الظروف والملابســات في المجتمــع والبيئة بعد مراجعة التاريخ العام والفترة الزمنية [1] التي صدرت فيها الظروف والأحداث ذات الأثر في حياة الشاعر وأعماله الأدبية .

وبما أن جزءاً من دراستنا يتناول ظاهرة البحر في شعر علي خليفة فقد حاولنا جمع المعلومات حول هذه الظاهرة ورصــدها وتصنيفها لبيان أهميتها وكثافتها في دواوين الشاعر بالفصحى ، لذلك لجأنا في تأليف الفصول الثلاثة من هذه الرســالة إلى المنهج الوصفي ، وهو من مناهج البحث الحديثة التي يتم عن طريقها الحصول على الحقائق والمعلومات الدقيقة بصورة علمية سريعة[2] ، ووفقاً لخطوات منظمة ، كما تبدو أهمية المنهج الوصفي في شرح وتحليل الظواهر البارزة في موضوع الدراسة ممّا يكشف بالتالي عن إمكانية التطور في طبيعة الموضوع المراد دراسته .

وبعد استعراض فصول الدراسة يجدر بنا الإشارة إلى الدراسات والأبحاث الأدبية التي تناولت تجربة علي خليفة الشــعر يــه بالبحث والتحليل ، وذلك كدراسة جزئية ضمن مجموعة من الشعراء المعاصرين له وأهم هذه الدراسات .

1- دراسة لعلوي الهاشمي بعنوان ما قالته النخلة للبحر ، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة القاهرة وهي دراسة نقدية فنية ، هدفها تلخيص تجارب الشعراء المعاصرين في البحرين بشكل متطور صحيح ضمن منهج فني تقدمي متكامل .
وفي هذه الدراسة أشار المؤلف إلى العلاقة بين المرأة وعلي خليفة في تجربة الغوص من خلال قصيدة " صدى الأشــواق " ، كما أبان المؤلف عن العلاقة بين المرأة والنخلة والوطن في تجربة شاعرنا ، ووضح الوعي الواقعي عند شــعراء الصــحوة الوطنية والقضايا القومية في جذور الوعي الواقعي ، وحلل المعالجة النفسية لموضوع الإنسان والملامح الواقعيــة لشخصــية الغّواص والفلاح والطالب والعامل[3] ، وتلك كانت إشارات وجوانب تناولت شاعرنا ضمن مجموعــة مــن الشــعراء المعاصرين له .

2- دراسات في أدب البحرين : وهي دراسة عامة فنية تاريخية عامة تناولت تجربة شاعرنا بصورة جزئية في ضوء اتجاهات الشعر العربي المعاصر في البحرين وهذه الدراسة كانت تحت إشراف الدكتورة سهير القلماوي ، والدكتور محمد خلف الله

---

[1] سيد قطب النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، ص 147 – 148 .

[2] ديوان بولدب فان دالين ، مناهج البحث في التربية وعلم النفس ، ص 333-334.

[3] علوي الهاشمي ، م . س ، ص 214-229-131-421-459-462-494.

، وقد خصّص الباحث فواز طيفور الفصل الخامس لدراسة الشعر البحريني وقضاياه القومية من بداية النصف الثاني من القرن الحالي [4] ، وخصّص الباحث ميرزا عمران حبيب الفصل الثامن لدراسة الحركة الشعرية المعاصرة في البحرين ، و أشار فيها الباحث إلى بعض القصائد ذات الاتجاه والاجتماعي ، والوطني والثوري، والإنساني في تجربة الشعراء المعاصرين ومنهم علي خليفة كما ألمح الباحث إلى توظيف شاعرنا للتراث الشعبي كما يبدو في أنين الصواري لاسيما في قصيدة " صدى الأشواق " ، و "على أبواب الرحلة الأولى " و "جرح في ضمير الليل " [1] .

وقد أعد الباحث عودة الله منيع القيسي دراسة مستقلة عن الشاعر علي خليفة ، وعنوانها " الشاعر علي خليفة في ضوء اتجاهات الشعر العربي المعاصر "، فأشار الباحث إلى أبرز الاتجاهات في شعر علي خليفة وهي : الاتجاه الاجتماعي الذي تناول مشكلة الغوص وعمال الألمينوم ، والاتجاه الثوري ضد نقائص المجتمع ، والتعبير عن الأحداث الثورية ، والاتجاه الذاتي القائم على الحب ، والاتجاه الإنساني ، وكان ذلك في القسم الأول من الفصل التاسع [2] في الدراسة .

وقد خصص الباحث القسم الثاني في هذا الفصل للدراسة الفنية في تجربة الشاعر ، فأشار بصورة سريعة وموجزة إلى الأسطورة ، والتراث والروح الشعبية ، واستخدام الصور الخيالية والصياغة [3] الفنية مقارناً أحياناً ، بين شاعرنا وبعض الشعراء المعاصرين له .

3- دراسة لماهر حسن فهمي وعنوانها : تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج وفيها وضح الباحث مجموعة من القضايا الأدبية في الخليج كالصراع بين القديم والحديث ، والعلاقة بين الأدب والمجتمع ، وأبان عن ملامح الحياة الأدبية في الخليج ، و ألمح إلى بعض الشخصيات الأدبية مثل إبراهيم العريض [4] ، ومحمد الفايز[5] وعلي خليفة الذي حلل بعضاً من قصائده في أنين الصواري تحليلاً سريعاً شمل مقاطع من قصيدة "صدى الأشواق"وقصيدة "من أوال الشط أحكي " و" شمس المفاوز" [6] وأشار الدكتور ماهر حسن فهمي إلى تجربة الشاعر وتطورها في أنين الصواري و إضاءة لذاكرة الوطن .

4-دراسة هيا محمد عبد العزيز الدرهم وعنوانها : صورة البحر في الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج وهي دراسة فنية تحليلية تناولت فيها الدراسه نماذج من شعر علي خليفة في معرض الحديث عن موقف شعراء الخليج من البحر ، وفي الفصل الثاني تناولت الباحثة أهمية صورة البحر في الشعر بمنطقة الخليج ، وأبانت عن أشكال الصورة القائمة على التشبيه ثم صور الاستعارة والكناية ثم الصورة المركبة والقصيدة الصّورة ، ذلك من خلال بعض القصائد ذات الصلة بالبحر و لم تتناول الباحثة في دراستها حياة شاعرنا وأهمية أشعاره و لم تركز على تحليل الجوانب الفنية في

---

(4) سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، دراسات في أدب البحرين ، ص 200-211-333-369.

(1) أنين الصواري ، ص 35-25-85.

(2) سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، عودة الله منيع القيسي ، م. س ، ص 369 .

(3) سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، عودة الله منيع القيسي ، م.س ، ص 392-427.

(4) إبراهيم العريض : ولد إبراهيم عبد الحسين العريض في مارس (0908) في مدينة بومباي بالهند من أب بحريني وأم عربية ، وعاش مع أسرته في الهند وتعلم في مدارسها أثناء وجود أبيه للعمل في تجارة بيع اللؤلؤ ، وقد أتم دراسته الثانوية بالهند ، أجاد الأوردية ، والإنجليزية والفارسية ، ثم عاد إلى البحرين عام (1966) ودرس اللغة العربية ، وزاول التعليم بمعارف البحرين (1925- 1932) ثم أسس المدرسة الأهلية بإدارته وعمل مترجماً في شركة النفط بالخليج (1937 – 1967) مّثل البحرين في عدد من المؤتمرات الأدبية والدولية ، من أثاره الشعرية ، ديوان الذكرى، ومسرحية وا معتصماه ، وديوان العرائس ، وله في النقد الشعر والفنون الجميلة ، الأساليب الشعرية وغيرها ، علوي الهاشمي ، شعراء البحرين المعاصرون ، ص 57 ، منى غزال العليوات ، إبراهيم العريض بين مرحلتي الكلاسيكية والرومانسية ، ص 192.

(5) محمد الفايز ، أنظر ، ص

(6) علي خليفة ، م. س ، ص 35 – 51 .

إنتاجه بعمق ، إذ اختارت الباحثة نماذج من أنين الصواري ، وذلك لاحتوائه على الألفاظ والمعاني والصور ذات الصلة المباشرة بالبحر ، وهذه النماذج هي قصيدة "صدى الأشواق " وقصيدة " أنين الصواري " [7] .

4-دراسة الدكتورة نورية الرومي وعنوانها : الحركة الشعرية في الخليج العربي ما بين التقليد والتطور ، وهي رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة عين شمس ، وقد خصّصت الباحثة الفاصل الثالث من رسالتها لدراسة الاتجاه الواقعي لدى شعراء منطقة الخليج ، تناولت فيه الدراسه بالنقد النزعة الذاتية عند شعراء الاتجاه الواقعي، وأشارت إلى علو نبرة الالتزام بقضايا الواقع على الفن لدى شعراء النزعة الواقعية ، وقد تحدثت الدراسه عن تجربة شاعرنا في سبع صفحات حيث بدأت من صفحة (481 – 487) واستشهدت بنماذج من شعره

ولا يسعنا بعد ذلك إلا أن نشير إلى أن هناك الكثير من الأبحاث والدراسات [1] الموجزة التي تناولت تجربة شاعرنا في لجرائد والمجلات المحلية والخليجية والعربية فصلاً عن الدراسات الجامعية .

ومع ما تقّدم نجد أن الدراسات التي تناولت تجربة شاعرنا الأدبية لم تفه حقه ، ذلك لأنها ليست منشورة أو منتشرة بشكل اسع معروف وقابل للتداول ، عدا دراسة علوي الهاشمي و نوريه الرومي ، إلى جانب أن هذه الدراسات كما لم تتناول تجربة الشاعر تناولاً متكاملاً شاملاً مفضلاً لجوانب حياته وسائر أنشطته .

وربّما يعود السبب أيضاً في تقصير الدراسات عن أن تفي الشاعر حقه إلى أن الباحثتين يجلّون القديم ويشّكون في قيمة الحديث إذ يبنون أحكامهم على الآداب الكلاسيكية المتقدمة ويعتبرونها مثالاً لا يحيدون عنه ، كما تتطلب الدراسة المتخّصصة لشاعرٍ معاصر وفرة المصادر ، والمراجع ، والوثائق ، واللقاء به وبأهله ومعارفه ، مّما يجعل البحث يتشعب ويطول .

ولاشك في أن دراسة شاعر معاصر حي تتضمنها عوامل منها الحرج من الإدلاء بالرأي والمعلومات المتعلقة به ، لا سيما إذا كان المجتمع متحفظاً ، كما تتضمنها عوامل تبعدنا عن الموضوعية منها الوفاء لزميل والتملق والحسد والبغض والعداء وكلها ليست ببعيدة عن الإنسان ... [2] وقد يتخوف الباحث من وقع أثر بحثه ونقده ، ورأيه في ا لأجيال المعاصرة بسبب كونها تعرف الأديب المعاصر وإنتاجه وإن كانت معرفة سطحية .

بعد أن تعّرفنا فصول دراستنا الأربعة بأجزائها وأهم محتوياتها ، سوف نتطرق إلى ما بعد هذا الفصل حيث سنقدم في نهاية البحث الخاتمة ثم فهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الأعلام ، أما فهرس المواضيع فهو في مقدمة الرسالة ، أما المصادر التي اعتمدنا عليها في رسالتنا فهي :-

---

(7) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص ، 35 – 85 .

(1) أهم الدراسات : التعريف بالحركة الأدبية الجديدة في البحرين أحمد المناعي ، (1973) محمد جابر الأنصاري ، أقطاب الحركة الأدبية في البحرين خلال المائة سنة الأخيرة ، (1966)، الغّواص القديم الذي استخرج أدباً جديداً ، مقالة في مجلة الدوحة القطرية ، (1976) هلال الشايجي ، اتجاهات الشعر البحريني الحديث ، عبد الله الطائي ، الشعر المعاصر في الخليج العربي ، القاهرة (1975)، يعقوب المحرقي ، دراسة أنين الصواري ، مجلة أقلام ، (1975) ، قاسم حداد , سنفونية الحب الناقصة ، دراسة أنين الصواري ، (0970) ، سليمان ماهر العطار ، دراسات نقدية ، مجلة البحرين الثقافية ، (1995) .

(2) ريمون طحان ، دنيز بيطار طحان ، ، م . س ، ص 162 .

- علي خليفة ، أنين الصواري .
- علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن .
- علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء .

ويجدُر بنا بعد التقديم لموضوع الرسالة وأهميتة وفصوله وأجزائه الإشارة إلى ما اعترضنا من صعوبات منها كـــون البحـــث بالمراسلة مّما جعلنا نجد صعوبة في الاتصال بالجامعة في لبنان ، وما يتطلب ذلك من استفسار أو تساؤل ، وذلك إلى جانب عدم توفر وسيلة المواصلات لدينا في البحرين حيث وجدنا الصعوبات في التنقل ما بين المكتبات العامة والخاصـــة، واللقـــاء بالشاعر وبعض معارفه ، كما وجدنا صعوبة أخره تتعلق بقلة المصادر والمراجع في البحرين أو بعض البلاد العربيـــة ، إلا أن هذه المشاكل قد تضاءلت أمام ما وجدناه من عونٍ قدمه لنا الكثيرون وفي مقدمتهم الدكتور الفاضل هنري العويط الـــذي وجدنا منه العون والتشجيع فبفضل الله وفضله كان لهذه الدراسة أن تتم ، فقد بذل من جهده ووقته الكثير لمساعدتنا والرد على استفسارنا وتوجيهنا وإرشادنا ، ولا ننسى ما بذله الشاعر علي خليفة من جهد ومساعٍ حميدة في سبيل إخراج هـــذا الموضوع سواء أكان ذلك من خلال المقابلات الشفوية واللقاءات في مكتبة بمؤسسة (دار الغدً [1]) أو في مقر عمله بـــإدارة الثقافة والفنون ، كما قد أمدّنا بنسخ من قصاصات الجرائد والمجلات التي صوّرها لنا ، وهي تتناول مقابلات ومقالات أدبية حول إنتاجه وأنشطته ومساهماته .

وقد قّدم كل من الدكتور إبراهيم غلوم والأستاذ مبارك الخاطر والأستاذ منصور محمد سرحان وعبد الحميد المحادين مـــا في حوزتهم من ملاحظات فيمه ذات صلة بأعمال الشاعر وحياته ، كما نقدّم شكرنا إلى الأستاذ الفاضل أحمد المناعي الـــذي أمدّنا ببعض الدراسات الأدبية[2] التي تناولت إنتاج الشاعر بالدراسة والتحليل .

ولسنا ننسى الجهد المشكور الذي بذله الأستاذ الفاضل حمد المناعي في أنه عمل على تصوير قصيدة " إلى بحّار لم يُعد "مـــن نسخة محفوظة بأرشيف وزارة الإعلام وهي من مجلة هنا البحرين .

كما نقّدم الشكر إلى الأستاذ الكريم محمد كمال الذيب الذي أفادنا برأيه حول ملامح شخصية الشاعر ، فضلاً عن محاولته البحث عن آراء بعض معارفه الآخرين من الكتّاب والنقاد .

ولا يفوتنا أن نشير إلى ما بذله الأخ الكريم يوسف النبهان من محاولة البحث عن بعض المعلومات ذات الصلة بدراسة الشاعر وثقافته وملامح شخصيته ، وذلك من معارفه من الباحثين والدارسين خلال قيامة بطباعة الرسالة .

وأخيراً فإن هذه الدراسة مدينة للكثيرين منهم أفراد عائلتنا الذين وجدنا منهم التشجيع والتفهم والتقدير لما نقوم به من جهد.

---

(1) دار الغد ، أنظر ، ص ، سوف يأتي الحديث عنها بالتفصيل .

(2) الدراسات الأدبية : أنظر ، ص .

أن روح التعاون والتقدير للعمل الذي قدمناه من هؤلاء جميعاً وغيرهم آخرين كانت ذات أثر هام في إنجاز هذه الرسالة ، فقد كنا نشعر من خلال تعاونهم بالثقة وحب البحث والسعي وراء المعرفة مّما ذّلك الصعوبات أمامنا وأحال القلق واليأس أحياناً إلى عمل دائب نحو مزيد من البحث والله الموفق .

المدخل العام

الموقع الجغرافي :

البحرين اسم أطلقه العرب القدماء على مجموع البلاد الواقعة من البصرة شمالاً حتى حدود عُمان جنوباً وكانت عاصمتها الأحساء، ومن ثم أطلق اسم البحرين على (جزيرة البحرين) المسماة به الآن ، وقد نالت البحرين قديماً وحديثاً شهرة عظيمة لاسيما لؤلؤها المعروف بالحُسن والجودة الذي يقصده التّجار من الآفاق[1].

وتمتاز البحرين عبر مراحلها التاريخية عّما حولها من دول المنطقة بموقعها الجغرافي وسط العالم ، إذ تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من الوطن العربي في الجزء الغربي من وسط الخليج ، وهي مجموعة جزر متناثرة – أرخبيل يحيط بها البحر من جميع الجهات ، وقد مدّ الآن بينها وبين المملكة العربية السعودية جسر يبلغ طولة 25 كيلو متراً ، والبحرين ذات مساحة صغيرة لا تتجاوز الأربعمائة والخمسين ميلاً مربعاً ، وإن كانت كبيرة في تاريخها الطبيعي والاقتصادي والسياسي [2] .

الطبيعة :

اشتهرت البحرين بكثرة المياه العذبة والينابيع البحرية والعيون البرية التي تفور بقوة وتسيل على وجه الأرض ، كما اشتهرت البحرين بالنخيل والبساتين والجزر الجميلة .

وتمتاز البحرين في أجزاء منها بالتلال والمرتفعات ، وأعلى ارتفاع بها يبلغ نحو (400) قدم ويسمى جبل الدخان وإن كان هضبة [3] .

أما هواء البحرين فهو جاف نقي في بعض الجزر ، إلا أن جوها شديد الحرارة والرطوبة صيفاً دافئ شتاءً ، وتمتاز البحرين بطبيعة ذات سحر وجمال وهدوء الأجواء فيها [4] .

الجانب الاقتصادي :

بّما أن جزيرة البحرين كانت كثيرة ، النخيل والأشجار ، وتُحيط بها مياه البحر من جميع الجهات فإن سُبل العيش قد تنوعت فيها، فالغوص كان بحثاً عن اللؤلؤ واستخراجه وصناعته ، إلى جانب زراعة النخيل ، إذ كان بها (800) [5] نوع من التمور وكان يضرب بها المثل في كثرة الرطب والتمر فيقال (كنا قل التمر إلى أُوال)[6] .

---

(1) محمد خليفة بن حمد ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ، ص 12 .

(2) محمد بن خليفة بن حمد ، م.ن ، ص 13 ، أمين الريحاني ، ملوك العرب ، 722/22.

(3) محمد بن خليفة بن حمد ، م.س ، ص 12.

(4) محمد بن خليفة بن حمد ، م.ن ، ص 13 ، أمين الريحاني ، م.س ، 722/2.

(5) محمد بن خليفة بن حمد ، م.س ، ص 12.

(6) أُوال كانت البحرين تسمى (أُوالاّ) باسم سنم أبناء وائل ، محمد بن خليفة بن حمد ، م.ن، ص 12 .

ويزرع في البحرين الرمان والتين الأبيض والموز والأترج و الخوخ والمشمش والكمثرى و النبق والتوت والقثاء واللوز. وبها من الأزهار الفل والياسمين والريحان الذي كانت تتزين به النساء بتعليقه على رؤوسهن بكثرة مُفرطة . وبها من الخضراوات الباذنجان والبامية والكرّات ، ونبات البرسيم للبهائم [1] .

ويوجد في البحرين الخيل الأصيلة ، والإبل العُمانية التي كان يستخدمها الأهالي للركوب ، كما يوجد أيضاً البقر والضأن والمعز ومن الصيد الظباء والأرانب .

ولأهل البحرين ولع بتدريب الخيل واستخدامها في مضمار السبق ، إلى جانب القنص بالطيور والكلاب والاهتمام بها وبتعليمها الصيد ، لاسيما من جانب الحكام والأمراء ، إذ كانوا يذهبون بالطيور إلى البراري في موسم الخريف ، وذلك للتنزه والقنص [2] .

وأهم الصناعات في البحرين نسج العبي ، وصناعه والسفن الشراعية الضخمة والصغيرة ، وصناعة الفخار والسلال والحُصر والبُسط ، لذلك اشتهرت البحرين بالتجارة مّما عمل على تحريك عجلة الحياة الاقتصادية ومّد الإنسان بالقدرة على مواصلة الحياة وبناء الحضارة.

أما عماد الحياة الاقتصادية فهو الغوص على اللؤلؤ فمعاش أهل البحرين هو الغوص في البحر لاستخراجه مّما يدّر أرباحاً وفيرة على أصحاب السفن وتجار اللؤلؤ [3] .

وأهم صادرات البحرين اللؤلؤ ، والسمك المجفف ، والصّدف ، والمحاصيل الزراعية من فواكه ونباتات وخضراوات [4]

المعطيات التاريخية :

إن موقع البحرين الجغرافي، وتنوع سبل الحياة الاقتصادية فيها قديماً هيأها لتكون محطة رئيسية على طريق التجارة العالمي ، وجعلها محطاً لأنظار الطامعين والغزاة الذين تعاقبوا عليها منذ فجر التاريخ حتى مطلع العصر الحديث ، إذ تعّرضت البحرين في مستهل القرن السادس عشر الميلادي للاستعمار الأوربي ، وقد كانت في العصر الإسلامي ملاذاً للثوار والخارجين على الدولة العباسية ، ونشأ عن ذلك الصراعات الدامية على أرض البحرين والحروب والأطماع الخارجية ، والفتن الداخلية [5]

ونتيجة لما تقّدم اضطرت أعداد من السكان في البحرين إلى الهجرة مّما عمق تجربة الإنسان البحريني ووسع أفاق مداركه الفكرية والسياسية .

---

(1) محمد بن خليفة بن حمد ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ، ص 25.

(2) محمد خليفة بن حمد ، م.ن ، ص 25-26 .

(3) محمد بن خليفة بن حمد ، م. ن ، ص 13.

(4) محمد بن خليفة بن حمد ، م . ن ، ص 24-25.

(5) علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 15-16 ، أنظر تطور البحرين التاريخي والحضاري منذ أقدم العصور ، حسين البحارنه .

المناخ السياسي :

المناخ السياسي العام في المجتمع البحريني فترة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين كان يبدو في تقييد حكام المنطقة بالمعاهدات السياسية المشروطة إثر اكتشاف النفط ممّا مهد السبيل إلى نشوء حركات دينية واجتماعية وسياسية مناوئة للسيطرة الأجنبية ومنها الحركة الإصلاحية عام (1938) والتي شملت كلاً من البحرين والكويت ، وكانت تدعو للتخلص من سيطرة الأجنبي ، وإجراء إصلاحات سياسية تغير من طبيعة المنطقة [1] .

ويبدو المناخ السياسي أيضاً في متابعة أخبار الحرب العالمية الثانية التي جذبت تطوراتها اهتمام ومتابعة الأهالي لها ، أما المتابعة فكانت عن طريق أجهزة الراديو المثبتة في المقاهي ، وبعض الصحف المحلية والوافدة .
وفي الاهتمام بتطورات وأخبار الحرب ما يدل على تأثيرها في الاقتصاد المحلي حيث أصبحت البلاد في أزمة اقتصادية ، فنظمت عملية التموين احتياجات الناس من المواد الغذائية التي كان توزيعها يحتسب ضمن نظام البطاقة لكل صاحب عائلة [2] .

كما تدل المتابعة لأخبار الحرب العالمية الثانية على الاهتمام بالوضع السياسي السائد في العالم ووعي الإنسان بما يدور حوله.

الجانب الإداري :

تتكون دولة البحرين من ثلاث وثلاثين جزيرة أهمها جزيرة (المنامة) [3] وهي العاصمة التي تقع في الجزء الشرقي من إحدى أكبر جزر البحرين ، وتشتهر بأسواقها التجارية ، وأبنيتها الحديثة إلى جانب أبنيتها القديمة ، وإلى الشرق منها تقع جزيرة (المحرق)[4] .

ويبلغ طول جزيرة المحرق خمسة أميال ، وعرضها ميلان وتحيطها مياه البحر ، ويربطها بجزيرة المنامة جسران طول كل منهما حوالي ثمانمائة متر وكل منهما بممرين ، وتشتهر جزيرة المحرق بغزارة مياه الينابيع البحرية والعيون العذبة ، كما تشتهر بكثرة البساتين والنخيل ، وطيب الهواء ، ويقع فيها مطار البحرين الدولي وتتبع جزيرة المحرق خمس قرى وهي : البسيتين ، والدير ، وسماهيج ، وقلالي ، وحالة أبي ماهر[5].

ولنا وقفة أخرى عند المحرق لكونها مسقط رأس شاعرنا .

---

(1) نورية صالح الرومي ، الحركة الشعرية في الخليج العربي ما بين التقليد والتطور ، ص 17.

(2) خالد البسام ، تلك الأيام ، ص 122 .

(3) المنامة كانت تسمى (المنعمة) وقد اختلف في سبب إطلاق اسم المنامة فمن قائل أنه تحريف المنعمة ، حرفها الأعاجم الذين سيطروا ، عليها ، ومن قائل إنه كان فيها قصر لمنام أحد الملوك السابقين فسميت بـه ، محمد بن خليفة بن حمد ، م.س،ص 54 .

(4) المحرق : قيل إن سبب تسميتها بذلك هو أن المجوس كانوا يحرقون أمواتهم في ناحية منها لما كانوا مالكيها قبل الإسلام، محمد بن خليفة بن حمد ، م.ن ، ص 43.

(5) حالة أبي ماهر : الحالة اصطلاح كان يطلق في البحرين على كل قرية تحيط بها المياه ، أي الجزيرة ، وتقع حالة أبي ماهر جنوب مدينة المحرق ، وكانت منفصلة عنها ، ثم دفنت و اوُصلت الأسواق والبيوت بينهما ، محمد بن خليفة بن حمد ، م.ن ، ص 43.

المحـــــــــرق :

تسكن جزيرة المحرق وقراها مجموعة من العائلات ، الغنية والفقيرة ن وتمتاز بارتباطها باستيطان القبائل العربية الموالية للأسرة الحاكمة من آل خليفة وفي عصبية طبيعية – حسب تعبير ابن خلدون ، أو بمعنى آخر استيطان تجار اللؤلؤ وحكام المقاطعات ممّا أكسب الحاضرة مدينة المحرق أهميتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . فالمدينة منذ تأسيسها واستيطان القبائل العربية لها في القرن التاسع عشر الميلادي أصبحت ثغراً بحرياً مهماً وهدفاً لتجارة البلاد الشرقية القريبة [1] ممّا ساعد على ازدهارها نسبياً مقارنه بباقي المدن البحرينية مثل الرفاع [2] .

ونجد أن التركيب العمراني الذي أخذ يتّشكل من جوانبه السياسية والاقتصادية والعمرانية كان له دور في أهمية مدينة المحرق كعاصمة سياسية حتى بداية القرن العشرين حيث امتازت بنظام الوحدات السكنية إذ كانت كل قبيلة أو عشـــيرة عنـــد استيطانها تتخذ لها حياً سكنياً ، فتأتي إلى موضع في العراء لا يشاركها فيه احد وتبنى فيه مساكنها ، وإن كان من المعتقـــد وجود قانون ضمني يحكم علاقات الاستيطان والجوار بين تلك القبائل ، ويتداخل مع هذه المســـتقرات القبليـــة مســـاكن المستوطنين من أرباب الحروف كالبحّارة والحدّاده ، و القلاليف ، وغيرهم .

وقد امتازت المحرق بنمطين من الهجرة : النمط الجماعي : ويتمثل في هجرة بطون وقبائل بشكل جماعي ، والنمط الفردي ويتمثل في هجرة أفراد أو عشائر او أسر محدودة للاكتساب من البحر أو مزاولة أعمال مهنيـــة وحرفيـــة ، ثم الاســـتقرار واستيطان المدينة [3] .

الجانب الاجتماعي :

وتشتهر مدينة المحرق بسب التشكيل العمراني ونظام الأحياء السكنية الخاصة بالنمطين الاجتماعي والفردي بمتانة الـــروابط الاجتماعية [4] التي تبدو في حماية الجار لجاره ومساعدته في السراء والضراء ، وكما تتميز المحرق كســـائر مـــدن البحـــرين بالعادات الأصيلة ، التي تظهر بوضوح في المناسبات الدينية مثل الموالد والأعياد وحفلات الزفاف التي أهم ما يميزها ارتـــداء أزياء شعبية معينة وأداء رقصات معينة وتناول أطعمة خاصة بهذه المناسبات .

والمرأة في المجتمع البحريني لم تنل في مطلع القرن العشرين حظاً وافراً من التعليم ، وكان الكتّاب (المطوع) هو مركز العلم الذي كانت الأسر ترسل إلية بناتها للتعلم ، و لم تكن المرأة تنعم بالحرية ، إذ كانت قوانين المجتمع تقّيدها فكانـــت تضـــع الحجاب ، وترتدي العباءة ، وكانت تعمل على تنظيف السمك وبيعه ، ومساعدة الرجل في زراعة الحقل وبيـــع المحصـــول وذلك خارج المنـــزل .

أما المهن التي كانت تزاولها العائلات الفقيرة في المجتمع البحريني آنذاك فهي صناعة الغوص على اللؤلؤ، وصـــناعة الســـفن والقوارب الشراعية ، وأدوات الغوص إلى جانب الزراعة .

---

(1) محمد بن خليفة بن حمد ، التحفة النبهانيه في تاريخ الجزيرة العربيه ، ص 000 .

(2) الرفاع : تقع على مسافة نصف ساعة من المنامة وهي سكن الأسرة الحاكمة قبل المحرق في القرن الثامن عشر ، ومقر لأمير البحرين ومعظم الأسرة الحاكمة حالياً ، محمد بن خليفة بن حمـــد ، م . ن ، ص 47، كارق والي ، المحرق لطائف العمران في دراسة المكان ، ص 68 .

(3) طارق والي ، م . ن ، ص 69

(4) طارق والي ، م.ن ، ص 69

ونتبين أن عائلة والد شاعرنا (عبد الله خليفة) كانت تسكن حياً من الأحياء الفقيرة في مدينة المحرق وكانت تمتهن صناعة الغوص على اللؤلؤ شأنها شأن كثيرٍ من الأسر البحرينية ، وفي حالة أبي ماهر [1] كانت تسكن عائلة شاعرنا لأمه ، وكانت تمتهن صناعة السفن الشراعية ومن ثم حدث تقارب اجتماعي بين عائلة عبد الله خليفة وعائلة (القلاليف) [2] ، إذ تم زفاف السيد عبد الله إلى إحدى فتيات تلك العائلة .

وبعد ذلك أصبحت الزوجة تعيش في بيت متواضع استأجره لها الزوج بالقرب من بيت عائلته الكبير حيث انتقلت الزوجة من القرية إلى مدينة المحرق المجاورة التي تميزت بيوتـــها بالبساطة فهي أقرب إلى أساسيات المنازل و غرفها الصيفية مبنية من سعف النخيل وجذوعها ، أما غرفها الشتوية فمبنية من مادة الجبس ، وتشتهر هذه البيوت بممراتها الضيقة جداً ، كما تشتهر طرق المدينة بالدروب الضيقة أيضاً [3] . كان ذلك هو وصف الآنسة اليزابيث [4]وهو يبدو مطابقاً لوصف علـــي خليفـــة للمدنية والحي والبيت الذي ولد وعاش فيه مع أسرته إذ قد ورد هذا الوصف في مجرى الحديث مع الشاعر في بعض المقابلات الشفوية [5] .

البيئة المحيطة :

وتُعد البيئة المحيطة مصدراً من مصادر معرفة الإنسان ، وهي مصدر موجود قبل مولده ، لذا فهو يكتشف بعد مولده الأشياء من حوله و يتعّرفها مّما يقوي الصلة بينه وبين ما يحيط به ، والبحر بيئة غنية بالموجودات ذات الصلة بمجتمع الغوص ومنها : الشواطئ والمياه والرمال ، والقوارب ، وأدوات الصيد والغوص . وقد تعّرف علي خليفة هذه الموجودات حينما اشـــتد عوده وأخذ ينتقل ما بين مدينة المحرق وحالة أبي ماهر حيث مسكن جدته وجده لأمه و أخواله ، وكان علي خليفة شديد الارتباط بعائلة أمه منذ طفولته فهو يحب اللعب في منـــزل جدته لأمه وعلى شاطئ البحر في قرية أبي ماهر ، حيث كـــان عالم الطفل الصغير هو الشواطئ الممتدة بامتداد القرية ، لذلك ظل لهذا المكان ولعائلته لأمه نصيب من الحب والوفاء لا يزال محفوراً في القلب ، ودليل ذلك أن الطفولة بأيامها وأمالها وأحلامها لا تزال تجرّه إلى الآن إلى مدينة المحرق وحالة أبي مـــاهر حيث التعلق بالعائلة الممتدة والناس والمعارف .

إن البحر بامتداد شواطئه وبرماله و أحجاره كان ميداناً للعب شاعرنا ومرحه مع أقرانه ذلك اللعب الذي يبدأ منذ الصباح ، ويستمر حتى المساء ، وقد طال هذا اللعب شباك الصيادين بالدخول فيها والقوارب الراسية في البحر عند الجزر بالصـــعود إليها ، ومياه البحر بالاستحمام فيه . وقد كان بيت جده وجدته لأمه على مقربه كبيرة من البحر وكانت مياهه تغمر فناء البيت في حالة المدّ ، و أدوات البحر والغوص تتناثر في فنائه مّما زاد من صلته بالبحر ، فتعّرف عن كثب أدواته من شبك وشراع ، و مرســـاة ، وخيـــوط ، وحبـــال ، ذلـــك إلى جانـــب اللعـــب حـــول ينـــابيع البحـــر العذبـــة لاســـيما

---

(1) حالة أبي ماهر : الحالة : أنظر ص

(2) القلاليف : مفردها : قلاف وهو لقب يطلق في البحرين على من يمارس صناعة الخشب والقوارب والسفن الشراعية .

(3) عبد الله مهدي ، نكهة الماضي ، ص 59 ، علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (28 اغسطس 1994) .

(4) اليزابيث : هي مواطنه أمريكية جاءت إلى البحرين لتعمل ممرضة في أوائل القرن العشرين في مستشفى الإرسالية الأمريكية ، عبد الله مهدي ، م . س ، ص 9

(5) علي خليفة ، م. س ، (31 اغسطس 1994) .

(كوكب حالة أبي ماهر) [1] الذي شرب من مائه مّما دفع به إلى التردّد على منـــزل الأخوال في القرية حيث الأقـــارب الكبار والأطفال الصغار ، وحيث البحر . الذي ما يزال يراه كما كان طفلاً ويشتاق إلى اللعب حول شواطئه [2] .

هكذا بدأت علاقة علي خليفة بعد مولد بالبيئة المحيطة حيث تعّرف البحر وأغاني المهد والموّال والحكايات والأساطير كمـــا سيتقّدم، وكانت تلك مصدراً من مصادر المعرفة التي ساهمت فيما بعد في تشكيل موهبته الأدبية ، إلى جانب إقباله على العلم والدراسة.

التعليم في البحرين :

يُعد الكتّاب (المطُوّع) باللهجة البحرينية مصدراً أساسياً للتعليم في البحرين قبل وجود التعليم النظامي ، وكان يقوم بتعليم الأطفال في أوائل القرن العشرين قبل عام (0905) مبادئ القراءة والكتابة وأرقام الحساب لإعدادهم لأغراض التجـــارة وحسابات صيد اللؤلؤ ، وكتابة الرسائل [3] . وكانت المهمة الرئيسية (للكُتّاب) هي تعليم الدارسين حفظ القرآن الكـــريم أولاً ، أما التدريس فكان يشمل الأولاد والبنات معاً ، وقد انتشرت الكتاتيب بشكل رئيســـي في المنـــازل وفي الأســـواق والممرات ، وكانت هناك بعض النسوة اللآتي يقمن بتعليم [4] الدارسين ثم بدأ التعليم شبه النظامي في أواخر القرن التاســـع عشرة إلى جانب وجود الكتّاب .

التعليم شبه النظامي في البحرين :

تلا فترة التعليم بالكّتاب فترة التعلم شبه النظامي الذي بدأ في البحرين عام (1892) عندما أســـس القـــس (صـــمويل زويمر)[5] المدرسة الأمريكية وهي أول مدرسة تفتتح في البلاد ، وكانت تقوم بتعليم اللغة الإنجليزية والحساب ، ومبادئ اللغة العربية ، ثم أغلقت بسبب نقص في التمويل بعد أن تخرج منها مجموعة من الشابات والشباب البحرينيين ، وكـــان يقـــوم بتدريسهم اللغة الإنجليزية بعض الأمريكيين ، وقد انضم إليهم بعض المدرسين العرب لتدريس اللغة العربية ، ووصل عـــد تلامذة هذه المدرسة خمسة وثمانيين تلميذاً في عام (0905) [6] وبعد هاتين المرحلتين أخذ التعليم النظامي في الظهور

التعليم النظامي في البحرين :

ظهر التعليم النظامي في البحرين اعتباراً من عام (1919) عند ما تم تأسيس مدرسة الهداية الخليفية للبـــنين [7] بـــالمحرق واعتمدت هذه المدرسة في بادئ الأمر على الإعانات المقدمة من التجار والمقتدرين من أبناء البحرين ، وكانت تدار تحت

---

(1) الكوكب : يُطلق أهل البحرين على نبع الماء العذب وسط البحر (الكوكب) .

(2) علي خليفة ، م.س (31 أغسطس 1991)

(3) ماهر حسين فهمي ، م . س ، ص 11-12 منصور محمد سرحان ، واقع الحركة الفكرية في البحرين ص 113 .

(4) منصور محمد سرحان ، م . ن ص 113 ، طارق والي ، م. س ، ص 59.

(5) صمويل زويمر:مواطن أمريكي جاء إلى البحرين ليعمل موظفاً ضمن الإرسالية الأمريكية في نهاية القرن التاسع عشر وكان من مهامه التبشير ونشر العلم ، منصور محمد سرحان ، م.س ، ص 114 .

(6) منصور محمد سرحان ، م.ن ، 114 .

(7) الهداية الخليفة : هي أول مدرسة للبنين تفتتح في الخليج بعد الحرب العالمية الأولى ووضع حجر أساسها بيد الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين آنذاك ورئيسها المنتخب الأول الشيخ عبد الله نجل الحاكم ، وهي عجيبة البناء تشبة الثكنة العسكرية ولا يزال التـــدريس بهـــا قائمـــاً وتعـــد رمـــزاً مـــن رمـــوز الثقافـــة والعلـــم في البحـــرين ، محمـــد بـــن خليفـــة بـــن حمـــد ، م.س ، ص 40 ، منصـــور محمـــد سرحان ، م.س ، ص 114 .

إشراف مجلس من أعيان البلاد ، ثم أخذت الحكومة على عاتقها دفع معونات شهرية للجان التعليم في البلاد على الرغم من عدم تبعيتها للإدارة الحكومية ، وفي عام (1932) أصبحت جميع المدارس في البحرين تابعة للإدارة الحكومية مباشرة .

وقد افتتحت بعد ذلك مدرسة ابتدائية بالمنامة للبنين ، أما أول مدرسة للبنات فقد افتتحت في عام (1928) وتلاها افتتاح مدارس أخرى بالمحرق ثم تطور مجال التعليم في البحرين في العقد الثالث من القرن العشرين وتوالى افتتاح المدارس واستقدام المدرسين من الوطن العربي وإرسال البعثات ، وإنشاء المكتبات . وفي أوائل الثلاثينيات تولى المستر (بلجريف)[1] إدارة المعارف ، وفي عام(0940) عُين المستر (أداريان فالانس) [2] مديراً للتعليم ، وقد اقترح سلماً لنظام التعليم في البحرين يتكون من المراحل التالية :

1- المرحلة الأولى : وتسمى المرحلة التحضيرية .
2- المرحلة الثانية : وتسمى المرحلة المتوسطة .
3- المرحلة الثالثة: وتسمى المرحلة النهائية .

وفي عام (1946) تم تعيين الأستاذ (أحمد العمران)[3] مديراً للمعارف في دولة البحرين .

هكذا كان يبدو التعليم في البحرين خلال النصف الأول من القرن العشرين مّما صقل ذاكرة الإنسان البحريني وأذن ببوادر نهضة علمية أدبية ثقافية إذ قد تعددت دور العلم ، وكثرت الصحف والمجلات الأدبية والسياسية وتناثرت الأندية والمؤسسات الأدبية [4] وعمّ الحياة نشاط ثقافي وأدبي كبير بدا في الدعوة إلى مسايرة ركب التقدم والاهتمام بالتعليم [5] .

وتلك كانت أبرز المعلومات العامة عن البحرين بأوضاعها المختلفة الجغرافية والسياسية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والثقافية .

---

(1) بلجريف : مستشار حكومة البحرين وهو مواطن بريطاني ، منصور محمد سرحان ، م . س ، ص 119 .

(2) أداريان فالانس : مواطن بريطاني عمل في الثلاثينيات في دار الاعتماد البريطاني آنذاك في البحرين ، ثم عين بعد بلجريف مديراً للتعليم و لم يستمر في عمله طويلاً إذ انتهت مهمته عام (1941) منصور محمد سرحان ، م.س ، ص 119 .

(3) احمد العمران: تقلّد عدة مناصب وظيفية منذ الخمسينيات وحتى السبعينيات ومنها منصب مدير للتعليم (1975) ووزير للتعليم (1972) وهو من رواد العلم والتربية في البحرين ، منصور محمد سرحان، م.س ،ص 119 .

(4) سوف يأتي الحديث عن ابرز هذه المؤسسات الثقافية والأدبية .

(5) سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، فواز مرعي طيفور ، م . س ، ص 217 – 218 .

الفصل الأول
علي خليفة حياته

تمهـــــــــيد :

يتألف هذا الفصل من الأقسام التالية : أصل الشاعر وطفولته ، دراسته وثقافته ، إنتاجه الأدبي وأنشطته، ولتوضيح ما تقدم سوف نطرح الأسئلة المحورية التالية وهي: متى بدأت صلة الشاعر بالبيئة المحيطة؟ وما مدى تفاعله مع المجتمع ؟ وهل لهـــذا الواقع والأحداث أثر في حياه شاعرنا وإنتاجه الأدبي ؟ وما هو دور مصادر التعلم والثقافة في حياه شاعرنا ، وإنتاجه الأدبي ، وسائر أنشطته فيما بعد ؟ وما هي أبرز مواقف شاعرنا وملامح شخصيته ؟ .

وقد ارتأينا تحقيق سيرة شاعرنا من خلال صلته بالبيئة ومجتمع البحر والغوص ، إلى جانب إلقاء الضوء على مدى أثر وتأثير البيئة والأحداث في حياة الشاعر ومدى تفاعله مع قضايا الإنسان في سعيه ونضاله من أجل قُوته ، وذلك لانعكاس تلـــك المعطيات في إنتاج شاعرنا الأدبي كما سنرى ، فمكّونات البيئة الطبيعية من بحرٍ وشمسٍ وهواء وماء ونخيل لها دور في تكوين مزاج الإنسان وتصوير نفسه وفكره ، وتشترك في تكوينه والإيحاء له بما يتوافر في ذهنه من خواطر وآراء ومعانٍ [1] ، فضلاً عن مجريات الأحداث الطارئة ، وهي مكونات تتصل ببعضها البعض ويؤثر كل منها في الآخر دون أن يكون للإنسان سيطرة عليها [2] .

لذلك سنحاول في هذا الفصل إلى جانب تحقيق سيرة شاعرنا الإشارة إلى أبرز المعطيات الاجتماعية والثقافية والوطنية ، التي عاش شاعرنا أو تأثر بها وذلك حتى يتم الربط بين هذا الواقع وتجربة الشاعر .

أما المصادر المعتمده في تحقيق سيرة الشاعر فهي كالتالي : دواوين الشاعر بالفصحى وهي أنين الصواري ، إضاءة لـــذاكرة الوطن ، في وداع السيدة الخضراء ، إلى جانب المقابلات الشفوية مع الشاعر وبعض معارفه ، واللقاءات الصـــحفية مـــع الشاعر ، والمقالات الأدبية والدراسات والأبحاث الخاصة به .

وقد اعتمدنا على دواوين الشاعر لما بها من معلومات ذات صلة بأحداث في حياته ، وتلقي الضوء على جوانب من شخصية ، ففي أنين الصواري نجد الإحساس بمرارة تجربة الإنسان مستمداً مـــن الواقـــع ومعانـــاة ، الغّـــواص همـــوم الـــدين ، والغربة ، ومخاطر البحر، كما أشار الشاعر في قصائد أخرى من الديوان إلى معانٍ ذات صلة بمعاناته ومعاناة أسرته ، وهـــي قصيدة " زغب الطيور الجارحة " و" جرح في ضمير الليل" و" أنين الصواري " و" من أوال الشط احكي " [3] .

---

[1] سيد قطب ، النقد الأدبي أصوله ومناهجه ص 166 .

[2] سيد قطب ، م.ن ، ص 116 .

[3] أنظر ، أنين الصواري ، ص 25-34-35-42-43-50-59-66.

ونجد في دواوين الشاعر ما يشير إلى موقفه من معطيات الأحداث في المجتمع والوطن ، ومنها على سبيل المثال قصيدة " شمس المفاوز " و" آثار أقدام على الماء " [1] حيث الإشارة الصريحة إلى القضايا الوطنية ، فقد نظم على خليفة من وحي الأحداث قصيدة " آثار إقدام على الماء" التي تتحدث عن مصرع أحدا الشباب وهو الشاب عبد الله حسين نجم الذي استشـــهد في مجموعة من خمسة شهداء آخرين إلى جانب سقوط بعض الجرحى .

ويؤكد تلك الحقائق التي وردت في دواوين الشاعر ما وثّقه الباحثون حول عمق تجربة الإنسان وقسوة الحياة في البحـــرين آنذاك ، حيث عرف الإنسان ألواناً من العذاب اليومي المتواصل في سبيل العيش وهو يزرع الأرض أو يغوص أعماق البحار ، أو يرتادها تاجراً مغامراً ، ممّا ولد بذور الحركة الوطنية التي بدأت مبكراً في البحرين عـــام (1924) فكانـــت الانتفاضـــة والإضراب والمطالبة بتحسين أوضاع العمال ، ثم صدر بعد ذلك قرار إسقاط الدين عن الغّواص عند وفاتـــه ، ثم توالـــت الانتفاضات ما بين (1932-1938) [2] .

وقد استمرت الحركة الوطنية كامتداد للتحولات الثورية في أواسط الخمسينيات ، ونتج عنها الاجتماع ضد التدخل الأجنبي والمطالبة بتأسيس مجلس تشريعي يمّثل البلاد عن طريق الانتخابات ، وتطبيق المناصفة في الأرباح في " شركة نفط البحـــرين بابكو المحدودة" وقد حدثت المواجهة بين السلطة والمعارضين ، وتم النفـــي أو الاعتقـــال للزعمـــاء البـــارزين وفي عـــام (1965) عمّت موجات الاحتجاج و وتجدّدت حركة المطالبة بالتركيز على الدفاع عن حقوق الإنسان [3] ، فقصـــيدة " أثار أقدام على الماء" من وحي هذه الأحداث .

وفي دواوين الشاعر الثلاثة ما يشير إلى موقفه من التجارب العاطفية ومعاناته الحرمان ، إلى جانب موقفه من القضايا الثقافية والفكرية والشعور بالعزلة أو الغربة ومثال على ذلك قصيدة ، " أثار جراح قديم " و " لغة الظمأ الأرجواني " و " طائر الجزر الثلجية " و " سيدة القلب " و " السنابل " [4] وسوف نوضح مضمون هذه القصائد في بعض الأقسام من هذا الفصل .

أما المقابلات الشفوية مع معارف الشاعر فكانت حسب تاريخ اللقاء بهم مع كل من الدكتور إبراهيم غلوم [5] و الأســـتاذ مبارك الخاطر [6] والأستاذ منصور محمد سرحان [7] ، ويعود السبب في اعتماد هذه المصادر في تحقيق سيرة شاعرنا إلى كون كل منهم صاحب اهتمام أدبي وتاريخي وثقافي وفكري وهم على صلة مباشرة بالشاعر ، فالدكتور إبراهيم غلـــوم زميـــل للشاعر وقد واكب محاولاته الإدبية ، إلى جانب اهتمام الاثنين بالتراث الشعبي والسعي إلى جمعه وتوثيقه ، أما الأستاذ مبارك الخاطر فهو صاحب اهتمام بالتأريخ للشخصيات البارزة فكرياً وأدبياً وثقافياً ، وكان يعمل في وزارة الإعلام بدولة البحرين

---

(1) أنظر أنين الصواري ، ص 93-98 ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 12-24 .

(2) سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، عودة الله منيع القيسي ، م.س ، ص 384.

(3) سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، عودة الله منيع القيسي ، م.س ، ص 384.

(4) أنظر ، أنين الصواري ، ص 119-114 ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 25 –37 ، ص76-83 ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 59-64 ، ص 97-100.

(5) إبراهيم عبد الله غلوم : ناقد وباحث أدبي ومسرحي وأستاذ لغة عربية بجامعة البحرين وله اهتمامات بالفلكلور والتراث الشعبي .

(6) مبارك الخاطر : باحث ومؤرخ بحريني مشهور .

(7) منصور محمد سرحان : مدير المكتبة العامة بالمنامة ، وله اهتمامات فكرية أدبية ، وعدة مؤلفات منها الكتاب والمكتبات ، واقع الحركة الفكرية في البحرين ، إلى جانب البحث والدراسات حول المكتبات .

وهي الوزارة نفسها التي لا يزال يعمل بها شاعرنا ، ويعد الأستاذ منصور محمد سرحان من المهتمين بواقع الحياة الفكرية في البحرين وقد صّنف الكُتاب الذين تأثرت بهم الحركة الأدبية إلى سبعة قائلاً في بداية التعريف بهم :

" تأثرت حركة الكتابة والتأليف في البحرين من (0940 – 0990) بسبعة أدباء وكتاب مرموقين وكان لإنتاجهم الأدبي والثقافي أثرة الكبير على مسيرة الحركة الفكرية في البلاد وأصبحوا يمّثلون الدعامة الأساسية لحركة الكتاب والتأليف في الوقت الحاضر كما أن مؤلفاتهم قد فعلت فعلها فأثرت في نمط وسلوكيات الكتابة في البحرين وأخذت أسماؤهم تلمع في سماء الوطن العربي حتى أصبحت مألوفة في مشرقة ومغربه .

والسبعة الأدباء هم : الأستاذ الأديب إبراهيم العريض ، الشاعر أحمد محمد آل خليفة [1] ، الدكتور محمد جابر الأنصاري [2] ، الشاعر قاسم حداد [3] ، الدكتور علوي الهاشمي [4] ، المؤرخ مبارك الخاطر ، الشاعر علي خليفة .

هكذا جاء ترتيب الأدباء حسب التصنيف الذي اعتمده الأستاذ منصور محمد سرحان ، وهو ترتيب لم يقصد منه المؤلف تقديم أديب على آخر حسب تاريخ مولده أو مكانته الأدبية ، فقد اعتبر هؤلاء السبعة من رواد الأدب والفكر في البحرين بشكل عام [5].

وقد وظّفنا المعلومات التي استقيناها من معارف الشاعر في هذا الفصل حسب تسلسل حدوثها في حياة الشاعر من مولد وأصل ونشأة وصلة بأفراد الأسرة ودراسة وثقافة وخبرة وأنشطة ومساهمات .

أما المنهج المعتمد في تحقيق سيرة الشاعر فهو المنهج التاريخي المتتّبع لحياة الشاعر ، وذلك لكي يتسنى لنا استخلاص أبرز الجوانب والسمات الهامة في شخصيته الشاعر وحياته وأثر ذلك في تجربته .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى المعلومات التي ورد ذكرها في الدراسات الأخرى حول حياة الشاعر ومنها ، دراسة لعلوي الهاشمي ما قالته النخلة للبحر أشار فيها إلى دور المرأة في تجربة علي خليفة والعلاقة بين المرأة والوطن في شعره . والمرأة ومعاناة الواقع والعلاقة الفنية بين المرأة والنخلة والوطن ، وهي دراسة نقدية فنية في معظمها [6] ، أما في مؤلف علوي الهاشمي شعراء البحرين المعاصرون فقد خصص الصحفتين 119- 020 للحديث بشكل موجز عن مولد الشاعر ودراسته

---

(1) أحمد محمد آل خليفة : أنظر ، ص

(2) محمد جابر الأنصاري : أديب وناقد ومفكر بحريني ، وأستاذ لغة عربية بجامعة الخليج في البحرين

(3) قاسم حداد : شاعر بحريني من مواليد 1948 ، تلقى تعليمه بمدارس البحرين ، و لم ينهه لظروف اجتماعية وسياسية ، اشتغل بالمكتبة العامة بالمحرق ثم المنامة ، وهو يعمل الآن بوزارة الإعلام ، وعضو مؤسس في اتحاد أسرة الأدباء البحرينية ، وشغل مراكز قيادية في إدارته وله مساهمات في مجلة كلمات ، علوي الهاشمي ، شعراء البحرين المعاصرون ، ص 129 .

(4) علوي الهاشمي : شاعر وأديب وناقد بحريني ، وأستاذ لغة عربية بجامعة البحرين ، (ما قالته النخلة للبحر .

(5) قد طرحنا السؤال على الأستاذ منصور سرحان حول الترتيب المعتمد فأكد بأنه ترتيب غير مقصود (المقابلة الشفوية) ، (15 يوليو 1998).

(6) ما قالته النخلة للبحر ، ص 177 – 178 ، ص 214 – 215 ، ص 361- 317 .

وأعماله ، ووظيفته ومحاولاته الأدبية ، ومشاركته في تأسيس أسرة الأدباء والكتاب ، وإصدار مجموعات الأدبية ، وسائر أنشطته إلى أن انتقل إلى قطر ثم عاد إلى البحرين [1].

كما أشارت الدكتورة نورية الرومي في الحاشية من رسالتها إلى التعريف بالشاعر ودراسته وأنشطته و دواوينه[2] أما باقي الدراسات [3] فهي كما تقدم دراسات فنية نقدية تناولت إنتاج الشاعر بالتحليل وأبانت عن مضامين شعره في دراسة جزئية.

والجديد الذي يحمله هذا الفصل قياساً إلى المعلومات المنشورة عن سيرة الشاعر هو إضافة أمور تفصيلية لم تتطرق إليها الدراسات والأبحاث الخاصة بالشاعر ، ومنها الإشارة إلى أفراد عائلته وطفولته ، وصلته بالبيئة الخاصة والبيئة المحيطة لاسيما البحر ، فضلاً عن وصف حياه شظف العيش التي عاناها الشاعر وعائلته ، ودراسته المبّكرة في (الكتّاب) ثم الدراسة بالمرحلة التحضيرية وخبرته العملية المبكرة وأنشطة الثقافية والأدبية وملامح شخصيه ومواقفه .

أولاً : أصله وطفولته

وسط الظروف الطبيعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية ، والثقافية التي أشرنا إليها وقبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية في خريف (1945) بعام ولد علي خليفة ، وحول سيرته وظروف نشأته لنا وقفه .

مولده وأصله :

رُزقت عائلة (عبد الله خليفة) بابنها البكر (علي ، في من عام (1944) وكان مولده في مدينة المحرق في بيت متواضع في أحد الأحياء السكنية الفقيرة التي ينتمي سكانها إلى الحرف المتواضعة كالبناء والحدادة وغيرها ، وكان أهل شاعرنا ينتمون إلى مجتمع الغوص والبحر ، ويشير علي خليفة إلى مولده قائلاً : " ولدت بحي (القمرة) في الجزء الشمالي من مدينة المحرق من أب – وأم بحرنيين " [4] وقد رجعنا إلى الأبحاث والدراسات الخاصة بالشاعر فوجدنا أنها تشير إلى الظروف المعيشية القاسية التي أحاطت بمولده في الأربعينيات [5] ، كما تشير الأبحاث إلى مولد الشاعر في نفس العام (1944) في جزيرة المحرق بدولة البحرين و هي بالمحرق أحد أقدم مراكز صناعة الغوص على اللؤلؤ الطبيعي في العالم [6]

---

[1] علوي الهاشمي ، شعراء البحرين المعاصرون ، ص 119 – 020 .

[2] فوزية صالح الرومي ، م . س ، ص 481 .

[3] أنظر المقدمة ، ص

[4] علوي الهاشمي ، م . س ، ص 119

[5] امريكا ولاية ديلاور ، م . س ، (1989) ؟ .

[6] . ناشيونال بيوغر افيكل جورنال ، تصدر عن البنك الأمريكي للمعلومات الدولية

كان ذلك ما أورده الموثق العام الدكتور (مارسيل د نكلي أتارد) وهو محّرر يعمل في جريدة (ناشيونال بيو غرافيل جورنال)

ويطابق هذه الأقوال ما ذهب إليه كل من الأستاذ منصور محمد سرحان ، والدكتور إبراهيم عبد الله غلوم [1] حول تاريخ مولد شاعرنا ومكانه .

أبـــوه :

تردد ذكر شاعرنا لأبيه في ، ديوانه الأول ، حيث يشير إلى أن عمله هو الغوص على اللؤلؤ الذي سنتبين أنه حين يتحدث في أنين الصوراري عن الغّواص ومتاعبه فإنه غالباً ما يتحدث على لسان الأب أو صديقه الذي ينصح ابنه موضحاً له مخاطر الغوص ، أو يتحدث على لسان طفل طالباً من أبيه الإعداد والتهيئة لرحلة الغوص [2] .

وطالما تحدث علي خليفة عن كفاح أبيه والمتاعب التي واجهها وسوء حالته الصحية والنفسية بعد أن تقّدمت به السن ، حيث حكى جانباً من حياة أبية أثناء المقابلة الشفوية معه ، وقد تبين من خلال الحديث معه أن الأب بعد أن لفظه البحر حينما أصبح عاجزاً متقدماً في السن اتجه إلى العمل في حفريات (دائرة الأشغال العامة بالحكومة) [3] .

وفي الخمسينيات ساءت حالة والد شاعرنا الصحية فأصبح عاجزاً عن العمل قعيد الفراش يجتر الذكريات ، ويقاسي الهموم .

ونجد أن القصائد التي تحدث فيها الشاعر إلى ذكر أبيه معبراً عن حال جميع الغوّاصين " قصيدة أنين الصواري "

ويحَ أيّامٍ تغذّت مِنْ عذابْ
ثُمّ هدّتْ حبسمي العاجزَ البادي الغضونْ [4]

كما أشار شاعرنا بوضوح إلى سوء حالة والده النفسية والجسدية في قصيدة " جرح في ضمير الليلً قائلاً :-

وأبي الكسيحُ على الفراشِ بلا حراكْ
شُلّتْ قواهُ ، ولَمْ تَزُلْ
عيناهُ تُومضُ بالبريقْ
رغم اكتحالِ الجفنِ من رمل القَرارْ
يحكي لنا عَنْ جُرحِ أيّام الشَّبابْ
ويتفُ أملاحَ البحارْ
والدَّاءُ ينخُر في العِظَامْ[5]

---

(1) واقع الحياة الفكرية في البحرين ، ص 61 ، المقابلة الشفوية ، (11 أغسطس 1996) .

(2) علي خليفة ، م . ن ، (28 أغسطس 1994) ، أنظر ، قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " ص 25 – 34 .

(3) علي خليفة ، م.ن ، (28 أغسطس 1994) .

(4) علي خليفة ، م . ن ، ص 51.

إنها معان ألمح فيه الشاعر إلى تدهور صحة والده وأثر مهنة البحر والغوص فيه ، وقد تبين من خلال اللقاء بالشاعر أن والده قد توفى بعد فترة طويلة من المرض عام (1961) ، فشاعرنا فقد أباه و هو صغير السن ودون العشرين من عمره [1] ، إلا أنه أحس بآلامه ففي قصيدة " من أوال الشط أحكي" يقول :

يا لَطِفلي ، والليالي السودِ ،
والإنسانُ مذبوحٌ بصدري
يا لشيءٍ مِثلَ حُزني
يتقصّى فرحةً صُغرى على أهدابِ عمري[2]

إن الشاعر هنا يصّور حالة أبيه النفسية معّبراً عن ألمه وشقائه الذي يخفيه في الصدر مّما يدل على عمق الأسى ، والعجز التام عن تجاوز الوضع المتدني الذي تعانيه الأسرة ، وقرينه ذلك كلمة (يا لطفلي) الصادر ، من خلال أهات التوجع والحسرة الممتدة بامتداد (الألف) في (يا) (النداء) لحال الطفل الذي أخذت الأحزان تزحف إليه مكبراً لاسيما بعد أن ساءت صحة الأب .

أمـــــــــه :

قد عرفنا فيما تقّدم أن أم شاعرنا بحرينية الأصل ، وهي من مواليد (عام 1919) فالأب يتقّدمها بحوالي (ثلاثين عاماً) وقد ألمح علي خليفة إلى صغر سنّ أمه حين زفافها إلى والده ، ومواجهتها المسؤولية فيما بعد وفاه الوالد وقبل ذلك ، وهي لا تزال في مقتبل العمل ، وقد كانت هذه الأم ولا تزال أماً صالحة مكافحة ، ورحيمة بأبنائها إذ تحملت ظروف أسرتها القاسيه فترة طويلة من الزمن لاسيما حينما أصبح الأب عاجزاً عن العمل ، وقعيد الفراش فواصلت الدرب في سبيل إسعاد أبنائها وكم أبدى علي خليفة تأثره حينما يلم بها داء ، وكم تحمل وعانى من أجل علاجها وراحتها فيما بعد ، وكم تمنى أن لو أنجبت بنتاً لتعينها في أمور الحياة وشئون المنزل ، وتكون أختاً وصديقة له .

وما تزال والدته تعيش معه في بيته مع باقي أفراد اسرته ولا يزال متأثراً بالمعاني الجميلة التي تركتها فيه من عطاء وحب للآخرين وعمل للخير وتجارب حياتية [3] وعلى الرغم من أن أم الشاعر لا تزال على قيد الحياة حتى (مايو 1997) ، إلا أننا لم نتمكن من مقابلتها لظروف خارجة عن إرادتنا الآن حيث فقدنا الاتصال بالشاعر منذ عام ونيّف .

وقد أتى الشاعر على ذكر أمه والثناء عليها والتقدير لها في كل مقابلة أجريناها معه ، كما أشار إلى ذكرها في بعض من قصائده في ديوانه بالفصحى أنين الصواري في قصيدة " جرح في ضمير الليل " التي تتألف من أربعة مقاطع فخّصص المقطع

---

[1] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (28أغسطس 1994) .

[2] علي خليفة ، م . س ، ص 62 .

[3] علي خليفة ، م . س ، (31 إغسطس 1994) .

الأول للحديث عن متاعب والده ثم أمه ، أما باقي المقاطع فقد عبّر فيها الشاعر عن كفاح أمه وسعيها من أجل تربيته وأخويه .

أمَّاهُ ، ما أقسى الحياهْ
ما أصعبَ الدربَ الطويلَ بلا مَتاعْ
مالي سوى عينيكِ في الدربِ الطويلْ
قلبٌ كبيرْ
هذا الذي عانى الحياةَ مع الصِّراعْ [1]

هذا وقد أشار الشاعر إلى عمل والدته من أجل توفير لقمة العيش لأفراد أسرتها حيث امتهنت خياطة الملابس لبعض الأسر آنذاك .

ومن القصائد التي توضح ما تركته الأم من معان جميلة وقيم ومبادئ في نفوس أبنائها قصيدة "زغب الطيور الجارحة " التي يتحدث فيها الشاعر على لسان أم تعاني لمعاناة طفلها وتشحذ فيه روح الثورة على الوضع السئ في المجتمع من خلال سردها لما واجهه الآباء والأجداد من مخاطر في البحر أثناء رحلة الغوص :

هل ترُى بانتْ لعينيكَ الخُطوبْ
في اللّيالي الماضياتْ
فأخافتكَ النّدُوبْ
في جُسومِ الصِّيد اجدادِكَ أبناءِ الخليجْ؟ [2]

وقد رمز الشاعر إلى أمه (بالبحّار المسافر) تأثراً بسفرها لأداء فريضة الحج في قصيدة " إلى بحار لم يعد " وهي قصيدة لم يضّمنها شاعرنا دواوينه [3] .

ويبدو موقف الشاعر من المرأة الأم ودورها في المجتمع وصلته بها كمربية ومعلمة وصديقة ورفيقة درب لها مكانتها في المجتمع مقابل الرجل في قوله مخاطباً الأم الحقيقية .

مالي سوى الصدر الذي
يشتاقُهُ تعبُ النهارْ
مالي سوى لمسِ الأنامل
في الليالي الواهناتْ [4]

---

(1) علي خليفة أنين الصواري ، ص 89.

(2) علي خليفة ، م . ن ، ص 47.

(3) قصيدة " إلى بحّار لم يعد" سوف يأتي الحديث عنها ، أنظر ، ص

(4) علي خليفة ، م . س ، ص 91.

إن الشاعر يعّبر عن موقفه من الأم بوضوح فهو يحتاج إلى دفئها وحنانها ويشتاق إلى حضنها حتى مع تقدم سنوات العمر ، وقد أبان عن تلك المعاني في نسيج محكم مؤكداً " التلاحم العضوي بين التجربة الشعورية والتعبير " [1] حيث تتقابل مجموعة من الأسطر الشعرية في الكشف عن موقف الشاعر الذي نحسّه في خفة الإيقاع فيوحي ذلك التلاحم بين المعاني والألفاظ بصدق التجربة المعبّرة عن موقف الشاعر من المرأة الأم .

إن المعاني السابقة تؤكد باعتزازه بأمه التي كثيراً ما أشار إلى أنه مرتبط بها ارتباطاً شديداً فهي أم وصديقة يبثّها أسراره ، ويشعر أمام قوة شخصيتها بأنه طفل صغير لاسيما حينما يرتكب خطأً ما [2] .

ولنا في أقوال الأستاذ عبد الحميد المحادين ما يجّسد طبيعة علاقة الشاعر بوالدته حيث يقول :- " إن هذه العلاقة ظاهرة جديرة بأن تدرس فوالدته مصدر من مصادر ثقافته الشعرية والحياتية ، وهو يلازمها ملازمة قلّ مثيلها في هذا الزمان إنها بالنسبة له ارتباط ووجود، إذا مرضت يمرض وإن عُوفيت يعافى [3] .

وقد تحدث الشاعر عن مشاعر أمه حين قراره السفر إلى قطر فيما بعد وفي ديوان عصافير المساء بالعامية ، وأبان عن عدم رضاها عن سفره من خلال الأمثلة الشعبية والنصائح التي كانت تسديها إليه .

أعقب حدث مولد شاعرنا أحداث أخرى في محيط العائلة لابدّ من تعرّفها وهي مولد أخويه .

إخـــــوته :

لقد أعقب الأبوان بعد مولد شاعرنا من البنين فقط أخوين هما (خليفة) وهو الابن الأوسط الذي استقبلته الأسرة بعد مولد الابن البكر بحوالي عامين تقريباً (1946) ، وذلك استناداً إلى أقوال الشاعر من أن فارق السنّ بينهما لم يكن كبيراً ، وبعد فترة تبدو أطول بكثير من الفترة الأولى تُرزق الأسرة بابنها الأصغر (خالد) وهو الذي اهتم به شاعرنا وبتربيته وتعليمه لكونه صغيراً ، إذ يذكره أثناء الحديث معه الشفوي واللقاء به كما يذكر ابناً له ، كما يذكر بأن الأخ الأصغر ظل فترة طويلة يناديه بلقب(أبي)[4] .

ويشير الأستاذ المحادين إلى ارتباط علي خليفة بأفراد أسرته وعلاقته القائمة على الاحترام مع أخويه وحالياً يعمل الأخ الأوسط (مدرس) لغة عربية بإحدى مدارس البحرين ، ويمتلك محلاً لمقاولات الكهرباء ، أما خالد فهو عازف عود وملحن أغاني . كان ذلك كل ما وصل إلينا عن هذين الأخوين.

ومن أقوال علي خليفة في وصف حالة أسرته وظروفها القاسية قوله في هذا المقطع راثياً لحال أخيه :

---

(1) عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره ، ص 229 .

(2) علي خليفة المقابلة الشفوية ، (31 أغسطس 1994) .

(3) عبدالحميدالمحادين ، المقابلة الشفوية ، (17 يونية 1998) .

(4) علي خليفة ، م.س، (31 أغسطس 1994) .

العيدُ (يَرْزِفُ)[5] في انتشاء الراقصينْ
وأخي الصغيرُ بلاحذاءْ [6]

يُرجح أن الأخ المقصود هو (خالد) وذلك لقوله في قصيدة " جرح في ضمير الليل " (أخي الصغير) ، فلخّص في هذا الجزء جانباً من هموم الشاعر لفقر أسرته ، وذلك في معنيين متضادين ، فالناس تحتفل بالعيد وترقص وهي لابسة الجديد من ملابس وغيرها ، بينما الأخ الصغير لم يجد الحذاء الذي يرتديه في هذه المناسبة إنها مقابلة تكشف عن الإحساس بسوء الوضع الطبقي في المجتمع ، وتكشف الحياة البائسة للأسرة وتصّور حال طفولة قاست العذاب مبكراً .

طفـــــــولته :

بعد توضيح جانب من حياة شاعرنا وهو مولده وأصله والحديث عن أفراد عائلته سننتقل إلى جانب آخر من نشأته ، وهو طفولته وتأثره بالمرويات الشعبية ، ومنها أغاني المهد والمّوال والفلكلور ، وصلته بالبيئة المحيطة .

أغاني المهد والموال :

بدأت العلاقة بين علي خليفة والبحر منذ اللحظات الأولى لمولده إذ كان لأغاني المهد التي ترنّمت بها أمه وهي تهدهـــده في المهد أثر في ارتباطه بالبحر ، فقد كانت أمه تترنم وتناغيه بأغانٍ على شكل حكايات وأمثال شعبية ذات نغم موسيقي حزين مطرب ومؤثر ، وتضّمنها نوعاً من الشعر الشعبي هو (الموّال) [1] الذي يحكي صوراً مستمدة من واقع المجتمع البحـــري ومنها كفاح الغّواصين في سبيل استخراج اللؤلؤ ومخاطر البحر [2] . لقـــد علقـــت هـــذه الأغـــاني والقصـــص بـــذهن شاعرنا ، ولفتت انتباهه بعد أن اصبح يميز ما تتردده أمه معظم الوقت في البيت وهي تدير شئونه فحفظ من تلك الأغـــاني والأمثال الشيء الكثير ، فارتبط البحر في ذاكرته بالمخاطر التي واجهها الغّواص رمز الإنسان الكادح في الحياة و هـــذا مـــا سيظهر في شعر على خليفة فيما بعد .

المّوال كان أغنية المهد التي حفرت في ذاكرة علي خليفة منذ الطفولة ، وسّجلت صوراً بسيطة ، وصادقة عن واقع الغّواص في صراعه مع البحر ويبدو الأثر السلبي للبحر في حياة علي خليفة من خلال المّوال وأغاني المهد في قوله : "إن الموال جمـــرة تُوقد المشاعر وتشعر بالتأزم إذ يسمعنا صرخة ألم توجز معاناة البحّار وتوضح قضيته "[3] .

هكذا بدأ علي خليفة يتلقى أغاني المهد ، ويستطرب حين الاستماع إلى الموال فهو يستهويه ، لذلك تنافس مع زملائه حول جمع مادة الموال والأمثال الشعبية [4] . وكان جمع تلك المادة ميداناً للمسابقة بينهم كان السبق فيها لمن يقوم بجمع أكبر عدد

---

(5) يرزف : الرزيف رقصة الأفراح ، تقام في أيام الأعياد كتقليد وميدان لاستعراض القوة ولبس الجديد من الثياب ، علي خليفة ، أنين الصوراي ، ص 89.

(6) علي خليفة ، م.ن ، ص 88-89.

(1) الموّال : شعر شعبي تستطرب له الآذان وله وقع مؤثر عليها ، وكان البّحارة يتغنون بالمواويل الشعبية ، وهي تراث شعبي أصيل فيه إحساس صادق بالواقع المرير ، والرغبة في تغيير ، عبد الحميد المحادين ، علي خيفة صوت من الخليج ، في مجلة الثقافة العربية ، ليبيا ، (رجب 1359هـ / يوليو 1975) ، ص 64-65 .

(2) علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (28 أغسطس 1994) .

(3) فوزية رشيد ، محمد عبد الملك ، ثقافة وفن ، حوار صحفي ، في جريدة اخبار الخليج ، البحرين ، (14 مايو 1989) ، ص 8.

(4) على خليفة ، م . س ، (28 أغسطس 1994)

من الأمثلة ، ويحفظ المواويل والأشعار ويلقيها في معرض المسابقات الثقافية بهدف المحافظة على التراث والتعرف عليه وجمعه من الأجيال المعاصرة ، وذلك لتدوينه فيما بعد في مؤلفات خاصة بالتراث .

ومن الأقوال التي تدل على تعلق شاعرنا بالموّال قوله :" نحن مخلوقون من هذا النسيج شئنا أم أبينا إنه يسكننا ، وموجود في حياتنا يجري في دمنا .... ينعكس حتى في تصرفاتنا" [1] .

ويعترف علي خليفة بفضل أمه عليه في تعرّف الموّال كمادة أدبية وتراث أصيل إذ اخترن ما يتضّمنه من حكم وأمثـــال في ذاكرته ، فاحتضنت أمه موهبته الأدبية مّما مكنه من لغة الشعر وروحه [2]

وتعد الحكايات والأساطير المستمدة من تراث البحر ورحلة الغوص ، ومغامرات الغّواصين ، تُعد عاملاً من العوامل الـــتي وثّقت صلة الشاعر بالبحر .

الحكايات والأساطير :

زاد علي خليفة اقتراباً من البحر ومعرفة برحلة الغوص ومخاطرها من خلال الاستماع إلى الحكايات والأساطير التي اســـتمع إليها من أبيه (الغّواص الشيخ[3]) الذي امتهن حرفة الغوص على اللؤلؤ منذ أن كان (تّباباً [4]) صغيراً ، فامتلأت ذاكرتـــه بحكايات حقيقية مستمدة من واقع مجتمع الغوص ، إلى جانب أساطير وحكايات خيالية عن الجـــن والعفاريـــت . هـــذه الحكايات كان الأب يملأ بها ذاكرة أبنائه في ساعات الفراغ مضيفاً إليها أمثالاً وحكايات ومواويل من التراث الشعبي ، أما موعد ذلك فيبدأ بعد العشاء ، إذ يجتمع الأبناء حول الأب كل مساء للاستماع إلى هذه القصص ، فارتبطت في ذاكرته بالجو المأساوي لحياة الغّواصين والبحّارة البسطاء ، فرصد تلك الحكايات وسّجلها تسجيلاً دقيقاً في الذاكرة فتركت أثرها الواضح في إنتاجه الأدبي فيما بعد و لم تكن أغاني المهد ، والحكايات والأساطير [5] هي المصدر الوحيد في ارتباط شاعرنا بالبحر بل كانت بيئة البحر المحيطة به ذاتها مصدراً من المصادر التي حددت علاقته بالبحر كما أشرنا إلى ذلك آنفاً [6] .

هكذا تبيّنا أن الشاعر تّعرف البحر ومفرداته والتراث المستمد منه من خلال البيئة المحيطة [7] وكان ذلك مصدراً من مصادر المعرفة التي أثرت فيه وفي موهبته الأدبية ، وساهمت في تشكيلها ، إلى جانب إقباله على العلم والثقافة ، أما العلم الذي تحدثنا

---

(1) فوزية رشيد ، محمد عبد الملك ، ثقافة وفن ، حوار صحفي ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (14 مايو 1989) ص 8.

(2) علي خليفة ، م.س ، (28 أغسطس 1994) .

(3) الغّواص : أنظر ، ص

(4) التباب : أنظر ، ص

(5) كان الوالد يحكي لأبنائه كما يقول شاعرنا حكايات عن الجن والعفاريت من قصص ألف ليلة وليلة وحكايات عنترة بن شداد ،

(6) علي خليفة ، م.س ، (28 أغسطس 1994) .

(7) البيئة المحيطة ، أنظر ، ص

عن أساسياته وانتشاره بشكل شبه نظامي ونظامي في البحرين ولابد هنا من الحديث عن أساسيات التعليم لدى شاعرنا والتي تعود أصولها إلى الكُّ تاب .

ثانياً : دراسته وثقافته

تعلمه في الكتّاب :

وسط الظروف الاجتماعية والاسياسية والاثقافية التي احاطت بمولد الشاعر التحق (بالكتّاب) والذي يُعد من المصادر التي ساهمت في صقل موهبته الأدبية ، ثم التحق بالمرحلة التحضيرية في (عام 0950) ثم بالمرحلة المتوسطة فالنهائية ، ولأهمية هذه المراحل الدراسية في تأسيسه علمياً كان لابدّ من إلقاء الضوء على تعلّمه في تلك الفترة.

اتجه الشاعر نحو التعلّم في الكتّاب في عام (1948) أي وهو في الخامسة من عمره فتّعرف الحروف والألفاظ ، والكلمات و الجمل ، وبدأ يتدرب على تلاوة القرآن الكريم، وحفظ أجزاء منه على يد مربية فاضلة يعّتز بها كثيراً ويشيد بها كمصدر من مصادر العلم والتراث في البحرين ، إنها السيدة الضريرة (لطيفة بنت عبد الله بن سليم [1]) والتي كان لها الفضل في تدريبه على تلاوة القرآن الكريم وتجويد الكلمات وضبطها وقد وجد من هذه السيدة العطف والرعاية إذ شجعته على الثقة بالنفس والجرأة ، فحينما رأت تفوقه في تلاوة القرآن الكريم وحفظه له على صغر سنه عيّنته مساعداً له كي يدرب زملاءه على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، مّما دفع بوالدته إلى الخوف عليه من الحسد [2] .

ثم اجتاز تلك المرحلة وهو يتلو سور القرآن الكريم جميعها تلاوة سليمة وقد حفظ سورة (الرحمن) و(آل عمـــران) و(تبارك) في فترة وجيزة ، وكان على والدته قبل اجتيازه هذه المرحلة أن تعد للاحتفال بختمه القرآن الكريم وتفي بنذورها [3] .

أما الإعداد لحفل ختم القرآن وهو بأن يلبّس الخاتم للقرآن جُبه مقّصبة وعقالاً أسود ، ويتقلد سيفاً ويركب فرساً إذا كـــان غنياً وحماراً إذا كان متوسط الحال أما إذا كان فقيراً فيكتفي بالمشي على قدميه .

وتبدأ مراسم الاحتفال بإعلان (المُطوع) ختم التلميذ للقرآن الكريم ، ثم يحي المطوع الدارس مقبلاً يديه ، ويُعلن ألا دراسة في هذا اليوم ، ويطلب المطوع من سائر التلاميذ أن يلبسوا أحسن ثيابهم ويتأهبوا للحفل في مركز معين يجتمعون عنده .

وتكون الاتصالات قد جرت بين أهل التلميذ والمطوع لتعيين قارئ قصيدة التخرج ، وتحديد سير الموكب والاحيـــاء الـــتي سيسير بها، وإعداد الذبائح .

وفي صباح الحفل يخرج التلميذ في كامل زينته وهو في غاية البهجة وفي حوش البيت يقف التلميذ مع أبيه ، وتقرأ قصـــيدة التخرج ثم ينثر الملبّس والحلويات ويبدأ الموكب بالطواف على بيوت الأهل والأصدقاء [1] مردّدين القصيدة والتي مطلعها.

الحمدُ لله الذى هدانا
للدِين والإسلام اجتبانا [4]

---

[1] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (28 أغسطس 1994) .

[2] علي خليفة ، م.ن ، (31 أغسطس 1994) .

[3] علي خليفة ، م.ن ، (31 أغسطس 1994) .

[4] محمد جابر الأنصاري ، لمحات من الخليج العربي ، ص 111-112

وبعد أن تخرج شاعرنا من الكّتاب انتقل إلى صفوف الدراسة كي يحظى بالتعليم النظامي في المدارس الحكومية ، يشّده إلى الكتاب عذوبة كلمات سورة (الرحمن) التي كان لها وقع وتأثير عليه فهو يستطرب حين تلاوتها " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان ، علمّة البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ..." [1]

المرحلة التحضيرية :

بدأ علي خليفة الدراسة النظامية في مدرسة (المحرق التحضيرية الشمالية) ، مدرسة (عمر بن الخطاب) حالياً ومديرها آنذاك (فاضل بن عبد الرحمن) وتقع بحي في مدينة المحرق يُسمى (حي العمامرة) وكان بيتاً قديماً مستأجراً شأن معظم المدارس آنذاك ، أما صفوف الدراسة فهي مكتظة بالتلاميذ بشكل غير مقبول ، وتخلو من وسائل الراحة كالمراوح والتكيف ، ومياه الشرب فلم يكن متوافر عند التلاميذ إلا الشرب من الصنابير الحارة المياه غير المبرّدة ، وذلك بسبب ما يعانيه مجلس الإدارة من نقص في الميزانية ممّا لا يسمح بإدخال التحسينات الضرورية في المدارس [2] ، وحينما أخذ علي خليفة يتلقى الدروس في هذه المرحلة أحسّ بالملل والفراغ ، أما السبب في ذلك فيعود إلى تعلمه مبادئ القراءة الأساسية في الكّتاب ، فشعر بأنه لا مبرر لتكرار الدروس . وقد نسي علي خليفة زملاء الدراسة في هذه المرحلة و لم يتذكر أو يذكر أحداً [3] منهم في معرض حديثه عن هذه المرحلة ، إلا أن المؤرخ البحريني مبارك الخاطر يذكر أن من زملاء الدراسة معه الشاعر قاسم حداد [4] ، وقد يكون علي خليفة محقاً حين لم يذكره فقاسم حداد كما تقّدم من مواليد (1948) بينما شاعرنا من مواليد (1944) . وهذا ما ذهب إليه كل من علوي الهاشمي ، ومنصور محمد سرحان [5] حول الحديث عن تاريخ مولد كل من الشاعرين .

ومما يلفت الانتباه أن علي خليفة يبدي في هذه المرحلة شيئاً من التحدي والرفض ، فهو لا يقبل الإعانات والتبرعات التي كانت تقدمها إدارة المعارف للتلاميذ المحتاجين ، بل يحاول أن يكون من المتّبرعين للمحتاجين من الطلاب ، ويمكن تفسير ذلك بأنها محاولة منه لإخفاء مظاهر الفقر والحاجة ، والتحدي للوضع والفوارق الطبقية التي بدأ يلاحظها بينه وبين زملائه ، إلى جانب الاعتداد بالنفس .

ولكي يسد شاعرنا حاجته وأسرته إلى ضروريات الحياة ، ولكي يظهر بالمظهر اللائق أمام زملائه اتجه وهو يدرس بالمرحلة التحضيرية إلى الحياة العملية .

---

(1) الآيات 1-7 ، سورة الرحمن .

(2) عبد الحميد الخادين ، وثائقه وذكريات ، حوار مع راشد الزياني ، في مجلة البحرين الثقافية ، البحرين ، العدد 5 (صفر 1416هـ – يوليو 1995م) ، علي خليفة م.س ، (28أغسطس 1994)

(3) علي خليفة ، م. ن (31 أغسطس 1994) مبارك الخاطر ، م.س (19 سبتمبر 1996) .

(4) قاسم حداد ، أنظر ص

(5) علوي الهاشمي ، شعراء البحرين المعاصرون ، ص 129 ، منصور محمد سرحان ، م.س ، ص 49 .

خبرته العملية :

اتجه علي خليفة خلال الدراسة بالمرحلة التحضيرية إلى الحياة العملية مبكراً ، إذ كان في العاشرة من عمره تقريباً ، وكانت تحدوه الرغبة في مساعدة أسرته التي كانت تعاني شظف الحياة ، لاسيما أمه المكافحة في سبيل تربيتهم والتي استلمت دور الوالد في تلك الفترة بعد أن عجز وأعياه المرض كما تقّدم ، وإلى جانب ذلك رغبة علي خليفة في تعويض مشاعر النقص أمام الزملاء لذلك عمل بعد انتهاء الدوام المدرسي ، و في الإجازة الصيفية ، صبياً في أحد المتاجر الصغيرة بمدينة المنامة وكان عمله البيع بالمتجر وتقديم الشاي والقهوة للضيوف [1] ، ويؤكد الدكتور علوي الهاشمي ذلك بقوله " كان يعمل بعد أوقات الدراسة ليساعد عائلته على أود العيش [2] ويتفق ذلك القول مع ما ذهبت إليه الدكتورة نورية الرومي حول جمعه بين الدراسة والعمل [3] .

مّما سبق نستنتج أن علي خليفة بدأ الاحتكاك بالمجتمع والناس والحياة العملية في فترة مبّكرة من حياته ، فخبر الناس والحياة ، وبدأ يتجه إلى القراءة التي شّكلت ثقافته وكان لها الأثر في صقل موهبته الأدبية وقد بدأت هواية القراءة لديه في المتجر الصغير.

هواية القراءة :

من أخبار شاعرنا عن نفسه ما يذكره بأن هواية القراءة بدأت عنده منذ أن كان في الصف الخامس الابتدائي ، وفي فترة العمل بالمتجر السابق ذكره، وكان ذلك حينما طلب من صاحب المتجر أن يغلق عليه باب المحل ظهراً كي يرتاح ، ويوفّر مشقة الانتقال من مدينة المنامة إلى المحرق ومن ثم العودة لاسيما أن وسائل المواصلات كانت آنذاك غير متوافرة ، وكان انتظار باصات المواصلات يستغرق أكثر من ساعة ، وبذلك وفّر عليه لحظات الانتظار هذه ، وتكاليف وجبة الغداء كما يقول مستغلاً فترة الراحة التي استفاد منها باكتشاف بعض الدواوين الشعرية الموجود في مخزن بالمتجر ، ومن هذه الدواوين ديوان المتنبي ، وقصائد لابن الفارض ، وديوان أبي تمام كما قرأ ترجمة أحمد رامي لرباعيات الخيام التي حفظ أجزاء منها . أما قراءته في تلك الفترة فقد كانت عامة [4] ويتضح ذلك من قوله : " كل تحصيلي الثقافي المتواضع هو نتيجة قراءاتي العامة ، في البداية قرأت كل ما وقع تحت يدي مصادفة من كتب أغلبها في الشعر العربي ، وأعجبت بطرفة بن العبد ، وأبي نواس ، والمعري ، والمتنبي ، والشريف الرضي [5] ، وقد لازمته عادة القراءة كما يقول في اللقاءات به منذ هذه الفترة ، فأقبل على القراءة في مختلف مراحل الدراسة .

ومن الأبيات التي لا تزال عالقة بذهن شاعرنا قول ابن الفارض : –

---

(1) علي خليفة ، المقالبة الشفوية ، (11 اكتوبر 1994) .

(2) شعراء البحرين المعاصرون ، ص 119 .

(3) الحركة الشعرية في الخليج العربي بين التقليد والتطور ، ص 481 .

(4) علي خليفة ، م.س ، (28 أغسطس 1994)

(5) عبدالحميد المحادين ، علي خليفة صوت من الخليج ، في مجلة الثقافة العربية ، ليبيا ، (رجب 1395هـ / يوليو 1975م) ص 64-65 .

قلـــبي يُحـــدّثني بأنّـــكَ مُتْلفـــي، روحـــي فـــداك ، عرفْـــتَ أمْ لم تَعْـــرفِ
لم أقْـــضِ حّـــقّ هـــوَاكَ إن كُنـــتُ الـــذي لم أقـــضِ فيـــه أســـىً ، ومِثلـــىَ مَـــنْ يَفـــي
مـــألي سِـــوَى روحـــي ، وبـــاذِلُ نفســـهِ، في حُـــبّ مـــن يَـــهوْاهُ لـــيسَ بُمســـرفِ[1]

وبدأ شاعرنا بعد تلك الفترة أي في المرحلة الدراسية المتوسطة يقرأ في مكتبة المدرسة .

المرحلة المتوسطة :

التحق علي خليفة بالمرحلة المتوسطة عام (1959) بمدرسة الهداية الخليفية [2] ،وأيضاً لم يتحدث عـــن زملائـــه في هـــذه المرحلة، وصلته بهم ، ونلحظ أنه كان يميل إلى العزلة من قضاء ساعات الفراغ في مكتبات المدرسة ، ويستخلص من أحاديثه ميله إلى مادة التعبير وتفوقه فيها ، وقد وجد التشجيع على الكتابة من مدّرسي اللغة العربية [3] وأعانه الجو الثقافي السائد[4] في المحرق آنذاك على القراءة والكتابة إذ كانت المحرق مركزاً من مراكز النهضة الثقافية والأدبية والعلمية ، ففيها النادي الأدبي ، [5] والشباب المثقف الواعي المتفتح على العالم العربي عن طريق الصحافة الواردة من بيروت ، والقاهرة ، وبغداد ، ممّا نشر الوعي الثقافي والاقتصادي والاجتماعي في البحرين ، وأدى إلى وجود طبقة متعلمة بين الشباب في المجتمع . ذلـــك الجـــو الثقافي إضافة إلى تمكن شاعرنا من مادة التعبير في كافة فنونه ، ممّا شجعه على كتابة القصة القصـــيرة في البدايـــة ، والـــتي استوحاها من مجتمع الغوص وحياة الغّواصين ، فأرسل بعضاً من محاولاته للنشر في الجرائد المحلية ، إلا أنها لم تنشر ، ومـــع ذلك لم ييأس ونشر بعض المحاولات الأدبية في مجلة الحائط بمدرسة الهداية الخليفية التي تولى رئاسة تحريرها بالمدرسة في الفترة (1959 – 0960) ، وينفي علي خليفة الاحتفاظ بالمجموعة القصصية حالياً لأنه لم يكن يحتفظ بما يكتب في تلك الفترة .

وممّا عثرنا عليه حول تلك الفترة أقوال الأستاذ عبد الحميد المحادين [6] والتي تعد شهادة حيه تدعم الأقوال المتقّدمـــة فهـــو يقول : ((التحقت بالهداية الخليفية مدّرساً ، وفي عام (1959) التحق علي خليفة طالباً ، ولأني كنت مهتماً بـــالأدب والشعر بخاصه فقد تعرّفت إليه بسرعة ، ومع كونه صغيراً إلا أنه لم يخف اهتمامه بالشعر حفظاً وتذوقاً ومعايشة ، وقد وجد نفسه منغمساً مع تجربة الغوص والبحر ممّا أكتسبه فيما بعد تفاعلاً عميقاً في تجربة كانت تتخمر دخله لتظهر كما يبحث الماء في عروق الأرض عن منفذ له [7] .

---

(1) مهدى محمد ناصر الدين ، شرح ديوان ابن الفارض ، ص 142 .

(2) الهداية الخليفية ، أنظر ص

(3) المدرسون عبد الرحيم روزبة : من مواليد المحرق (1899) وكان موظفاً بالبلدية ثم انتقل إلى دائرة المعارف وعمل مدرساً على مدى خمسة وثلاثين عامـــاً ، ســـعد بـــن خـــيري : مـــدرس بحـــريني ، حســـن النصف : مدرس بحريني ، خليل سرحان : مدرس فلسطيني.

(4) علي خليفة ، م.س (28 إغسطس 1994) .

(5) النادي الأدبي : تأسس في مدينة المحرق عام (0920-1933) وساهمت مجموعة من الشباب في إنشائه ، وتوقف نشاطه عام (1933) ثم حاولت مجموعة مـــن الطلبـــة الـــتي أرجعـــت مـــن بـــيروت بعـــد ابتعاثها إحياءه بتأسيس النادي الأدبي الثاني في نفس العام واستمر خمس سنوات حتى أغلق (1933) ، منصور محمد سرحان ، م.س ، ص 137-138 .

(6) عبد الحميد المحادين مدرس لغة عربية بحريني من أصل فلسطيني قدم إلى البحرين في الستينيات وهو الآن مدرس لغة عربية بجامعة البحرين من مؤلفاته: نوافـذ ، رؤيـا في الظـل ، رجـال وآفـاق ، السـرد في روايات عبد الرحمن منيف ، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة البحرين .

(7) عبد الحميد المحادين ، م.س ، (17 يونيه 1998) .

ويتابع عبد الحميد المحادين : ((لقد التفت كل المدرّسين إلى هذه الموهبة الصغيرة وبخّاصة مدرسو اللغة العربية الذين كان يروقهم تعبيره عن ذاته وعن الآخرين وكانت موضوعات التعبير تنتقل بين أيدي المدرسين ليبدو إعجابهم الشديد بها ويحلمون بموهبة أدبية واعداه .

ومع أنني لم أدرسه بمدرسة الهداية الخليفة لكنني كنت كمن درسّه على وثيق صله به وعلى اهتمام كبير بموهبته خارج صفوف الدراسة وفي ساعات الفراغ .

ويواصل المحادين لقد فوجئت بقصيدة في مجلة البحرين اليوم بعنوان " أنين الصواري " وللحق لقد كانت هذه القصيدة تياراً صاعقاً كشف لي من إمكانيات علي خليفة فوق ما كنت أتوقع إلى الحد الذي جعلني أمسك القصيدة وأبحث عنه في ساحة المدرسة ، إلى أن عثرت عليه صبياً ضئيل الجسم أسمر اللون وكما عرفته دائماً خجولاً ومتواضعاً ، إلا انه يخفي خلف هذه القشرة طموحاً كبيراً وثقة لا يحّدها حدود [1] .

ويحدثنا المحادين قائلاً : وقد تناقشت معه في القصيدة ووجدتها من الشعر الحر شعر التفعيلة الذي ما كان يجرؤ على قوله شعراء الخليج لارتباط نشأته بأسماء كبار الشعراء كنازك الملائكة وبدر السّياب وعبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور . أيقنت يومها أن شاعراً قد ولد وله أسنان ، أي أنه في فترة وجيزة أحرز تقدماً وتمكناً كبيرين في هذا الحقل والاتجاه [2] .

ولابد هنا من الإشارة إلى الأحداث التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، لا سيما في الفترة التي التحق بها شاعرنا بالمرحلة المتوسطة حيث أصبح يعي مجريات الأحداث [3] على المستوى المحلي والعربي والعالمي ، وتعود بنا الذاكرة إلى صورة الانتفاضات والثورات وحركات التصحيح في الوطن العربي والتعبير ، الوعي الذي بدا في الأدب العربي عامه والشعر خاصه [4] .

وقد شهدت منطقة الخليج بعد ذلك الوعي في العالم العربي مولد التيار الواقعي بعد الرومانسي ، الذي ساعد على جريانه عوامل كثيرة في المنطقة ، وكان وجود بدر السّياب أحد هذه العوامل فهو قد ترك البصرة إلى الكويت مرتين ، مرة لاجئاً من التعقب السياسي ، ومرة طالباً للشفاء من مرضه الأخير [5] .

وكان ديوان محمد الفايز مذكرات بّحار 1965 بداية الاتجاه الواقعي ثم أنين الصواري لـ علي خليفة الذي تأثر بالواقع والجو الثقافي والسياسي السائد في هذه الفترة في مختلف مواحل دراسته لا سيما المتوسطة والنهائية ، وكان البحر هو المنطلق الذي وظفّه للتعبير عن الحياة الاجتماعية والسياسية .

---

(1) عبد الحميد المحادين ، المقابلة الشفوية ، (17 يونيه 1998) .

(2) عبد الحميد المحادين ، م.ن ، (17 يونيه 1998) .

(3) أنظر ، ص

(4) ماهر حسن فهمي ، تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج ، ص 19 .

(5) ماهر حسن فهمي م.ن ، ص 89.

المرحلة النهائية :

انتقل علي خليفة بعد المرحلة المتوسطة إلى المرحلة النهائية بمدرسة المنامة الثانوية في الفترة ما بين (1961 – 1963) وكان من طلاب القسم العلمي ، أما التحاقه بالقسم العلمي مع كون ميوله أدبيه فذلك ما يمكن أن يستخلص من خلال أقواله التي يفسر فيها سبب اتجاهه إلى الدراسة بالقسم العلمي حيث وجد في نفسه الرغبة والقدرة على التخصّص العلمي ، إذ إن ذلك يقتضي التركيز والمتابعة والتفرغ ، فكان قراره الدراسة بالقسم العلمي مجازفة قائمة على رغبة وتحد مع ميله إلى الجانب الأدبي الذي وجد في نفسه القدرة على التمكّن منه والتفوق فيه ذاتياً من دون تخصّص دراسي وذلك بقراءة كتب الأدب شعراً ونثراً [1] وكم من متخصّص في المواد العلمية أبدع في الشعر والأدب وليس أدل على ذلك من علي محمود طه الذي كان مهندساً ، وأحمد رامي الذي كان طبيباً وغيرهما العشرات .

ولقد تركت هذه الفترة آثارها في الشاعر إذ كانت من أشد الفترات الحرجة في حياته حيث تخّطف الموت أباه في عام (1961) بعد عجزه ومرضه ، وملازمته الفراش فترة طويلة مّما زاد من تمزقه وقلقه على مستقبل الأسرة ومستقبله الدراسي، فلم ينعم علي خليفة وهو الابن البكر بالراحة والاستقرار النفسي ، وزادت مسئوليته تجاه الأسرة وقبل التحدي بنفس أبيه رضية ، إذ عمل على اجتياز هذه الفترة بنجاح وإصرار فاستمر يزاول القراءة بمكتبة المدرسة مستغلاً ساعات الفراغ وبشكل مكثّف حيث كان يستعير الكتب باسم زملائه [2] .

وكان قد تأسست مكتبة الكلية الثانوية بالمنامة أوائل الأربعينيات ، حيث كانت أول مكتبة متكاملة تؤسس بالبحرين وتقدّم خدماتها للطلاب ، وقد تأسست قبلها مكتبة بمدرسة الهداية الخليفية بتخصيص غرفة للطلاب ، ثم حولت مكتبة الكلية الثانوية بالمنامة عام (1945) إلى مكتبة عامة تقدّم خدماتها للمواطنين بقرار من مدير المعارف آنذاك الأستاذ أحمد العمران [3] ، وكانت مكتبة مدرسة المنامة تضم الكتب العلمية والأدبية والدينية والتاريخية والقصص والروايات إلى جانب بعض المجلات العربية .

ويواصل علي خليفة في هذه المرحلة قراءة دواوين الشعر والكتب الأدبية والتاريخية والقصص ، وقد كان طالباً متفوقاً فعلى الرغم من الظروف الصعبة التي أحاطت به في هذه الفترة اجتاز المرحلة الدراسية بامتياز إذ كان ترتيبه الثالث على مجموعته ، وذلك لفطنته وفهمه . وذاكرته السريعة الحفظ ، ومّما أعانه على التحصيل اللغوي واستخدام المفردات والتراكيب اللغوية السليمة دراسته في الكتّاب كما تقدّم .

ومّما يذكره شاعرنا أنه اتجه في المرحلة النهائية من دراسته إلى العمل بإحدى الصيدليات بمدينة المحرق ، ولم نستطع العثور على شهادة ممن عمل في صيدليتهم لكون صاحب الصيدلية قد توفي ، أما أخ صاحب الصيدلية فهو رجل متقدم في السن وفاقد للبصر ومن الصعب أن يدلي بشهادة حول ذلك الموضوع ، إلا أن ما يؤكد ذلك شهادة الأستاذ عبد الحميد المحادين حيث يقول : كنت أتسامر مع علي خليفة كثيراً ونتبادل الأحاديث وعرفت منه أنه وهو في المدرسة يخوض الحياة العملية ويعمل بعد الظهر وفي المساء أعمالاً تنفق مع سنه وجسمه وتدّر عليه وعلى أسرته بعض الدخل يستعينون به لمواجهة الحياة الصعبة [4] .

---

[1] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (00 أكتوبر 1994) .

[2] علي خليفة ، م.ن ، (00 أكتوبر 1994) .

[3] منصور محمد سرحان ، م.س ، ص 29 .

[4] عبد الحميد المحادين ، م.س (17 يونيه 1998) .

وكان علي خليفة يطمع في أن يواصل دراسته بالجامعة ويؤخذ ذلك من قولة : " كنت أطمح بمواصلة تعليمي في الجامعة ، وقد عرضت على بعثة دراسية عن (تقنية أشعة أكس) إلا أنني آثرت الوظيفة لمساعدة أسرتي ، وقد عملت موظفاً بدائرة الجمارك في الفترة من (1963- 1975) [1] .ويتفق ما تقدم مع قول الدكتور علوي الهاشمي حول تعلمه " ...وتلقى تعليمه بمدارس البحرين ... ، ثم اشتغل بعد إتمام دراسته الثانوية بإدارة الجمارك بالمنامة ..[2] " " ويؤكد ما سبق القول التالي :" تلقى تعليماً دون الجامعة ، وبدأ حياته موظفاً بإدارة الجمارك عام 1963) ... [3] .

لقد بدأ علي خليفة حياته العملية بشكل رسمي منتظم تحدوه الرغبة في مواصلة الدراسة ، وهي رغبة عوضهّا بالقراءة الذاتية جرياً على عادته التي بدأها بالمتجر الصغير ، إذ أقبل على القراءة بشكل منتظم فاتجه إلى المكتبة العامة بالمنامة ، وذلك بعد نهاية الدوام الوظيفي ظهراً ، وقد تغلب على مشكلة المواصلات بعد أن عرض عليه زميل له توصيله إلى المحرق [4] . علماً بأن المسافة الفاصلة ما بين مدينتي المنامة والمحرق هي 3 كيلو متراً ، حوالي 5 دقائق بسرعة 60 كيلو متراً ، كانت تقطع بالقوارب في نصف ساعة قبل مد الجسر بين المدينتين .

إن الوظيفة الرسمية جعلت من أوضاع الشاعر المادية وضعاً أكثر طمأنينة كما يشير إلى ذلك الأستاذ المحادين قائلاً : إني أذكر أن علي خليفة كان أول أديب في البحرين يقتني سيارة في الستينيات ولقد كانت سيارته موضع حديث وتندر من أصدقائه الأدباء الذين حتى تلك اللحظة كانوا يصّرون على أن الأدباء ينبغي أن يكونوا حفاة عراة [5] حينما تناقشنا مع الأستاذ المحادين حول تلك المبالغة أكد أن ذلك كان مبدأ الأدباء البحرينيين آنذاك .

صلته بالمؤسسات الثقافية :

ولا بد هنا من الوقوف على صلة شاعرنا بالمؤسسات الثقافية التي كانت مصدراً من مصادر المعرفة والعلم لديه حيث تشكّلت موهبته الأدبية واتسعت مداركه عن طريقها وكان لذلك الأثر في تحديد جانب من جوانب حياته الأدبية والفكرية ، وأهم هذه المؤسسات المكتبة والأندية ، والإعلام .

في المكتبة العامة :

كانت المكتبة العامة التي افتتحت رسمياً عام (1946) تعد امتداد لمكتبة المدرسة (أي مكتبة مدرسة المنامة الثانوية) وبها كتب تغطي فروع المعرفة وترد إليها بعض المجلات العربية مثل الأديب [6] ، والهلال [7] ، إلى جانب الجرائد الناطقة باللغة الإنجليزية التي كانت تصدر عن دار الاعتماد البريطاني " المجلس الثقافي " فيما بعد ، وكانت المكتبة في الستينيات وأوائل السبعينيات مقراً لملتقى الكتّاب والشعراء ، حيث يتداولون فيها أمور الكتابة والفكر.

---

(1) علي خيفة ، المقابلة الشفوية ، (00 أكتوبر 1994) .

(2) شعراء البحرين المعاصرون ، ص 119 .

(3) أمريكا ، ولاية ديلاور ، م.س ، (1989) .

(4) علي خليفة ، م.س ، (00 أكتوبر 1994) .

(5) المقابلة الشفوية ، (17 يونيه 1998) .

(6) الأديب مجلة أدبية شهرية أصدرها البير أديب في بيروت 1944 ، ولا تزال تصدر اشتراك في تحريرها كبار الأدباء في العالم العربي والمهجر ، الموسوعة العربية الميسره ، ص 105 .

(7) الهلال : مجلة أدبية مصرية تصدر عن دار الهلال .

واستحدثت بها أقسام جديدة بعد ذلك منها قسم الإعارة ، وقسم المراجع ، وقسم مطبوعات دول مجلس التعاون ، وقسم الدوريات ، وغيرها ويديرها حالياً الأستاذ منصور محمد سرحان .

وأخذ علي خليفة يتردّد على المكتبة بشكل منتظم في الفترة من (1963 – 1968) وكان خلالها يتابع قراءة كتب النقد الأدبي ودواوين الشعر العربي القديم والحديث ويؤخذ ذلك من قوله : " وحين نظمت القراءة كان أول ما وقع تحت يدي جبران خليل جبران فوقفت معه طويلا ، ثم سرعان ما شدّتني شجاعة الشاعر الكويتي فهد العسكر [1] في نضاله بالكلمة ضد التقاليد السائدة في المجتمع وتمثله الأصيل لقلق الفنان الحقيقي وسخطه على الظلم والاستبداد ... وقرأت لرواد الشعر ، الحديث خصوصاً أبا القاسم الشابي وبدر شاكر السّياب الذي تتمثل فيه مأساة الأديب العربي في طموح إبداعاته وتذبذبه وقلقه وانتصاراته وهزائمه واجتراره للآلام وانطفائه مهملاً ثم بعثة والاهتمام به ميتاً ، فهو أكثر من عرفت من رواد الشعر الحديث .." [2] .

بكل هؤلاء تأثر شاعرنا في بداية محاولاته الشعرية فقلّد الشابّي ثم السيّاب ، ثم أصبح يتأثر بالعمل الأدبي أكثر من تأثره بشاعر معين وبعد ذلك حاول أن يكون له صوته ونبرته الخاصة [3] .

ولا يزال علي خليفة يتابع التطورات الجديدة التي طرأت على القصيدة العربية وبذلك استحق أن يكون شاعراً ورائداً في الحياة الثقافية بالبحرين فهو من المهتمين بمتابعة وضع الثقافة العربية وإنتاج المختصين من المفكرين العرب ، وكثيراً ما أبدى في المقابلات الأدبية معه اهتمامه باحتواء الثقافة العربية للإنسان العربي والارتقاء بذاته من خلال توفير حرية الفكر وسبل العيش [4] .

الأندية :

كانت صلة شاعرنا بالأندية الثقافية الرياضية في البحرين صلة وثيقة تعود إلى نهاية الخمسينيات فاشترك في عضوية نادي المحرق في فترة الستينيات وترأس تحرير مجلة الحائط بالنادي ونشر فيها محاولاته الأدبية ومثال على ذلك كتابة قصيدة طويلة عمودية بمناسبة احتفال النادي بالسنة الميلادية الجديدة ، وذلك في الفترة ما بين عامي (1963 – 1964) وقد أعد لهذه المناسبة بأن طبع القصيدة على الآلة الكاتبة تمهيداً لنشرها في الصحف بعد إلقائها في الحفل ، وأما موضوع القصيدة فيدور حول قصة صلب (السيد المسيح علية السلام) وقد كتبها متأثراً بجبران خليل جبران ، وهو ينفي أن يكون محتفظا بهذه القصيدة حالياً أو تذكر أبيات منها .

وقد استمرت بعد ذلك صلة شاعرنا بالأندية الثقافية من خلال الأمسيات والندوات واللقاءات الأدبية كما سيتضح بعد ذلك .

---

(1) فهد العسكر : هو الشاعر الكويتي الذي تضاربت الأخبار حول مولده ويرجح أنه من مواليد (1916) إذ ارتبط مولده بحادثة تاريخية موثقة هي وفاة الشيخ جابر الصباح ، أخطأ معاصروه في فهم روحه الدينية واتهم بالكفر ، شاع في شعره جو ديني خاص هاجم من خلاله المتعصبين فاضطر أهله إلى أن يحرقوا مؤلفاته بعد وفاته ليسدلوا ستاراً من النسيان على حياته وجمع الأديب عبد الله الأنصاري ما بقي من شعره في ديوان طبعة ثلاث مرات ، وتدور قصائده حول موضوعات مختلفة من مديح وغزل ووصف وشكوى. نقل الحركة الشعرية في الكويت إلى الاتجاه الرومانسي . وأصيب بمرض في عينه أدى إلى فقدان بصره ، فأثرت عليه هذه المحنه فاعتزل الناس بعد ما أصيب بتدرن ، و مات في أغسطس (1951) ، نورية صالح الرومي ، م.س ، ص 358 .

(2) عبد الحميد المحادين ، علي خليفة صوت من الخليج ، م.س ، ليبيا (رجب 1395هـ /يوليو 1975م) ، ص 64-65.

(3) عبد الحميد المحادين ، علي خليفة صوت من الخليج ، م.ن ، ليبيا (رجب 1395هـ /يوليو 1975م) ، ص 64-65 .

(4) هالة محمد صلاح الدين ، أفضل ما قرأت عام (1989) ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين (28 ديسمبر 1989) ، ص 4 .

وسائل الإعلام :

كانت مساهمات علي خليفة في مجال الإعلام المحلي ذات أثر ملموس فقد شارك في عام (1966) في العمل الإذاعي فقدم برنامجاً إذاعياً عنوانه (همسات الليل) وضّمنه موّاويل من الشعر الشعبي وكان برنامجاً ناجحاً على المستوى المحلي والخليجي ، وقدّم في العام نفسه قصيدة " أنين الصواري " في البرنامج الإذاعي " جولة في عالم الأدب " ، ولاقت هذه القصيدة استحساناً جماهيرياً ، وقد نشرت هذه القصيده في مجلة هنا البحرين في العدد (176) وذلك بعد مضي ستة أشهر من نشر القصيدة الأولى إلى " بحّار لم يعد " ، ثم قدم في عام (1973) برنامجاً إذاعياً ناجحاً وعنوانه " عالم الكلمة " وقد استمر يقدم ذلك البرنامج بنجاح لمدة عشرة أعوام متتالية واستطاع أن يقدم خلال البرنامج أصحاب الهوايات والمواهب الأدبية فكان له الأثر في تشجيع بعض أدباء البحرين وإبرازهم ومنهم الشاعر البحريني " علي الشرقاوي " [1] والشاعرة " فتحية عجلان " [2] وغيرهما وقدم في عام (1976) برامج إذاعية لدولتي الكويت وقطر ، وكان يعرض خلالها إنتاجه الأدبي شعراً .

ثم توقف علي خليفة بعد تلك الفترة كأديب وشاعر في مجال الإعلام ، ويمكن تفسير ذلك من خلال أقواله بأنه ضد العمل الأدبي اليومي الذي يرى أنه يستهلك الأديب ويقّيده ، فضلاً عن ذلك عدم ميله إلى الخضوع لرقابة المصححين لأعماله [3] .

تأسيس اتحاد أسرة الأدباء والكتّاب :

اشترك علي خليفة مع زملاء له من الشعراء والأدباء في التأسيس لكيان أدبي عام (1969) ، وذلك بعد تأسيس النادي الأدبي الثاني ، فكان تأسيس الاتحاد الأدبي استجابة لمتطلبات الوسط الثقافي في البحرين آنذاك ، حيث ضم مختلف المواهب الجديدة والتيارات الفنية للمبدعين من الشعراء والقصصين [4] والمسرحيين .

ثم تولّى علي خليفة إدارة هذا الاتحاد الأدبي و النشاط الأدبي العام فيه حتى سنه (1974) وكان عضواً نشطاً في هذا الكيان الذي كان توجهه اجتماعياً وطنياً والتزم بالدفاع عن الإنسان وقضايا الوطن بالكلمة ، ذلك كان شعار الكيان الأدبي لأسرة الأدباء ، حيث علت أصوات الاحتجاج ضد ما يسود الوطن من احتلال وسلبيات . وتمحورت أغلب الإبداعات الشعرية والقصصيه عند معظم أعضاء الاتحاد حول قضايا الوطن والمجتمع ، مّما جعل الناس تشعر بأن ثمة أدباً جديداً وشعراً جديداً ولغة جديدة في طرح القضايا المحلية والعربية والهموم العالمية .

أما حضور شاعرنا في هذا الكيان الأدبي فيبدو من خلال توقد الروح الأدبية والمتابعة لما ينشر ، والخدمة في مجال الثقافة والأدب وقضايا المجتمع ، إذ لم يكن نشاطه الأدبي منحصراً في حدود الذات بل كان يحاول أن يقدّم إبداعه الأدبي داخل إطار الجماعة ، مّما يبرز الإيمان بالقيم التي خلقتْ المدارس الفكرية ، والتطور في نطاق الإبقاء على تمايز المبدعين [5] .

ولقد سعى شاعرنا مع بعض الأدباء لاستقطاب أهل العلم مّما بشر برابطة تجمع الأدباء على صعيد واحد ، وللحق فإن أسرة أدباء البحرين وكتابها منذ تلك اللحظة قد أصبحوا هم الرمز الأدبي والإبداعي ، حيث جمعت الأسرة الأدباء بكافة

---

(1) علي الشرقاوي : من مواليد (1948) بمدينة المنامة تلقى تعليمه الثانوي بالبحرين ثم التحق بالجامعة في العراق لمدة عامين وعاد للعمل في مختبر وزارة الصحة ، انضم إلى أسرة الأدباء عام (0980) وأصدر مجموعته الأولى عام (1975) وعدد مجموعاته يزيد على العشر مجموعات ، وقد تعرض لظروف سياسية صعبة كان لها الأثر في تجربته الفنية شعراً وهو يكتب بالعامية والفصحى .

(2) فتحية عجلان : من مواليد المحرق (1953) ، حاصلة على الثانوية العامة وهي زوجة الشاعر علي الشرقاوي وتكتب الشعر بنوعية العامي والفصيح ، علوي الهاشمي ، م.س ، ص 179 – 230 .

(3) علي خليفة ، م.س (19 أكتوبر 1994) .

(4) عبد الله خليفة ثقافة وفن ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، جماد الثاني 1414 هـ / نوفمبر 1994) ، ص 1 .

(5) أمريكا ، ولاية ديلاور ، م.س ، (1989) ؟

توجيهاتهم ، وأقامت الأمسيات الخاصة والعامة مّما نشط الحركة الأدبية البحرينية التي عرفت بأعضائها فيما بعد في أنحاء الوطن العربي[1].

ثالثًا : إنتاجه الأدبي وأنشطته .

أ – محاولات أدبية :

وكان من آثار الثقافة عند علي خليفة أن بدأت محاولاته الأدبية بكتابة القصة القصيرة والشعر منذ كان في المرحلة الدراسية المتوسطة بمدرسة الهداية الخليفية كما أشرنا سابقاً في معرض الحديث عّما تعلمه ، ثم حاول مرة أخرى نشر محاولاته الشعرية في مجلة (الإعلام الشهرية) هنا البحرين [2] إلى جانب الإقبال على القراءة في المكتبة العامة بالمنامة ، وفي الفترة ما بين (1959 – 1966) تابع اهتمامه بالوضع الثقافي والفكري على مستوى الوطن العربي وأخذ يشترك في عضوية بعض المجلات الواردة إلى البحرين من البلاد ومن هذه المجلات : مجلة أقلام [3] ، والآداب [4] ، والمعرفة [5] . ونشرت له في مجلة الحوادث [6] في باب بأقلام القراء قصيدة (زفرات) ويبدو ذلك مطابقا لقوله :" كل ما كتبته قبل لم ينشر كان مجرد محاولات في زاوية بريد القراء وقد نشر لي أول عمل بشكل رسمي عام (0960) [7] في مجلة الحوادث في زاوية بأقلام القراء ، وهي قصيدة كان تأثر فيها بالشابي مقلّداً إحدى قصائده بالوزن والقافية وهي أشبه بشعر المعارضات ومطلع القصيدة :

كَفْكِفي يا شُجونْ ... دَمْعَ تِلكَ العيُونْ

وَاتْرُكي لِلأَلَمْ ... حَرّ تِلكَ الجُفونْ

وَامْرَحي بِالجِراحْ ... واَهْزِئي بِالظُنونْ [8]

وفي عام (1965) حاول نشر قصيدة تقليدية أخرى في مجلة البحرين وعنوانها " إلى بّحار لم يعد " و لم يضّمنها أنين الصواري فما بعد لشعوره بأنها لا تستحق النشر .

---

(1) عبد الحميد المحادين ، المقابلة الشفوية ، (17 يونيه 1998) .

(2) هنا البحرين : (البحرين اليوم) مجلة صدرت عام (1965) ولا تزال تصدر عن وزارة الإعلام .

(3) مجلة أقلام : مجلة عراقية أدبية ثقافية .

(4) مجلة الآداب : مجلة أدبية فصلية تصدر عن دار العلم للملايين في بيروت ، لبنان ومازالت تصدر ، عرفت بالنقد الأدبي في الشعر الحديث ، الموسوعة العربية الميسرة ، ص 67.

(5) مجلة المعرفة : مجلة أدبية سورية .

(6) مجلة الحوادث : مجلة لبنانية جامعة .

(7) علي خليفة ، م.س ، (28 أغسطس 1994) .

(8) علي خليفة ، م.ن (28 أغسطس 1994) .

وقد نظم الشاعر القصيدة فترة ذهاب أمة لأداء فريضة الحج متأثراً بلحظات الوداع ومعبراً عما أوحت له به هذه اللحظات من عدم عودة أمه من هذه الرحلة ، فوظف البحر ورحلة الغوص ، ومشهد انتظار الغّواصين . على الشاطئ في خمسة عشر بيتاً من الشعر المقفى .

أما من حيث تصوير مشهد العودة فقد بذل الشاعر جهداً في المقطع الأول ورسم لنا منظر الحبيب وقد أصابه اليأس والقلق من توقع عدم عودة من ينتظر فصّور مشهدا العودة محاولاً إضفاء الملامح الرئيسية وبعض اللفتات الجانبية على رجوع الغّواصين ، وهو حادث ملئ بإيحاءات غنية في التراث البحريني والفلكلور الشعبي للخليج كله فقال :-

فَرْحـــــةُ العـــــودةِ في أَنغْـــــامِهمْ ،
وعلَـــى السّـــيفِ [1] زغاريـــدُ الحـــنينْ
وَدفُـــوفُ الســـعد رَنّـــتْ لِلـــذي
قَهَـــر الأعمـــاقَ بـــالعزمِ المَكـــينْ [2]

لقد وفق الشاعر في هذين البيتين في تصوير التفاعل بين القادمين والمنتظرين في لحظة لقاء تتداخل فيها الأنغام المختلفة في نغم يصعد من وترين متكاملين . كما وفق في المقطع الثاني إلى حد ما في تصوير قلق المحب المنتظر الذي لم يجد من ينتظره فقال:

وأنـــا رهـــنُ اشـــتياقٍ مُضّـــنَى
أَذْرَعُ الشـــاطِئْ بـــالخَطو الحَـــزينْ
وُهمُـــومٍ بَـــرّ حَـــتني ، وَابتلَـــتْ
نفســـي الثُكلـــى بأشـــباحِ الظِنُـــونْ [3]

وفي هذه الفترة من المحاولات الأدبية تّعرض علي خليفة للنقد الأدبي لإنتاجه ، حيث كان يتأرجح ما بين الارتفـاع حينـاً والإسفاف أحياناً أخرى ، إلا أنه عرف مواطن تحليقه فطّورها ، ومواطن ضعفه فعالجها ، ومن الأمثلة على ذلـك إشـارة الدكتور محمد جابر الأنصاري إلى مواطن [4] الضعف في قصيدة " إلى بحار لم يعد " قائلاً : إن البيتين الآخرين في القصيدة يفتقران إلى الحرارة وإلى الخاتمة التي يجب أن تكون ذروة القصيدة وأوج انطلاقها ، ذلك قوله :

ربِّ خفِـــفْ عنـــهمو شّـــرَ الـــبلا
ربّ هـــونْ حـــدّةَ الـــريحِ الرَعُـــوْن
ربّ واحفـــظْ لي حبـــيبي ســـالماً
لفـــؤادٍ ظـــلَ مشـــبوبَ الحـــنينْ [5]

---

(1) السِّيف : شاطئ البحر باللهجة البحرينية وهي لفظة غير متداولة حالياً ، ويرى الباحث سيف مرزوق الشملان أنها لفظة عربية بكسر السين ، وتشديدها وهي تطلق على ساحل البحر وقد ذكرها العرب في أشعارهم ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت ، 1/ 252 .

(2) في مجلة هنا البحرين ، البحرين العدد – 171 ، لا-ت، ص3.

(3) في مجلة هنا البحرين ، البحرين ، العدد 171 ، لا-ت، ص 3.

(4) محمد جابر الأنصاري : أنظر ، ص

(5) في جريدة الأضواء ، البحرين ، (22 ديسمبر 1966) ، لا-ص .

ومن الأبيات التي تفتقر إلى التعبير المتمكن القوي السبك وسلامة التركيب وقوة الأداء قول علي خليفة :

والصـــــــبايا في خلـــــــيجِ الدُرّقـــــــدْ

خُضـــنَ في فـــرطِ ابتـــهاجٍ مُسْـــتَبينْ [1]

ويرى الدكتور محمد جابر الأنصاري أن وجود (قد) بين الشطرين قد أضر بتدفق الأسلوب الشعري إلى جانـــب بعـــض العبارات ذات التعابير العادية المتداولة باللهجة العامية مّما أدى إلى إضعاف التأثير الموحي والأداء الشعري المركـــز [2] أمـــا جوانب القوة إضافة إلى ما تقدم ، البيت التالي [3] الذي تجدر الإشارة إليه في هذه القصيدة قول الشاعر :

ونســـــاءُ الحـــــي غـــــالَبْن الهـــــوى

في انتظـــارٍ بـــانَ في سّـــمتٍ رصـــينْ [4]

إن الشاعر في هذا البيت قد وُفق في رسم مظهر النسوة المنتظرات فهن في مجتمع شرقي لا يسمح للمرأة بإظهار عواطفها حتى في أعنف اللحظات ، إلا أنها إنسان فهي وإن غالبت الهوى والشوق كي لا يظهر إلا أنه يبدو عليها في لهفة الانتظار الواضحة خلف ذلك الصمت الرصين إي المظهر الرزين الذي تتكلفه النسوة [5] .

لقد استفاد علي خليفة من النقد وتقبله إيجاباً وسلباً في هذه الفترة من حياته ، وعمل على صقل موهبته الأدبية فأكبّ على الإطلاع العميق الموسّع في ثلاثه فروع كما وجهه إلى ذلك الناقد محمد جابر الأنصاري في معرض اســـتعراض محـــاولات الشعراء الناشئين محللاً قصيدة " إلى بحار لم يعد " في هنا البحرين (1966) العدد (171) .

أما استفادة شاعرنا فتبدو في مواصلة قراءة الشعر العربي القديم ، والشعر الحديث ممثلاً في مدرسة السّـــياب و حـــاوي – وصلاح عبد الصبور ، وكتب الفلسفة والنقد عند الغربيين بشكل عام مّما بشّر بمولد شاعر جديد في جزيرة البحرين .

لعّلنا نتبين أن علي خليفة بدأ محاولاته الأدبية مبكراً موظّفاً البحر ومكّوناته بما في ذلك رحلة الغوص للتعبير عـــن تجاربـــه الشعرية والتي جمعها فيما بعد في دواوين أصدرها منذ (1969 – 1992) .

ب : ملامح شخصيته :

هناك جوانب كثيرة في شخصية علي خليفة منها الجسدي و المعنوى ، و سنتحدث عن بعض من هذه الجوانب قبل التطرق إلى إنتاجه وذلك لما لها من أثر في إنتاجه الأدبي وسائر أنشطته فالأعمال وسائر الأنشطه لها دلاله على شخصية صاحبها .

---

(1) في جريدة الأضواء ، البحرين ، (22 ديسمبر 1966) ، لا-ص .

(2) محمد جابر الأنصاري مسامرات جاحظية ، فلنفهم معنى النقد ، في م.س ، (22 ديسمبر 1966) ، لا-ص .

(3) أنظر المقطع الأول ، ص .

(4) محمد جابر الأنصاري مسامرات جاحظية ، فلنفهم معنى النقد ، م.س ، (22 ديسمبر 1966) ، لا-ص .

(5) محمد جابر الأنصاري مسامرات جاحظية ، فلنفهم معنى النقد ، م . ن ، (22 ديسمبر 1966) ، لا-ص .

* السمات الجسدية :

إن إشارة بسيطة إلى صورة وجه الإنسان وملامحه الظاهرة تكشف عن دخائل نفسه ، وتقود إلى تعرف طبائعه وسلوكه وتصرفه وغير ذلك ، فالقسمات والهيئة لهما أهمية في الكشف عن أعماق النفس وغموضها كما تشير إلى ذلك التحليلات والدراسات النفسية ، وإن لم يكن هذا حقيقة مُطلقة .

أما أبرز ما يميز شخصيه شاعرنا فسمرة اللون ، ووجه يبدو عليه حظ من وسامة الطلعة ، يغلفه الوجوم حيناً والهدوء حيناً آخر ، إلى جانب ابتسامة شبه دائمة ، تمتزج بمرارة المعاناة والقلق ، كما يمتاز الشاعر باعتدال القامة والبُنية ، فهو يميل إلى الطول ، والتوسط ما بين النحافة والبدانة .

ويطابق وصفنا الوصف التالي للأستاذ المحادين " كشمس الخليج شديد الحرارة ، وكرمال الخليج ساخن الملمس وكشواطئ الخليج داكن الجبهة ، وكبترول الخليج مشتعل الدم ، وكإنسان الخليج حلو المعشر ، دائم الابتسامة [1].

ويشير إلى بعض من سماته الظاهرة زميله عبد القادر عقيل قائلاً : علي خليفة "دمث الأخلاق لا يظهر ألمه وحزنه فهو دائماً مبتسم ومتفائل ومستمع جيد يصغي لمن يتحدث إليه بانتباه " [2] .

* الملامح المعنوية :

ولا بد من سبر أعماق النفس لإظهار خباياها فبعد الإشارة السريعة إلى السمات الجسدية والهيئة ارتأينا أن نستخلص من هيئة شاعرنا وملامحه مميزات أخرى منها الحّدة ، والهدوء والخجل حيناً ، مع العصامية والاعتداد بالرأي والثقة بالنفس ، وسعة الأفق والذكاء الاجتماعي والصدق .

وقد استبطنا تلك الملامح من خلال ملاحظاتنا لسلوك الشاعر وتصرفاته ، وأقواله أثناء المقابلات معه ، ومن خلال القراءة لدواوينه ، وماكتب عنه في الجرائد ، إلى جانب شهادات معارفه وزملائه في العمل ومنهم : الأستاذ محمد كمال الذيب ، [3] وعبد الحميد المحادين ، [4] وعبد القادر عقيل ،[5] وغيرهم .

الحّدة ووفرة الحس :

إن الجانب الذي تبدو فيه طباع الحدة ووفرة الحس لدى شاعرنا يتمثل في سرعة ملاحظته للأمور وقدرته على الوصف وتقصي الحقائق ، والتّعبير عن التجربة الشعرية بحس مرهف في نتاجه الشعري ، ومعاناته وإحساسه بآلام الآخرين .
ولنا في أقوال معارفه من النقاد الأدبيين ما يؤيد ذلك حيث يقول الأستاذ كمال الذيب :" يتميز علي خليفة على المستوى الشخصي بميزتين أساسيتين لهما تأثير ملموس على شعره :

---

(1) عبد الحميد المحادين : علي خليفة صوت من الخليج ، في مجلة الثقافة العربية ، ليبيا ، (جمادى الثاني 1395 هـ / يوليو 1975م) ، ص 59 .

(2) المقابلة الشفوية (22 يونية 1998) .

(3) محمد كمال الذيب : كاتب صحفي وناقد كان مدرساً سابقاً بمدارس البحرين الثانوية ، وهو يعمل حالياً بوزارة التربية والتعليم بالبحرين .

(4) عبد الحميد المحادين : أنظر ، ص

(5) عبد القادر عقيل : زميل للشاعر علي خليفة منذ ثلاثين عاماً ويعمل معه في إدارة الثقافة والفنون ، وهو كاتب صحفي .

أولاً : إنه حسّاس إلى أبعد الحدود ورقيق الحس إلى درجة بعيدة ... وهذه الانفعالية الشاعرية في شخصيته لها انعكاس ملموس على شعره الذي يظهر في رهافة الحس ، وشدة الانفعال والميل إلى الحزن والتأسي بوجه عام .

ثانياً : إن تجاربه الاجتماعية لا تخلو من خيبات شخصية واحباطات في مرحلة (معينة) كان لها بعض الانعاكس في شعره في المرحلة بين (0970- 0980) [1] وهي الفترة التي تّميز فيها شعره بالانفعالية الصاخبة لاسيما في ديوانه الثاني .

2- التوهج والنشاط :

إن الحدة والانفعال لا يعنيان العنف أو العصبية الدائمة ، فالهدوء والوجوم أمر طبيعي في أصحاب هذا المزاج بحيث إذا خلا صاحبه من الإحساس الثائر والرغبة الجامحة فإنه يعود إلى الوجوم والانقباض ، إلا أنه سرعان ما يعود إلى النشوة ، إن هذا السكون يخفي وراءه روحاً متوهجة وحباً للعمل والنشاط .

ونلمس جانب النشاط عند شاعرنا في تفانيه أثناء العمل وقدرته على العطاء وتحمل المسئوليه ، لذلك فقد أوكلت إليه ثلاث مهمات إدارية وهي إدارة المتاحف ، وإدارة المجلس الأعلى للثقافة والفنون ، وإدارة مجلة البحرين الثقافية .

ويؤكد عبد القادر عقيل وجود سمة النشاط في شاعرنا قائلاً : إنه شعلة من النشاط والطموح الذي لا يحد ، فهو ينتقل من مشروع إلى آخر ولا يتوقف طموحة عند عمل معين [2] ، ويتابع الأستاذ المحادين عن نشاط الشاعر وتوهجه قائلاً :" لست أنتقص من مكانه علي إذا قلت إنني كنت أراه يصّف الكراسي بنفسه ويرتب القاعة ويطمئن على حسن ترتيبها ويوفر أباريق الماء والكاسات للمنتدين والشعراء ، وكان دائماً كصاحب العرس كثير الحركة يتدخل في تنظيم كل صغيرة وكبيرة سعياً وراء تكريس حضور هذه المؤسسة الأدبية الراقية [3]

ويتحدث الأستاذ المحادين قائلاً : " إن علي خليفة كان من أنشط الأعضاء في أسرة الأدباء ، بل لقد كنت آراه عند ما يعلنون عن أمسية شعرية ، حيث لم يكن للأسرة آنذاك مقراً فكانوا يستعينون بالأندية وقاعاتها ، كانت مثل النادي الأهلي ونادي المحرق تستضيف أمسيات الأسرة وضيوفها الذين سعت الأسرة إلى استحضارهم من أقطار العروبة دعماً لحضورها وثقافتها [4] .

وقد تأكد لنا ذلك عند إجراء بعض المقابلات الشفوية مع الشاعر ، حيث وجدناه كتلة من النشاط سواء أكان ذلك من خلال حضور الاجتماعات أو الإعداد للمؤتمرات الثقافية والأدبية أو اللقاء ببعض الشخصيات الإعلامية والإدارية ، والرد على بعض الاستفسارات من المسئولين ، ومقابلة الباحثين والدارسّين ، لاسيما طلاب الجامعة [5].

ومع تلك السمة نلمح طابع الهدوء المحاط بالصلابة والعصامية والاعتداد بالرأي.

---

(1) كمال الذيب : المقابلة الشفوية ، 26(يونيه 1998) .

(2) عبد القادر عقيل ، م. س ، (22 يونيه 1998).

(3) عبد الحميد المحادين : المقابلة الشفوية (17 يونيه 1998) .

(4) عبد الحميد المحادين : م.ن (17 يونيه 1998) .

(5) المقابلة الشفوية ، (14 يوليو 1996) .

العصامية :

ويتميز شاعرنا وبالنموذج العصامي الطموح الذي كون نفسه بنفسه وثقّفها بشكل[1] عام ، إلى جانب الاعتداد بـــالرأى ورفضه الوصايا عليه من أي تنظيم فهو يرفض مثلاً أن يكون عضواً في يد سلطة أو حزب ويؤكد ذلك " كونـــه أديبـــاً عصامياً مستقل الفكر أسهم في التأسيس للكثير من الأنشطة ، وواصل العمل دون انقطاع " [2] .

3- الذكاء الاجتماعي :

أما التفوق والذكاء الاجتماعي فيبدو من تصرفاته وعلاقاته بالأشخاص وعلى جميع المستويات . فنجد في مكتبه الصحفي ومحاضر الجامعة ، وطلابها ، والصديق الأجنبي ، أو العربي ونراه متحدثاً لبقاً ســواء أكـــان ذلـــك بالعربيـــة أم باللغـــة الإنجليزية، [3] .

فضلاً عمّا تقدّم فهو صاحب شخصية اجتماعية محبوبة ويبدو ذلك من خلال تجاوب الجمهور معه أثنـــاء النـــدوات والأمسيات الشعرية ، وإصرار الطالبات والطلاب على دعوته في مدارسهم لإلقاء الشعر .

وفي أقوال زميله عبد القادر عقيل ما يؤكد صحه ما تقدّم فهو يرى أن علي خليفة رجل علاقات عامة وأن العمل في السلك الدبلوماسي كان يناسبه لو لم يكن يعمل في مجال الأدب والثقافة [4] .

ومن المواقف الدالة على ذكاء شاعرنا وحسن تصرفه ما تعّرض له في نيودلهي [5] من حرج بصفته رئيس الوفـــد البحـــرين برفقة الأستاذ إبراهيم العريض ، والأستاذ أحمد المناعي ، فقد أضم الشاعر إبراهيم العريض على أن تقدم الكلمة الخاصـــة بالوفـــد

البحريني باللغة الإنجليزية ، بينما رأى الأستاذ أحمد المناعي أن تكون الكلمة باللغة العربية فاضطر علي خليفة إلى الخروج من القاعة وإقناع المرافقين بأن تلقى الكلمة بالعربية وتترجم فوراً إلى الإنجليزية [6].

ومن الجوانب الدالة على ذكائه أيضاً ما وقع فيه من حرج حينما دعا الشاعر السوداني الكبير محمد الفيتوري إلى البحرين لإلقاء أمسية شعرية ، وخلال تقديم الأمسية انسحب الشاعر السوداني من الأمسيه لشعوره بعدم تجاوب الجمهور البحريني معه ، فحينها كان علي خليفة محرجاً ، ومع ذلك حاول تصحيح الموقف بأن طلب من الشاعر محمد الفيتوري إقامة أمسية

شعرية أخرى في أحد الأندية بالقرى البحرينية ، وبدعوة من الجمهور ، فأقيمت الأمسية وكان التفاعل شديداً بين الجمهور والشاعر الضيف [7].

---

[1] عبد القادر عقيل ، المقابلة الشفوية ، (22 يونيه 1998) .

[2] أمريكا ، ولاية ديلاور ، م . س ، (1959) .

[3] المقابلة الشفوية ، (14 يوليو 1996) .

[4] عبد القادر ، م.س ، (22 يونيه 1998) .

[5] أنظر ، أنشطته ، ص

[6] علي خليفة ، م . س ، (اكتوبر 1994) .

إن ملامح شخصية شاعرنا تبرز لنا شخصية أدبية تميل إلى التفاؤل في أسوأ الأحوال فهو يحاول إيجاد الحلول لأي مشكلة بامتصاص حالة الغضب بسهوله [1] ، فنحن أمام إنسان يمتاز بروح التجّدد والسمو إلى المعاني النبيلة ، وحب النظام والعمل .

4- سعة الأفق :

أما سعة الأفق فتبدو من خلال تقبل آراء محدثه والإصغاء إليه والرد على أقواله برحابة صدر ودون اضطراب أو اهتزاز وقد كان ذلك واضحاً من خلال المقابلات الشفوية معه ، فهو لا يميل إلى تشويه صورة ناقده أو الطعن في رأيه بل يحاول الخروج من ذلك بلباقة وحسن تصرف، ومثال على ذلك حديثه عن أسباب عودته من قطر [2] فهو لم يوضح تفصيلات ما تعّرض له من إهانات ، و لم يشأ أن يعرض أحدا للإهانة ، إلى جانب التقليل من أهمية النقد الموجه إليه في معرض الدراسات التي تعرضت لأعماله بالنقد .

وتبدو سعة آفقه من خلال التعامل مع ضيوفه سواء أكانوا رجالاً أم سيدات فأنت تشعر بأنه وصاحب ذوق رفيع يقدّم لك ما يستطيع من ضيافة وعون وتراه دائماً على استعداد لبذل المزيد في سبيل العلم والمعرفة والثقافة .

ونلمح من خلال سعة أفقه عدم تعنته دينياً واجتماعياً فهو يكن الاحترام لأصحاب جميع المذاهب والديانات . ويتعامل مع جميع الأطراف بإنسانية تخلو من الحقد والكراهية لأحد ،... ولا ينقض ذلك عدم احترام مبادئ الدين وقوانينه ، والنظام الاجتماعي السائد في المجتمع ، لذلك نحس فيه روح التسامح والتواصل وقبول رأي الطرف الآخر وإيمانه بحتمية الاتحاد بين جميع الاتجاهات في البلاد العربية والإسلامية كسبيل لنهضتها دون عداءٍ أو خوف أو صدام بين الأطراف أو إلغاء لها .

5- الصدق والصراحة :

أما جانب الصدق والصراحة فيبدو من خلال إيمانه بتأثير الإعلام في حياة الناس اليومية وذلك بما يعرض يومياً من خلال قنواته ، فهو من الداعين إلى أن تتاح له الفرصة بمستوى عال بعيداً عن الاستهلاك وتكرار البرامج ، فهو يدعو إلى أن تعد البرامج التي تعرف بحركة النشر والثقافة على سبيل المثال .

ومثال آخر يدل على تمّيز هذه الشخصية بالصدق وهو نقده للصحافة مع كونه مديناً لها بنشر ما كتُب من محاولات شعرية إذ رافقت تجربته منذ البداية ، فهو يرى أن ما تنشره الصحافة المحلية لا يستحق النشر ، وهي كما يرى تتساهل في عملية النشر ، وتّشجع الأقلام التي مازالت تتعثر في التعبير والإملاء والنحو والعروض وموسيقى الشعر وصوره وبنائه الفني ، لذا فهو يدعو إلى أهمية المراقبة الشديدة لما ينشر ومراعاة شروط النشر [2] .

---

[7] علي حليفة ، المقابلة الشفوية ، (اكتوبر 1994) .

(1) سوف يأتي الحديث عن ذلك .

[2] عبد الله حليفة ، ثقافة وفن ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (جمادى الثاني 1417 هـ / 20 يونيه 1994 م)

6- موقفة من الدكتوراه الفخرية :

ولعلنا نستخلص من موقف الشاعر من الدكتوراه الفخرية وجود جميع الملامح المعنوية التي أشرنا إليها آنفاً في شخصيته ففي الموقف من الدكتوراه نجد وفرة الحس ، والنشاط وحب العمل ، والعصامية وحسن التخلص والذكاء ، وسعة الأفق والصراحة .

فحينما منحت جامعة (ماركيز جوسبيني الدولية) درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب للشاعر ... علي خليفة تقديراً لأعماله الإبداعية المعّبرة عن روح شعبه وتطلعّات بلاده ومشاعر جيله ، ولدوره الريادي في حركة الشعر الحديث في منطقة الخليج ،ولجهوده المؤثرة في نشر المعرفة وتعزيز مكانة التراث الشعبي ، ولكونه قد خدم المنطقة وواصل العمل بها دون انقطاع لأكثر من ربع قرن ولا يزال ، على ما جاء في براءة منحه الشهادة .

وعّد علي خليفة بمنحه الدكتوراه الفخرية من الأفراد القليلين الذين يبذلون جهوداً مضنية لكسب المعرفة والحرص على نشرها ن وممن يوظفون طاقاتهم لنمو مجتمعاتهم والمجتمع الإنساني ، ويقدمون خلاصة فكرهم لخدمة قضايا الحرية والعدالة والسلام ، فهذه الدكتوراه تمنح للبارزين ممن يستحقون التكريم العلمي اعترافاً بجهودهم وتقديراً لقيمة عطائهم بعد ترشيح لنيلها يقوم به بنك معلومات متخصص في متابعة مختلف الأنشطة العلمية والأدبية والفنية الهامة في العلم وتوثيقها [1] .

ومقره البنك الرئيسي بولاية ميسورى . وممن نالوا هذا التقدير الأكاديمي الرفيع خلال السنوات الأخيرة، في العلوم السياسية جلالة الملك حسين عاهل الاردن ، وفي الفنون الرسّام المثال الأوغندي فرنسيس ناجندا [2] .

إن من يتأمل في التقرير المذكور أعلاه يتأكد أن علي خليفة يستحق ذلك الترشيح ، ذلك لأنه يرى فيه روح المبادرة ، والاستعداد لعمل الخير ، والنشاط اللامتناهى .

وقد وقف علي خليفة من خبر ترشيحه لنيل الدكتوراه الفخرية موقف المتوجس فقد كان خائفاً من أن هناك تنظيماً يهودياً صهيونياً له علاقة بذلك . ثم يذكر بعد ذلك أنه وجد أن أسباب الترشيح كانت مقنعة له لا سيما إنه رشح من خلال إنتاجه ونشاطه ، ومع ذلك فهو يقول : " إنني إذا كنت المقصود بهذه اللفتة تقديراً لما قدّمت من عمل متواضع فأنا على يقين بأن في البحرين من هم أكفأ مني . ويواصل قائلاً : إذا كان المقصود بهذه اللفتة البلد الذي أنتمي إليه فهو بلد عريق حضارياً وتاريخياً فالبحرين هي مدرستي وجامعتي والشعب البحريني هو أستاذي وإذا قدر لأعمالي الشعرية بأن تكون محل عناية ومتابعة من قبل مؤسسة أكاديمية دولية فإن هذه الأعمال جزء من كل ، فهي نتاج حركة التعليم في البحرين والحركة الشعرية والأدبية ، والثقافية الجديدة ، والجهود التي قمت بها في البحرين ، وفي بعض مناطق الخليج العربي أغلبها عشتها كهموم وأحداث من حياتي الشخصية وأديتها كواجب وطني ، ولم أنتظر أو أتوقع عليه جزاءً وقد شارك فيها نساء ورجال إلى جانبي وعملوا على إخراجها بالشكل المطلوب [3] .

---

(1) جامعة ماركيز سيكلونا ، على أسم مؤسّسها (1855- 1917) ، وهي من المؤسسات الدولية العلمية التربوية والتي ترعى عدداً من المعاهد ومراكز البحث العلمي في أمريكا وأوروبا ، تأسست بموجب القانون الدولي عام (1973) بولاية ديلاور الأمريكية وتعني أساسا بالأعمال الوطنية التي تبذل لتصوير مكان الآداب والفنون وبقية حقول المعرفة الإنسانية وتهتم بأن يشمل نشاطها أصغر مناطق العالم أو أبعدها والتي تتجلي بها صورة من صور الإشعاع الإنساني ، أمريكا ، ولاية ديلاور ، م.س (1989) .

(2) أمريكا ، ولاية ديلاور ، م. ن (1989) .

(3) لامع تحقيقات في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (14 يوليو 1989) ، ص 3 .

إن هذا الموقف يكشف عن جانب التواضع أيضاً في هذه الشخصية، إلى جانب الاعتراف بفضّل الآخرين ، وعـــدم إنكـــار جهودهم ، وطمس الحقيقة ، كما يكشف عن الروح الشّفافة التي تبدو من خلال إنتاج صاحبها ، ففي قصـــائد شـــاعرنا سنرى الإحساس بالصدق والوضوح والبساطة، إلى جانب الإشراق والأمل ، ممتزجاً بأوصاف تعبّر عن إحساس مرهـــف وحب للطبيعة بما فيها من بحر ونخيل وشجر وشمس وزهور :

رفاقي ، هلمُوا،
دناني وزرعي نضيرْ [1]

إلا أن هذه الحياة المليئة بالإشراق يكتنفها حيناً الخوف من المجهول والحيرة أمام المتناقضات والميل إلى التشاؤم :

مُسْتَوحشٌ
شَمَلَتْني رَهْبَةُ الظَّلْماء
واسْتَعْصى على قَلْبِيَ نُورٌ
كادَ أَنْ يَخْبُو بعيدا [2]

ولعلنا نخلص مّما سبق إلى أن أبرز ما يميز شخصية شاعرنا هو الالتزام بمبادئ لا يحيد عنها ، فنحن أمام أديب عصامي صلب الرأي مستقل الفكر ، وذلك فيما يتعلق بآرائه ومواقفه وأفكاره ومشاعره تجاه قضايا المجتمع والأحـــداث الوطنيـــة والسياسية وقد بدا ذلك من خلال أعماله الأدبيه كما سنرى .

أولاً : إنتاجه الأدبي :

عاش شاعرنا حياة حافلة بالعمل والنشاط الثقافي والأدبي ونشر في عام (1962) قصائد متفرقة في الجرائد والمجلات المحلية وذلك بعد عدة محاولات أدبية ثم أصدر بشكل رسمي أعمالاً أدبية في الفترة من عام (1969- 1992) عبّر فيها عن واقع الحياة الاجتماعية ومعطيات الأحداث الوطنية ، كما عبّر الشاعر عن همومه الذاتية وتأملاته في الحياة .

وأعمال شاعرنا الأدبية هي أنين الصواري ، وإضاءة لذاكرة الوطن ، وفي وداع السيدة الخضراء وهي بالفصحى ، أما إنتاج شاعرنا بالعامية فيتمثل في ديواني عطش النخيل ، وعصافير المساء .

وسوف نتعرف في هذا القسم على دواوين الشاعر بإيجاز مع الإشارة إلى أبرز المحاور والاتجاهات في قصائد كل ديوان .

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 119 .

[2] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 007.

أ – أنين الصواري :

في عام (1969) أصدر علي خليفة أول عمل أدبي له وهو أنين الصواري ويتضّمن تسعاً وعشرين قصيدة سبع منها قصائد صغيرة في الحب وضعها الشاعر في الصفحات الأخيرة من الديوان تحت عنوان " دفاتر من مقاطع الوجد " وتاريخ تأليف القصائد ممتد في الفترة من (1966- 1969) والديوان من الحجم المتوسط ويبلغ عدد صفحاته سبعاً وخمسين صفحة .

والطبعة الأولى للديوان من إصدارات " دار العلم للملايين " بيروت ، حيث سافر علي خليفة إلى لبنان لإعداد هذه المجموعة الشعرية للطباعة والنشر والتوزيع ، وقد أصبح فيما بعد على صلة بصاحب " مؤسسة دار العلم للملايين " " بهيج عمران " وأبنائه فاحتضن بهيج عمران أعمال شاعرنا ووزعها بشكل جيد على مستوى الوطن العربي ، [1] ويبدو أنه استفاد من خبرات بهيج عمران حيث أسس فيما بعد داراً للنشر والتوزيع هي دار الغد.

أما أبرز اتجاهات هذا الديوان فهي الاتجاه الاجتماعي الوطني والاتجاه الإنساني الذاتي [2] وقد ركّزت المجموعة الأولى من إنتاج شاعرنا على معاناة الإنسان البحريني من خلال واقع الغّواص وشخصيته ، وعبّرت عن ذلك بصدق فكان اختيار الاسم لهذه المجموعة وهو عنوان لإحدى قصائدها " دليل الثقافة والمعاناة "[3] كما يرى عبد الله الطائي ، حيث تبرز في أنين الصواري رؤية الشاعر الاجتماعية والفكرية ممتزجة بهموم عالم البحر والغوص متداخلة مع قضايا الوطن [4]..

وأهم ما يميز التجربة في هذه المجموعة الاستناد إلى التراث البحري بما فيه من ألفاظ وصور ودلالات ومعاني وقضايا وصور وطقوس استمدها الشاعر من البيئة المحيطة وكان لنشأته في بيت بحّارة وغوّاصين على اللؤلؤ أثر في التعبير عن التجربة الشعورية بألفاظ واضحة مباشرة أبرز سماتها التقريرية والحماسة التي بلغت أحياناً درجة الخطابية [5] .

ويمكننا تصنيف قصائد الديوان وفقاً للمحاور والموضوعات والاتجاهات إلى سبع قصائد ذات اتجاه اجتماعي ، وست قصائد ذات اتجاه ثوري وطني وست عشرة قصيدة ذات اتجاه ذاتي ، وسوف نرى أن هذه الاتجاهات تتداخل مع بعضها الآخر في بعض القصائد .

ويتضح أن تجربة علي خليفة في الديوان الأول قد توزعت في اتجاه أساسي واتجاهين فرعيين ، أما الاتجاه الأساسي فهو الاتجاه الاجتماعي الذي تخلله الاتجاه الوطني ، والاتجاهان الفرعيان فهما الاتجاه الإنساني والذاتي .

ب – إضاءة لذاكرة الوطن :

أصدر الشاعر ديوانه الثاني في عام (1973) وعدد قصائده إحدى عشرة قصيدة ذات اتجاه ثوري وطني يتداخل معه الاتجاه الذاتي والإنساني ، وتاريخ تأليف القصائد ممتد في الفترة من (1969 – 1973) .
والديوان من الحجم الصغير (خمس وتسعون صفحة) وطبعته الأولى من إصدارات دار العلم للملايين ببيروت .

---

[1] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (19 أكتوبر 1994) .

[2] دار الغد ك سوف يأتي الحديث عنها .

[3] سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، عودة الله منيع القيسي ، م.س ، ص 371 .

[4] أمريكا ، ولاية ديلاور ، م.س ، (1989) .

[5] أحمد محمد عطية ، م . ن ، ص 153 .

إن الاتجاه الثوري وهو الاتجاه الرئيسي في الديوان الثاني ، أما الاتجاهان الذاتي والإنساني فهما الفرعيان وقد اقترب الشاعر في ديوانه الثاني بعالمه الشعري صوب المزيد من الخصوصية في تركيب الصور المستمدة من تراث البحر دون مباشرة أو خطابية وبدلاً من الهموم الاجتماعية " أصبحنا نرى الهموم الوطنية المعبّرة عن انتفاضات البحرين وشهداء أحداثها وخلال كل ذلك أخذ الشاعر يغترف من مخزونه البحري ليثري القصيدة المأخوذة من عالم البحر ومفردات قاموسه اللغوي والشعري والبحري فنطالع كلمات الأصداف والمد ورمل الشاطئ وملح البحار والموج وعودة الغّواص ، وهو جريح كما في قصيدته الموحيـــة " لغة الظمأ الأرجواني " ، وهو مناضل يخاطبه ، كي يتجدد في موجه من النضال [1] ، حيث اصبح البحر رمزاً يتكئ عليه الشاعر في التعبـــير عن أفكاره .

لقد طرح شاعرنا في هذا الديوان محاولات اتسمت بالحداثة مؤكداً التزامه وحرصه على النضال بالكلمة ، وهو اتجاه الحركة الأدبية آنذاك والشعار الذي اتخذته أسرة الأدباء والكتاب البحرينية منذ تأسيسها حيث أصبح هذا الشعار منهجاً تقدمياً أخذ أعضاء الأسرة يسيرون عليه ملتزمين بقضايا الوطن في مضمون العمل الأدبي[2] .

وقد نظم علي خليفة من وحي الأحداث الثورية [3] آنفاً قصيدة بتاريخ مارس (1971) معبّراً عن الاضطرابات الـــتي سادت البلاد في (الستينيات) فقال مشيراً إلى موت الشاب عبد الله حسين نجم [4]

كانَتِ السُّقيا .. دمَاءْ ،
كُنْتَ (عبد الله) تاريخاً من الذُّلِّ
.....
قطراتٌ مَنْ دمائِكْ
صَبَغَتْ حائِطَ بيتٍ في طريقٍ للمدارس
وصدى طلقةِ نار
سجَّلَ الرابعُ والعشرينُ صُبحَ الأربعاء
كانَ يوماً نابضاً من شهرِ مارِسْ [5]

إن هذا الجزء من القصيدة يشير إلى الأحداث التي دلّت عليها الأفعال مّما ساهم في نقل صورة حقيقية من خلال لون قطرات الدماء وصوت طلقة النار ، وفي قوله شهر (مارس) تتويج لهذه الصورة الدالة على العطاء والبذل ، فمارس رمز الخصـــوبة والخير المتدفق .

---

(1) أنظر ، "لغة الظمأ الأرجواني "، ص 25 – 27 .

(2) مأخوذ عن التعريف بالحركة الأدبية ، أحمد المناعي ، ص 8-9 .

(3) أنظر ، ص

(4) أنظر ، ص

(5) علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 9- 22

مّما تقدم نتبين إن علي خليفة بدأ يطرح محاولات جديدة تميّزت صورها بالحداثة والبعد عن الرتابة ورنين الألفاظ في أخر الأسطر وبرزت في قصائده رؤية ساسية واضحة مستقاة من نماذج المقاومة والتضحية في تاريخ الحركات الشعبية في

البحرين ، وقد أتكأ حيناً على أبعاد رمزية من التراث الحضاري القديم لأسطورة دلمون " أسطورة الخلود السومرية " ومن ذلك قوله :-

إنْطَفأتْ في عتمةِ الحُبِّ عُيونُ النَّهارْ
و(دلمون [1] التي كانتْ بها بكَارةُ الحياة
جاريةُ مفرودةُ الساقينِ للشُرطةِ
والأغرابِ والمتاجرين[2]

أما في قصيدة حزن ليلى طفول التي ألفها الشاعر في (16 يوليو 1973) فتقول :

قامَتِ الرَّملةُ اليابسهْ
تَسْتَقي الوُدَّ ، تنمو على حُضْنِها مُعشِبَهْ
أمْطَرَ الصيفُ من شُرفةِ الانتظار،[3]

إن الرملة اليابسة رمز إلى حياة الجفاف والرغبة في التغيير ، فهي (تستقي الود وتنمو على حضن الأرض) رمز الوطن ، ومّما يوحي بوجود الأمل قوله (معشبه) وجود الأمل وقد عززّ ذلك المعنى وجود جملة(أمطر الصيف) التي تدل على زوال الجفاف .

والقصيدة الثانية في الديوان وهي " آثار أقدام على الماء" والتي كتبها الشاعر كما تقدّم في (مارس 1971) فإنها تقول :

فإذا مُتُ ، سأحيا...
كلَّ يومٍ ... سوف أحيا من جديدْ [4]

إن هذا الجزء من القصيدة به رد على مواجهة الأحداث الثورية من السلطة [5]، ودعوة مبطنه إلى الرفض والتمرد على الوضع الراهن ، كما يصّور هذا الجزء الإنسان الذي يعلو الصعاب والأحزان ويتحداها ، وفي ذلك تطبيق الشاعر النهج التقدمي الثوري الذي التزمت به أسرة الأدباء والكتاب ، دفاعاً عن قضايا الوطن والإنسان .

---

(1) دلمون (أرض الحياة وأسطورة الخلود) اسم يطلق على جزيرة البحرين منذ بداية الكتابات الآشورية المنقوشة وحتى آخر فترة من عهودها ، علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 88.

(2) علي خليفة ، م.ن ، ص 92.

(3) على خليفة ن م . ن ، ص 9.

(4) علي خليفة ، م.ن ، ص 21-22 .

(5) سوف يأتي الحديث عن ذلك .

ومّما يؤكد التزام شاعرنا بالنهج التقدمي الثوري الذي اتخذته أسرة الأدباء والكتاب البحرينية شعاراً لها أنه ألف في (مايو 1973) قصيدة " لغة الظمأ الأرجواني" وهي قصيدة ذات اتجاه وطني ذاتي وتعبّر عن هموم الشاعر.

التعرض للتوقيف :

وتتناول قصيدة " لغة الظمأ الأرجواني " أحداثاً ذات صلة باتجاه الشاعر وتجربته الشعرية الحياتية ، فنتيجة لاهتمامه بقضايا الإنسان والوطن وتوزع نشاطه ما بين كتابة الشعر وحضور الأمسيات والندوات الشعرية في نوادي مدن البحرين وقراها ، والبحث الميداني عن الموروث الشعبي وجمع مادته ، يبدو أنه كان موضع شك من السلطات إذ كانت تنقلاته محل ريبة ، فاتهم بالتحريض ضد الأوضاع السائدة في شعره ، والاتصال المريب ببعض الأشخاص الذين كان يجمع منهم مادة التراث ويتعرفّها فكان أن تعرض للتوقيف غير مرة في فترات ما بين عامي (1973 – 1975) وإن كان توقيفاً مؤقتاً إذ أفرج عنه لعدم وجود دليل إدانة ضده [1] .

وخلال فترة التوقيف كتب قصيدة على جدار السجن بالقلعة [2] منها

في نافذة السّجنِ حَطَّ على قلبي
حَطَّ عُصفُورٌ صَغِيرْ
نَقَر الأرضَ قليلاً ثمّ طارْ [3]

ولا يتذكر علي خليفة باقي الأبيات ، وتبقى الذكريات الأليمة خلال تلك الفترة ، فهو يذكر من خلال المقابلة الشفوية معه شعوره بالملل وعدم مرور الوقت بسرعة داخل جدار السجن ، إلى جانب النفور من حياة السجن التي تخلو من وسائل النظافة وتثير الاشمئزاز [4] ، ويشير إلى ذلك الحدث في قصيدة (لغة الظمأ الأرجواني) بقوله :

كُلُّ رأسٍ مرَّ في النارِ
لكي تبقى على الأرض الزهورْ
هُوَ عُنواني وإسمي
صارَ إسمي في ملّفات التحّري
نجمةً تُشعِلْ أَطرافَ الفتيلْ ،
تصْفَعُ العُتْمَ ، تغنِي
وتُضيئْ الانتظارْ [5]

إن هذه القصيدة تتناول تّعرض الشاعر للتوقيف المؤقت ووقع ذلك عليه ، فمع شعوره بالراحة كونه قد أضاء جزءاً من ظلام الحياة وقدّم التضحية من أجل الآخرين الذين رمز إليهم (بالزهور) واستمد القوة والجرأة من هذه الحادثة ، إلا أن لذلك أثراً سلبياً في حياته يؤكده المقطع الثالث من القصيدة حيث يقول :

---

(1) عبد الحميد المحادين : ثقافة وفن ، حوار صحفي ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (يوليو 1992) ص 42 ، علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (28 أغسطس 1994) .

(2) . القلعة : تقع جنوب مدينة المنامة وتسمى (قلعة الديوان) قيل إن الذي بناها هو نادر شاه أثناء إمارة (آل مذكور) ، على البحرين من قبل الحكم الفارسي ثم اتخذت في العشرينيات سجناً ، وإدارة للأمن العام ، ولا تزال قائمة كتكتة لرجال الشرطة — محمد بن خليفة بن حمد ، م . س ، ص 46

(3) علي خليفة ، م . س (28 أغسطس 1994) .

(4) علي خليفة ، م . ن ، (28 أغسطس 1994) .

(5) علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 25 — 26 .

هل سمعتِ ليلةَ الأمسِ اِنفجارَ الصمت ، هَلْ ؟
جَاءَ عِرْسُ الدّمِ موسيقى وشلالَ حَياهْ
جئت أنت بثيابِ العرُسِ خَجْلَى
هلْ رأيتِ كيفَ ثوبُ العُرْس بالدّمِ تلّطخْ
وتَضَّمِخْ بالعبير ؟
كُلُّ شيءٍ بيننَا اليومَ تغَّيرْ
صَوتي الآن صهيلٌ ، وحضورٌ يتوالدْ
حين ألقاكِ بوجهى
أنتِ عطشى
تجديني خبراً لم تألفيْه [1]

إن هذا المقطع وهو الثالث في القصيدة يعد نهاية لبداية المقطع الأول والثاني فهو توضيح لأثر حادثة التوقيف على الشاعر بعد استعراض أثرها في الأرض والناس الجياع والفقراء والشيوخ والأطفال ونلمح في هذا المقطع قلق الشاعر حيث يخاطب الطرف الآخر المحبوبة ؛ وتوحي الألفاظ بأن العلاقات بينه وبين المحبوبة قد أصابها التحول والتغيير (فثوب العرس تلطخ بالدماء) ؛ مَما يعّبر عن الألم الدفين ومرور الشاعر بتجربة ذاتية خاصة في فترة مبكرة من حياته كان مصيرها الفشل والحرمان ، إذ تخّلت عنه محبوبتة أو خطيبته إثر تعرضه لحادث التوقيف ، ثم حاولت العودة إليه ثانية إلا أن مشاعره قد تغيرّت بسبب الجراح العميقة التي تركتها في نفسه فلا سبيل إلى العودة إليها ونجد ذلك في قوله : (اسمحي لي كل شيء بيننا اليوم تغير) .

وتؤكد أقوال الشاعر ، وتأثره أثناء الحديث عن هذه التجربة ، وصمته عن بعض الأسئلة بأن هذا الموقف قد حدث في الواقع وفي قول الشاعر :

وجهي الآن كوعدٍ أنتِ فيه تْكبُرينْ
صوتي الآن صهيلٌ ، وحُضورٌ يَتوالدْ
فَاْخْرُجي من يَومِكِ الظامي الرّتيبْ
فجَّرتْني ذَرةُ العِشقِ صباحْ [2]

إنها معان توحي مّما بداخل الشاعر من ألم على الرغم من انتصاره وتغير حاله فهي تعبّر عن أثر الصدمة في نفسه والتي وإن خرج منها قوياً ، إلا أن الجراح باقية .

إن الصعوبات التي واجهت شاعرنا كان لها الأثر في حياته لاسيما في الفترة ما بين عامي (1973 – 1975) ومن هذه الصعوبات ما هو سياسي ومنها ما هو فكري واجتماعي وعاطفي إذ خرج من هذه التجربة وهو يعاني نفسياً وفكرياً ، فعاش العزلة والغربة في المجتمع .

---

[1] علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 25 –26 .

[2] على خليفة ، م. ن ، ص 24-2-35 .

وما يؤكد معاناة الشاعر نفسياً وحدوث جفوة بينه وبين الزملاء في اتحاد أسرة الأدباء والكتاب ، أقواله التي توضح حقيقة ذلك . فقد أشار علي خليفة إلى إقامته ندوة شعرية عن تقييم شعر بالعامية لشاعرين [1] بحرينيين حديثين ، فطرح أفكاراً حول تجربتهما بالعامية وكان يأمل أن يحاوره أحد من أدباء البحرين الحاضرين وشعرائها البالغ عددهم (خمسة وعشرين) إلا أنه شعر بالأسف الشديد لانقطاع الحوار بينه وبين الزملاء ، والانكفاء على الذات [2] .

أصبح علي خليفة يشعر في هذه الفترة باختفاء العمل التّطوعي وروح الجماعة ، مّما أدى في رأيه إلى انحصار الفنان في ذاته ، وسيطرة جماعات قليلة على الجمعيات الفنية والثقافية ، وضيقت أفق هذه الجماعة وانغلاقها أمام الجماعات والتيارات الأخرى عوضاً عن أن تكون أساساً لمدرسة فنية أو فكرية ، فكانت الانقسامات التي فتت المجتمع البحريني وأثرت في الثقافة سلباً [3] ، وعلى الرغم من ذلك وما يزال علي خليفة عضواً بأسرة الأدباء والكتاب البحرينية وعلى صلة وثيقة بأعضائها من الأدباء تلك كانت جوانب من الصعوبات التي واجهها الشاعر وأدت إلى شعور بالعزلة .

ولعّل في قصيدة " طائر الجزر الثلجية " (0970) دليل على أن الشاعر أصبح في فترة السبعينيات يعاني الإرهاق والمتاعب إثر التجارب الفكرية والسياسية والعاطفية والاجتماعية .

إن هذه القصيدة تلّخص متاعب الشاعر من فيبدأ المقطع الأول من القصيدة بالاستفهام الذي يقول فيه :-

أقصُّ عليكِ
وأقرأُ حرفَ كتابٍ قديمْ
ير فرفُ قلبي على سطرهِ
كسيَر الأماني ...كثيرَ الشُّحوبْ؟
أقصُّ عليكِ
وماذا أقولْ ؟؟ [4]

إن القصة المترقب أن نسمعها مأخوذة أحرفها من كتاب قديم والكتاب القديم هو هنا الحياة المليئة بالمتناقضات والتجارب المريرة . إنها حياة إنسان يعاني ، فالفعل (يرفرف) دال على الحركة البطيئة الموحيه بالإرهاق ، إلى جانب الموضع

الذي حدّده الشاعر وهو (قلبي) دلاَله على مبلغ الألم وشدته ، ثم صفه (القلب) فهو (كسير الأماني) و(كثير الشحوب) وقد أعان على الربط بين أجزاء المقطع الفعل المضارع الدال على الاستمرار في الزمن الحاضر وهو (يرفرف) وإضافة (الياء) بغرض التخصيص في قوله (قلبي) وتكرار حرف العطف (الواو) وتوالي الجملة الاستفهامية نفسها ؛ وفي قوله

---

(1) عبد الله خليفة ، ثقافة وفن ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين (جمادى الثاني 1414 هـ / 20 نوفمبر 1994) ، ص 1 .

(2) الشاعران هما : بدر الدوسري ، وأحمد مطلق .

(2) عبد الله خليفة ، ثقافة وفن ، م.س ، البحرين (جمادى الثاني 1414 هـ / 20 نوفمبر 1994) ، ص 1 .

(4) علي خليفة ، م . س ، ص 76 .

(أقص عليك) تعبير عن الرغبة في البوح عّما يقلق الشاعر وهول الأمر ووقعه على نفس المتحدث ، ولا يقف الأمر عند ذلك بل يعقبه استفهام آخر (وماذا أقول) ، مّما يؤكد خطورة الأمر.

ثم تبدأ الحكاية فنجد أنفسنا أمام صورة كلية يتداخل بها اللون ،والصوت والحركة :

أغصُّ ... أصيحْ
وأُطْعَنُ حتى قرارِ القرارْ
وأُسْكنُ حموةَ جرحٍ عميقِ اللّهيب
أغصُّ ... أقولْ [1]

إنه لمشهد مؤثر حقاً إنها صورة لإنسان متعب والدلاله على ذلك الجمل الفعلية المتتالية المعبّرة عن الشعور بالضيم ، والموحية بالكبت ، وذلك مدخل ممّهد للحكاية تتقاطع مع خُفوته الثورة والحدة في قول : (أغص) و (أصيح) و(حموة جرح عميق اللهيب) وهذه الجراح العميقة يحاول تهدئتها إلا أن نتائج ذلك الاختناق لعدم القدرة على البوح وتوصيل المشاعر والأفكار ، ثم تتكرر الجملة الفعلية (أغص) وتتقابل مع الفعل (أقول) مّما يوحي بحدة التوتر والبدء في البوح وذلك نجده في تهدئة (أثر الجراح) والفعل (أقول) الذي اختتم به المقطع .

ومن الأحداث ذات الأثر في حياة شاعرنا في الفترة ما بين (1974 – 1992) زواجه ، وإنجابه الأولاد ، ومزاولته النشاط الأدبي والثقافي حيث أصدر ديواناً بالفصحى وديوانيين بالعامية وأسس داراً للتوزيع ، وأصدر مجلة كلمات كما سيتضح من خلال الأقسام التالية

زوجته وأولاده :

إن ما ورد في أمر زواج علي خليفة يؤخذ من قوله بأنه تزوج في عام (1977) ويفهم من ذلك أنه كان حينما تزوج في (الثالثة والثلاثين) من العمر ، وقد تزوج من فتاة بحرينية هي (ع–ى–م) وهي خريجة معهد المعلمات سابقاً بالبحرين ،وقد عملت فترة مدرسة في مدارس البحرين ،ثم مذيعة في أثناء إقامتها آنذاك مع زوجها بدولة قطر ، ولا تزال تعمل حالياً في مدارس البحرين [2] .

وأنجب علي خليفة عام (1978) ابنته البكر (ليلى) وهي الآن في العام (1998) بالسنة الجامعية الثالثة بجامعة البحرين ، وفي عام (1979) أنجب ابنه (فهد) وهو الآن في عام (1998) بالسنة الجامعية الثانية وبعد ذلك أنجب من البنات حِصّة ونورة وَنْيلَةْ ، يحاول أن تكون علاقته بأولاده قائمة على التفاهم ، والأسس التربوية إذ لا يميل إلى التربية القائمة على

الشّدة والتسلط ، ويبدو خلال اللقاء به في مقر عمله بإدارة الثقافة والفنون ، بأن هناك نوعاً من التفاهم والصداقة بينه وبين أبنه فهد الذى كان متواجداً في أثناء ذلك ، ويؤكد بأن ابنته ليلى تميل إلى أمها أكثر [3] .

---

[1] علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 76 .

[2] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (28 أغسطس 1994) .

[3] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (14 يوليو 1996) .

وكان علي خليفة خلال تلك الفترة منشغلاً في قطر ، إلا أنه أصدر ديواناً بالعامية (1983) وهو عصافير المساء بالعامية ، وبعد عودته من قطر أصدر في وداع السيدة الخضراء بالفصحى .

في وداع السيدة الخضراء :

وديوان في وداع السيدة الخضراء من إصدارات دار الغد بالبحرين (1992) وهو من القطع المتوسط الحجم (132 صفحة) ويتضمن ستاً وعشرين قصيدة وسبعة مواويل بالفصحى تحت عنوان ليليات .

والديوان الثالث جاء بعد صمت طويل كمنطقة احتجاج ضد ما يسود الساحة الأدبية من فوضى شعرية كما سيظهر بعد قليل ، فالديوان إعلان مزدوج الأهداف فهو تأكيد على أن الشعر مازال حياً ، وهو من ناحية ثانية علامة احتجاج وناقوس خطر [1] ، إن كون الديوان ناقوس خطر ، بسبب أن الشاعر يلفت الانتباه فيه إلى الخوف من رحيل عصر النخلة ، فالسيدة الخضراء هي النخلة أو الشجرة كما يؤكد الشاعر من خلال اللقاءات به ، وهو يرى الشجرة رمزاً لمعاني الخير ومن أقواله " ... كانت في طفولتنا تحتل فناء البيت والمسجد ، و الأسواق والأحياء وهي الآن تحتل الروح والوجدان ولقد تحولت مع الزمن إلى رمز وأتمنى لو غادرت النخلة ألا تغادر المعاني الجميلة الأصيلة التي ترمز إليها من عادات وتقاليد وقيم بدأ يصيبها الضعف" [2] .

إن ذلك الرأي يعكس تمسك الشاعر بالذات ، والمعاني الأصيلة والخوف من تراجعها وتلاشيها أمام زحف المدينة . ويعود بنا القول السابق إلى ذكريات شاعرنا عن الشجرة وصلتها بحياته ونشأته حيث كان بيت الجد للأب مكانا للعب حولها أيام الطفولة ، ومحاولة تسلقها وجني ثمارها في أيام الصبا ، ورؤية ثمرها وهو يتساقط في فناء البيت ، ورؤيتها رمزاً للأصالة والجمال في أيام الرجولة والشباب إذ أصبح يراها أماً في صمودها وتفانيها ، وطوراً سيدة ممشوقة الجمال في مظهرها وشكلها [3] ، وأحياناً خيمة في امتدادها الأفقي[4].

ولعل من أهم المحاور الرئيسية والجوهرية في هذا الديوان هو محور الخوف الشديد من زوال عصر النخلة ، وضياع البحر ، وملامحه منذ هجره الغّواصون ، وأما المحور الثاني في هذه المجموعة فيتّصل ببعض الغنائيه الذاتية المزدوجة ، فهي تارة بكائية ترجمها

---

(1) لا- مح ، في وداع السيدة الخضراء ل علي خليفة ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، السبت 9 صفر 1413هـ / 18 أغسطس 1992) لا – ص عدد 38-48 عمود

(2) في وداع السيدة الخضراء ، ص 69-72 ، م. س (28 أغسطس 1994) .

(3) في وداع السيدة الخضراء ، ص 69-72 ، المقابلة الشفوية (28 أغسطس 1994) .

(4) على خليفة ، م.ن (7 يوليو 1996).

(5) لامح ، في وداع السيدة الخضراء ، علي خليفة ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (السبت 9 صفر 1413 هـ 18 أغسطس 1992 م) . لا ص .

الشاعر في شكوى الزمان وتبدل الأحوال كما سنرى بعد في تحليل قصيدة " السنابل " وهي تارة أخري غنائية عاشق مرهف فقد أصله وأثخنته الجراح [5].

جاءها مُتْعباً
فاقداً وجهَهُ البَدَويَّ الجميلْ
فجاءهَا مُثّخَناً
أنهكتْهُ البلادُ التي ترتمي في حُدود السرابْ
جَاءَ ها ..
وارْتمى ، [1]

الاتهام بالصمت :

ولعل من المناسب هنا الوقوف عند فترة الصمت التي امتدت من (1983 – 1992) ويمكن تلخيص أسباب توقف الشاعر فترة عن كتابه الشعر في قوله :" أنا لم أصمت و لم أكن صامتاً حتى قبل صدور الديوان الجديد كل ما هناك أنني شاعر مُقل وغير متلهف على النشر وأحاول أن أعطي كل تجربه حقها من النضج ، وبالتالي حقها من الصمت ، ومن عوامل الإضراب عن الكتابة والقول ما يمّر حولنا من تمريج شعري وفوضى تعم حياتنا الفكرية ... هذا الركام الهائل من الرداءة المتدثرة برداء شعري ، بات يقلقني بل يشعرني بالخجل كشاعر ، فأصبح الأمر لا يستحق منا غير الصمت فهو منطقة الاحتجاج الوحيدة المتاحة في بعض الأحيان [2] .

وقد اتهم الشاعر بأن الوظيفة أحد أسباب صمته ، فردّ على ذلك بأن الوظيفة ليست قيداً من قيود القول مع أن المبدع يعيش على هوامش ، دورة الحياة لاهثاً وراء لقمة العيش ، ويواصل قائلاً أنا شاعر وليس بمقدوري أن أكتب كل يوم قصيدة ... أنا شاعر ، وليس صحفياً ... لا قدرة لي على الكتابة يومياً والشعر عندي فن راقٍ وليس ثرثرة .

ويواصل قوله: أنا أكتب وإذا كان النشر هو ساحة الحضور الوحيدة فأنا مقل ، مقصر فعلا... ولكن للحضور ساحاته الأخرى ، فلا يكاد يمضى شهر إلا وتجدني حاضراً في الأمسيات والندوات الشعرية ... أما ساحة النشر فما زالت تخيفني .

وربما من المناسب في هذا السياق أن نشير إلى الفوضى والتهريج الشعري الذي تحدث عنه الشاعر ، فهو يقصد بالفوضى الشعرية ما ينشر في الصحافة المحلية ، مّما يوضع تحت عنوان " الشعر الجديد" وما يواكبه من تمجيد ونقد متعاطف في ظل غياب المنهج النقدي الذي يقّيم المنشور من الأدب ، ويعود ذلك في رأي الشاعر إلى تساهل الصحافة المحلية في عملية النشر ، وتشجيعها الأقلام المتعثرة في التعبير والإملاء والنحو ، والعروض وموسيقى الشعر وصوره وبنائه .

---

(1) كمال الذيب ، حوار ، تسع سنوات من الصمت ، في مجلة صدى الاسبوع ، البحرين ، (19 مايو 1992) ، ص 1

(2) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 51 – 51 .

عملة في قطر :

سوف نتوقف في هذا الجزء من الدراسة عند سفر شاعرنا إلى دولة قطر ، فإن لذلك صلة وثيقة بالمجموعة الثالثة فبعد عودته من قطر كما سيتضح بفترة بعد (1987) أصدر تلك المجموعة .

إن قرار علي خليفة السفر إلى دولة قطر جاء أيضاً بعد زواجه بفترة بسيطة ، وذلك إثر عرض قدّم إليه من دولة قطر ووفقاً لعقد أبرم بينه وبين وزارة الإعلام القطرية في مارس (1978) ، وقد اضطر علي خليفة إلى السفر لتأمين الحياة الكريمة لأسرته فهو ، كثيراً ما أبدى قلقه وخوفه على مستقبلها ، ومّما يؤكد ذلك قوله : " أتمنى ألا يعيش العوز شاعر أو فنان أو إنسان فمن المؤسف أن يقف إنسان يستجدي لقمة العيش ويطأطئ رأسه لغيره [1] .

فضلاً عما تقدّم فإن الشاعر في تلك الفترة وقبل سفره إلى دولة قطر كان يعاني العزلة الفكرية والاجتماعية والعاطفية ويشعر بالغربة في المحيط به .

كان علي خليفة خلال فترة إقامته بقطر والتي امتدت من عام (1977 – 1987) على درجة من الحماس والنشاط والاستعداد للعطاء وحب العمل وذلك في إطار خدمة المنطقة ، لاسيما أن مجلة كتابات كانت قد توقفت عام (1984) بقرار من وزارة الإعلام البحرينية إذ كان نشاطه خلالها موزعاً بين هنا وهناك ، وفي قطر عمل رئيساً لقسم الدراسات والبحوث بإدارة الثقافة والفنون ، مع اهتمامه بالثقافة الشعبية بالبحرين ودول الخليج العربية فمع كونه قد سافر وهو متذمر من الوضع ونتيجة الضغوط الاقتصادية إلا أنه كان في داخلة منتميا إلى البحرين ، إذ لم تنقطع صلته بها وكان يتردد عليها بين الحين والآخر مواصلاً نشاطه الأدبي من خلال إقامة الأمسيات [2] والندوات الأدبية والثقافية وحضورها .

شكوى الدهر :

ويجدر بنا أن نتحدث عن أحد المحاور الرئيسية في قصيدة " السنابل" . في اوائل الثمانينيات حيث كان شاعرنا في قطر مديراً لمركز التراث الشعبي بشكل مؤقت و لم يثّبت مديراً ثم اصبح أميناً عاماً لهذا المركز ، وفي أواخر الثمانينات تعرض لضغوط نفسية في قطر لم يشأ الإفصاح عنها ، فاضطر إلى العودة إلى البحرين بعد إصراره على رفض العرض الذي قدم إليه وهو أن يكون قطري الجنسية ، فثبّت بدلاً منه مدير قطري الجنسية في مركز التراث بالدوحة [3] .

و لم يذكر علي خليفة خلفيات ذلك الموقف ، إلا أنه يشير قائلاً :" أنني فوجئت بأن هناك مديراً جديداً قد عين في نفس المنصب الذي أشغله [4] " ويشير الأستاذ مبارك الخاطر إلى ذلك قائلاً " إن علي خليفة فوجئ بدخول المدير الجديد عليه في مكتبه طالباً منه بلهجة آمرة التنحي عن المنصب والخروج من المكتب [5] فوراً ، ممّا حزّ في نفسه ففضل الانسحاب بهدوء ودون الإشارة إلى ما تعرض له من إحراجات ، ويواصل الأستاذ مبارك الخاطر حديثه قائلاً " بأن علي خليفة قد كرس جهوده لخدمة الثقافة في قطر فقدم الكثير من الأعمال الأدبية في هذا المجال ومنها على سبيل المثال المؤلّف الذي نسبه إلى

---

(1) محمد همام ، مثقف عربي يشكو من ظلم الأقربين ، في مجلة زهرة الخليج ، الإمارات العربية المتحدة (30 مايو 1992) ، لا-ص

(2) علوي الهاشمي ، شعراء البحرين المعاصرون ، ص 020 .

(3) مبارك الخاطر ، م.س ، (19 يونيه 1996).

(4) مبارك الخاطر ، م.ن ، (19 يونيه 1996).

(5) مبارك الخاطر ، م.ن ، (19 سبتمبر 1996) .

قطر ، وذلك حينما قدّم أحد الكتب البحرينية الأصل والتي نقلت عن طريق ورثة أحد المؤلفين [1] البحرينيين إلى قطر [7] ، وقد يكون ذلك قد حدث دون قصد ودراية ، إلا أننا من خلال ذلك المثال نستخلص جهود الشاعر المتواصلة في إثناء إقامته بقطر مع ما آل إلية أمره بعد ذلك .

ويبدو أن علي خليفة قد تقبل الإحراج والضغوطات النفسية ظاهراً وإن بدا تأثره وآثار الجرح في نفسه حتى هذه اللحظات ويلمح ذلك من خلال حديثه عن هذه الفترة أثناء المقابلة معه ، وقد أشار إلى تلك الحادثة في قصيدة (السنابل) في ديوانه في وداع السيدة الخضراء . إن هذه القصيدة تحكي موقف الإنسان من الناس الذين يرمون باطلا إنساناً بريئاً بما يسمعون ، وليس عن طريق المشاهدة والدليل الأكيد ، فهي توجز موقف شاعرنا من الناس والحياة والزمان :

بهـــــــذا الزمـــــــــان الـــــــــرَّديءْ
إذا جئـــــــــــــتَ شـــــــــــــهماً
وأســـــقيتَ مـــــن دمـــــكَ الـــــوردةَ الذابلـــــهْ
وقاومتَ بالصدق وجـــهَ الحيـــاة الكـــذوبَ القَمِـــيءْ
ســـــينفضُّ مِـــــنْ حولـــــك السَّـــــامرونْ
ويهجْـــــــــــــــركَ الأَقـــــــــــــــرَبُونْ
وترميـــــكَ بـــــالطوبِ مِـــــنْ جَهْلِهـــــا السَّـــــابِلهْ
تؤلَـــبُ مِـــنْ كـــل صَـــوبٍ عليـــكَ الضـــفادِعْ
ويبقـــــــــى الســـــــــؤالُ الســـــــــؤالْ
لمـــاذا يُهـــز جنـــونُ العواصِـــفُ سَـــعْفَ النَّخيـــلْ
وتمضـــــــيى العواصـــــــف... تمضـــــــيى
ويبقـــــــــــــى النَّخيـــــــــــــل ؟ [1]

إن هذه الأبيات تعبّر عن شكوى الشاعر الزمن وتبدل الأحوال والأمور ، ويبدو ذلك من خلال وصف الزمن (بالردئ) وفي ذلك إطلاق الكل على الجزء ، ونجد أن الوصف هنا قائم على الضدية المتمثلة في العطاء والشهامة اللذين دل عليها الفعلان (جئت) و (وأسقيت) .

أما (الوردة الذابلة) فهى رمز إلى العطاء اللامتناهي من قبل إنسان يسقيها بعد ذبول ، وهو أمر مستحيل من جانبه يـــدل على التفاني من أجل الآخرين ؛ إلا أن ذلك يقابله أن نتائج الغرسَّ قد ذهبت سدى .

وفي هذا الجزء من قصيدة " السنابل " نرى أن الإنسان الصادق المخلص يكون أحياناً غير مرغوب فيه وسط جماعة لا تحذو حذوه و قد تتحين الفرص للنيل منه ، فيحاسب على أخطاء بسيطة ، فيصبح منبوذاً من الناس وقرينه ذلك (سينفضّ من

---

[1] المؤلف هو : راشد بن مقبل النبعلي من مواليد البحرين (1922) ، مبارك الخاطر ، م.س ، (19 سبتمبر 1996) .

[7] مبارك الخاطر ، م.ن ، (19 يونيه 1996).

[1] على خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 98 – 99 .

حولك السامرون) إنها أحداث متقابلة تتتاح في موقف درامي ومن خلال أبطال هم المُتحدِث الشاعر والمخُاطب الذي اتحد به الشاعر ، مقابل السامرون والأقربون ، والسابلة ، والضفادع ، فالجميع قد تكاتف ضده ، حتى الضفادع التي كني بها عن

ترديد الأقاويل والإشاعات والأمور التافهة في الأصداء ، مّما يدل على أن هناك من يستمع لهذا النقيق الذي ردّده الضفادع وهي هنا رمز إلى أصحاب النفوس الصغيرة في الحياة والذين يجهلون بواطن الأمور ، ونتيجة ذلك الاتفاق على اتهام إنسان برئ ، سواء أكانوا أقارب أم سابلة لا تربطهم به أي صلة .

ومع ذلك يحاول الشاعر الخروج من الأزمة منتصراً مختتماً المقطع بالاستفهام حول أثر العواصف في عبارات ومعاني مليئة بالتسامي عن الدنايا فتشد بذلك القارئ إلى رشاقتها وصدقها في التعبير ، إن ذلك الاستفهام يوحي بانتصار المهزوم وتحقيره لهؤلاء الذين وقفوا منه مواقف سلبية مصوراً إياهم (بالضفادع التافهة)و(بالعواصف التي تمضي) فصورة الناس وأقاويلهم تبدو هنا مثل العاصفة التي تأتي سريعاً ثم تمضي ، وقد تحدث خسائر ومع ذلك فهي تعني انتصار الإنسان الصادق العظيم أمام صغائر الأمور ، وينتج عن الجراح في الإنسان عطاء وخيراً وجهداً مبذولاً نحو الأفضل ، وذلك ما ختتم به الشاعر المقطع الأخير من القصيدة :

نَعمْ غَيرَأنَّ الرِّجال تَظَلُ على صِدْقها
وَتَنْبُتُ مِنْ نَزفِها سُنْبُلهْ [1]

إن (السنبلة) هنا إشارة إلى ثمرات الجهد المبذول والعطاء ومحاولة إسعاد الآخرين ، وفي هذين السطرين تعبير عن تفوق الشاعر على ذاته وانتصاره خلقياً أمام الهزائم ،ومع ذلك تظل المعاناة النفسية الدفينة وإن حاول إخفاءها وتعليل انسحابه بالظروف . ومثال على إجابته حينما وجه إليه سؤال حول تخليه عن مركز التراث الشعبي بقطر فقال : أنا أؤكد على شئ أكرره دائماً وهو أنني أعتبر نفسي جندياً في خدمة الثقافة ، ففي قطر بذلت كل جهدى وطاقتي خلال عشر سنوات كرّستها لخدمة هدف نبيل فبرز المركز بالشكل المطلوب مّما أثرّ في البُنية الثقافية بمنطقة الخليج وحّول الاهتمام الرسمي والأهلي من اهتمام إعلامي وعاطفي إلى اهتمام علمي متخّصص ثم صادفتني ظروف عكست الآية بالنسبة لي أنا كشخص ، ولكن هذا لا يهم فالمؤسسة باقية ، وهذا موقع عام قبل أن يكون خاصاً وعندما وجدت أن دوري سيتولاه شخص آخر رحبت بذلك بكل رضا [2] .

---

[1] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 11 .

[2] فوزية رشيد ، محمد عبد الملك ، ثقافة وفن ، في جريدة اخبار الخليج ن البحرين ، (14 مايو 1989) ص 8 ، علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (19 أغسطس 1996) .

ومع أن هذا الكلام ينفي ما ذكره الأستاذ مبارك الخاطر حول تلك المسالة لأنة كلام الشاعر علي خليفة نفسه الذي صّرح به ، إلا أن معاني القصيدة وأحاديث الشاعر عن تلك الفترة توحي بأنه ما زال متأثراً بذلك ، ومع مرارة الموقف يظل علي خليفة على ما عرف من خلق دمث ، ومعاملة حسنة إذ لا يزال على صلة ببعض القطريين ومنهم صديقه (عيسى الكواري) ، وكما ذكرنا من قبل فبعد تلك الظروف قرّر الشاعر العودة إلى البحرين منهياً صفحة من صفحات العطاء والنشاط في مجال الثقافة والفكر ومبتدئاً صفحة أخرى جديدة .

العودة إلى البحرين :

أقام علي خليفة بقطر فترة دون أن تتقطع صلته بالوطن الأم ، ثم عاد إلى مواطنه الأول عام (1987) ليقيم فيه ويزاول نشاطه الأدبي والثقافي حيث عمل رئيس قسم المؤتمرات والإعلام بمكتب المتابعة لمجلس وزراء العمل والشئون الاجتماعية

بالدول الخليجية [1] ، ثم عين أميناً مساعداً (للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) [2] بالبحرين ، ولا يزال يعمل به حتى الآن، وأسندت إليه في مارس (1996) [3] إدارة تحرير مجلة البحرين الثقافية [4] ولا يزال يواصل نشاطه الأدبي والثقافي بالبحرين ومنطقة الخليج .

وقد اصدر الشاعر ديوانين بالعامية في الفترة من (0970 – 1983) هما عطش النخيل ، وعصافير المساء .

عطش النخيل :

عطش النخيل وطبعته الأولى من إصدارات دار العلم للملايين بيروت (1971) وهو من القطع المتوسط الحجم ويتألف من خمس وخمسين موالاً شعبياً قصيراً ، وعدد صفحاته في 127 ، والديوان كما يوحي به العنوان التفاته إلى عالم النخلة الذي بدأ يرحل بعد ما جّفت العيون الطبيعية ، إلى جانب الحس الوطني من خلال توظيف البحر والنخلة في إظهار الحسرة على أن خيراتهما من نصيب الآخرين . كما أن الديوان يوضح شكوى الشاعر الزمن وتغير أحوال الناس من معارف وأحباب ....

وإن كان معجم البحر والفاظه قليلاً ، فالتركيز على الألفاظ المستمدة من التراث عامة ، والمحور الأساسى في هذا الديوان والذي تدور حوله المواويل هو المحور الوطني الشاكي من عدم التمتع بخيرات الوطن ، والمتحسر على كفاح الموطنين ومعاناتهم في الحياة ، والإشادة بكفاح الزعماء المصلحين أمثال جمال عبد الناصر ..، وقد وجدنا أن اثنين وعشرين موالاً تقريباً يتضمن هذه المعاني .

أما المحور الثاني فهو شكوى تغير الأحوال والناس والخوف من ضياع القيم الأصيلة ، وقد ورد في عشرة مواويل وقد تصّدرت القصائد الغزلية تسعة عشر موالاً ، فضلاً عن بعض المّواويل التي تدعو إلى عمل الخير ، وتتضّمن معاني الأمل والتفاؤل .

---

[1] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (19 أغسطس 1996) .

[2] أنظر ، ص 1 / المقدمة .

[3] علي خليفة ، م.س (28 أغسطس 1994) . علوي الهاشمي ، م. س ، ص 118 .

[4] أنظر ، ص 1/ 1 المقدمه .

وأبرز ما يميز هذا الديوان الألفاظ البسيطة المستمدة من تراث البحر والنخلة والمجتمع بما فيه من عادات وتقاليـــد وأدوات، والمعاني العميقة التي أدت ما أراده الشاعر ، وقد لاقى هذا الديوان آنذاك استحساناً جماهيراً ، ولفت إليه الأنظار ، لاسيما أن تقديم هذه الموّاويل كان من خلال بعض البرامج الإذاعية .

هـــ عصافير المساء .

أصدر علي خليفة ديوانه الرابع عام 1983 . وهو من الحجم المتوسط ، والطبعة الأولى إصدار دار الغد للنشـــر والتوزيـــع بالبحرين 1983 .

ويتألف الديوان من إحدى وعشرين قصيدة بالعامية على شكل أسطر نثرية تتضمن الأمثال الشعبية والمواويل التي تتخللـــها الحكم والنصائح .

ويمكن تصنيف قصائد الديوان إلى ثلاث مجموعات تبرز اتجاه الشاعر وهي كالتالي ؛ سبع قصائد وطنية ، وسبع قصائد ذاتيه غزلية وسبع ذاتية تأملية .

وتشير القصائد الوطنية إلى حب الوطن والولاء للأرض والحسره على الحرمان من خيراتها ، والفخر والإعجاب بإبناء الوطن المكافحين ، والموقف من الغربة والبعد عن الأهل والأرض .

ويبدو اتجاه الشاعر الذاتي الغزلي في القصائد القائمه على الوصف المحسوس للحبيبة والتي يّبثها الشاعر أشواقه ومعاناته الحرمان ولوعة الفراق .

كما تبرز قصائد الديوان موقف الشاعر من الناس ، ورأيه في الصديق الحق موقفاً يتّم عن التأثر من المعاملة السيئة والغـــدر والخيانة ، ونشعر في هذه القصائد بالغربة والعزلة التي تحتوي الشاعر .

وقد ركّز الشاعر في هذه المجموعة لإبراز الاتجاهات السابقة الذكر على الشجرة بما فيها من ثمار ونباتات ، أما البحر فقد ورد ذكره في قصيدتين ، إحداهما حين وظفه للدلالة على قوه وصلابة الإنسان الأصيل قائلاً بما معناه " أن كي النار لا يـــؤثر في البحر مهما كان هذا الكي عميقاً " كما وظّفه في قصيدة أخرى غزلية وطنية واصفاً إياه بالغدر فهو يقول " بأن البحـــر لم يعطى البحّار الأمان من الغرق [1] .

وبذلك توّزعت تجربة الشاعر الأدبية ما بين الفصحى والعامية وكان إصدار ديواني عطش النخيل و عصافير المساء نتيجة لتأثر الشاعر بالبيئة المحيطه به حيث استقى الموال الشعبي والأمثلة والحكايات من أمه ووالده ، ودليل ذلك قوله : " أنا مولـــود في بيت أساسه الموال وهو موجود فيه إلى هذا اليوم فالوالد غّواص وقريب من " فن النّهم" [3] ويحفظ مواويل كثيرة ، وأنا كنت أسمع وأحفظ منه ، وكذلك الوالدة لها فضل على فهي إلى اليوم وفي كل لحظة أو موقف أو معاناة تستحضر موالاً مناســـباً

---

[1] أنظر ، عصافير المساء ، ص 1- 146 .

[3] النهم هو فن يتضمن مواويل و وأغاني وأمثلة شعبية تحكي عن حياة الغّواص ومن يؤّدي هذا الفن يسمى (النهّام) وهو مغني البّحارة على ظهر السفينة .

فتقوله مباشرة فأنا مشّبع بالموّال في البيت ، فلما بدأت انتبه للشعر بشكل عام كان أول ما استهواني هو فن الموالّ إذ ولعت به ولعاً شديداً إلى درجة أني حفظته من الشيوخ والبحارة ... أسمع وألتقط وأجمع المّوال وأكتبه وأذاكـــره وأدرســـه إلى أن وجدت نفسي في لحظة ما أكتب الموّال طواعية وكان ذلك نتيجة تشّرب طبيعي ، فأنا أعتبره واحداً من مكّوناتي الثقافية وهو الأرضّية التي انطلقت منها إلى الشعر [2] .

ويواصل علي خليفة " ... ذلك كان سر تعلقّي به إضافة إلى ارتباطه الوثيق بالجو لمأساوي لحياة البسطاء من الناس بما فيها من معاناة وكدح يبرزان من خلال الميزات الفنية التي كرسها هذا اللون الشعري بقابليته العظيمة لدخول ألوان متعددة مـــن الألحان الموسيقية الشعبية اكسبت معانيه قدرة النفاذ إلى وجدان المتلقي فهو أغنية البحر مع العمل والسمر على اليابسة لذلك كان ينمو مع الإنسان ابتداء من أغاني المهد وحتى التشّبع به ... [4] .

ويواصل علي خليفة " منذ وعيت وأنا مشدود إلى هذا الفن ولشدة ميلي إلى هذا الفن كتبت مواويل بالعامية ثم بدأت أتحرر تماماً من الشكل التقليدي الصارم للمّوال إلى رحاب القصيدة الحديثة تدريجياً ، واخترت الموّال أداة للتعبير الفني لأنه استهواني بمفرداته وألفاظه فهو فن وشكل من التراث له مكانه خاصة لا يدانيها أي فن في البحرين ويرتبط بمرحلة تاريخيـــة وحقبـــة اجتماعية لها صلة بالناس وحياتهم آنذاك فهو يعّبر عن معاناتهم [1] ،

لذلك لجأ علي خليفة إلى استثمار الموّال بأسلوب ولغة جديده وبمضمون جديد مع المحافظة على روحه الشعبي ، وتلك سمة من سمات التطور والحداثة ، فكتب الموّال

وبما أن للّموال مكانه خاصة في البحرين وسائر البلاد العربية فإنه من المناسب في هذا السياق التعريف به وبخصائصة وتاريخ نشأته وأصله .

المـــــــــوال :

يتحدث شاعرنا عن الموال قائلاً : " الموال أحد فنون الشعر الشعبي في الوطن العربي ، وفي الخليج له مكانة خاصة في نفوس الناس لكونه أغنية البحر في رحلة صيد اللؤلؤ التي كانت لفترة تاريخية هي المهنة الرئيسية في الخليج ، والموال شـــكل فـــني محدود الطول بمواصفات خاصة للقافية ، يفترض أن تأتي فيه المعاني مكثفة تتصاعد تدريجياً حتى تصل إلى خاتمة قوية هـــى محور التجربة الشعورية [2]. وفي الكثير من المواويل تبدو قدرة الإنسان البسيط على إبداع صور شعرية بدرجة فنية عاليـــة حملت إلينا بعفويتها المحببة أجواء البيئة وظروف تلك الحياة . وكأي فن لم يخل الموال من المتطّفلين وصناع الكلام ، فكمـــا وصلت النماذج الشعرية الجيدة ذات المستوى الفني الصادق وصل الكثير من النظم التافه والمعاني المملة.

---

(2) يوسف الحمدان ، ثقافة وفن ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين (13 مايو 1989) ، ص 8.

(3) عبد الحميد المحادين ، علي خليفة ، صوت من الخليج ، في مجلة الثقافة العربية ، ليبيا (رجب 1395هـ / يوليو 1975).

(1) علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (11 اكتوبر 1994) .

(2) عبد الحميد المحادين ، علي خليفة ، صوت من الخليج ، م.س.ن ليبيا ، (رجب 1395هـ/ يوليو 1975) ص 63-64 .

ويتابع الشاعر :"فقراء الخليج كانوا بّحارة مراكب صيد اللؤلؤ ... والمّوال أغنية البحر مع العمل ، وأغنية السهر على اليابسة وفي ذلك الوقت كان حفظ المواويل وقراءتها على الجماعة في المجالس والبيوت مدعاة للفخر والاعتزاز ، وسبيلاً لكسب المعرفة ، فكان الموال ينمو مع الإنسان ابتداء من أغاني المهد وحتى كامل التشبع [3] .

أصل الموّال ونشأته :

يرى الدكتور إبراهيم أنيس أن أصل نشأة المّوال هي حدود القرن السادس أو السابع للهجرة ، لأن ابن خلدون الذي توفى 808 هـ ، ينسب شعراً يكاد يكون خالياً من إعراب الكلمات إلى عصره أو ما قبل عصره بقليل ، في فصل من مقدمته عنوانه (فصل في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد) [1] وعلى هذا فيحسن أن نعد المواليا أصلاً لما يسمّى بالموّال قد تّطور حتى صار على الصورة التي نعهدها الآن ، لاسيما وأن مؤرخي الأدب من أكدوا لنا أن وزن المواليا كان البحر البسيط . ونحن نعرف أن وزن المّوال الحديث هو البحر البسيط في غالب الأحيان [4] .

وأبرز خصائص الموال هي التحلل من إعراب الألفاظ وذلك بإسكان أواخرها كما هو الحال في اللغة العامية ، ثم التنويع في القافية ورويها . ولا يعد هذا تطوراً في وزن الشعر وبحوره ، وإنما هو تطور في القافية وتنويعها من ناحية وقواعد الإعراب من ناحية أخرى [1] .

والرأي الراجح عند مؤرخي الأدب أن المواليا التي تحولت إلى الموّال نشأت عند أهل "واسط" وقد نظموا من هذا الفن الغزل والمديح ، وكان سهل التناول ، تعلمه عبيدهم والغلمان وصارو يتغنون به في رؤوس النخل وعلى سقي المياه ويقولون في آخر كل صوت " ياموالياً" ، إشارة إلى سادتهم ، ثم استعمله البغداديون وأجادوا فيه حتى عرف بهم دون مخترعيه [2]

ولا يسعنا بعد الحديث العامية والمّوال في أعمال الشاعر ، إلا الإشاره إلى أن المزاوجة بين الفصحى والعامية في أعمال الأدبية تستخلص من قوله : أن هناك الكثير من الشعراء الذين يكتبون باللغة الفصحى ، والقلة منهم تتوزع تجربتهم بين الفصحى والعامية ، أي أن شعراء العامية قلة ، والجمع بين النوعين دليل على القدرة الإبداعية ، وقد جمع شاعرنا بين نمطي الشعر فنظم شعره لكليهما بفن واقتدار ، وهنا تبدو موهبته في المزوجة بين النمطين ، التي صقلها بقراءة الشعر الشعبي لشعراء من الوطن العربي أمثال عبد الرحمن الأبنودى [3] وعبد الله الفرج [4]وغيرها .

---

[3] أنظر صفحة 532 المقدمة إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص 232 .

[4] . إبراهيم أنيس ، م.ن ، ص ، 232 –233

[1] إبراهيم أنيس ، م.ن ، ص 232 .

[2] إبراهيم أنيس ، م.ن ، ص 232 .

[3] عبد الرحمن الأبنودي :-

[4] عبد الله الفرج : (1836-1911) من مشاهير شعراء الكويت الأوائل مولده ووفاته فيها ، نشأ بالهند وبرع في الموسيقى ، ووضع ألحاناً تداولها عازفو الكويت والبحرين عرفت بألحان الخليج . له ديوان مطبوع من النظم النبطي وديوان مخطوط من الشعر المصبح ، أدخل على الشعر النبطي كثيراً من التجديد وأوجد اوزاناً اقتبسها من الشعر الهندي وكان يجيد الهندية ، الموسوعة العربية الميسرة ، ص 1179.

وإلى جانب ما تقدّم فإن الشاعر يؤكد عدم انقطاعه عن القراءة ومتابعة الظروف الجديدة التي طرأت على القصيدة العربية في هذه المرحلة التي ركّز فيها على الكتابة بالعامية ، ممّا يثبت إيمانه بالتطور الذي يأتي بأصالة من نفس الفنان وقناعة وليس فرضاً أو تقليدا وانسياقاً مع الصراعات الطارئة ومجاراة ما هو سائد .

ويرى علي خليفة أن الكتابة بالعاميّة لم تؤثر على ثقافته أو قدرته على الكتابة بالفصحى ، فهو كما يقول ، لا يرغم نفسه على الانسياق في الكتابة بالعامية والفصحى إلا حينما يرغب في ذلك دون أن يضع نفسه في قالب معين ، ويرى أن ملهمه

في الكتابة بالعامية هو القاعدة الشعبية العريضة من الجمهور [5] . وبذلك أعاد علي خليفة في هذه المجموعة إلى فن المـــوّال الصدارة من جديد بعد أن اندثر مع مهنة صيد اللؤلؤ التي منيت بالكساد ، ولفت إليه انتباه الشعراء والباحثين ، وقد بّـــث مواويله الجديدة مضامين اجتماعية حديثة لاقت الاهتمام والتشجيع [6] .

---

[5] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (31 أغسطس 1994) .

[6] أمريكا ، ولاية ديلاور، م.س ،(1989) .

خبرته بالفنون الشعبية :

ونتيجة لتأثر الشعر بالبحر والتراث الشعبي والمواويل المستمدة من البيئة البحرية ، ولاهتمامة بالموّال عُد خبيراً فيما بعد في الفنون الشعبية لمنطقة الخليج والجزيرة العربية ، إذ استعانت بخبرته منّظمة الأمم المتحدة والعلوم والثقافة (اليونسكو) والمنّظمة الدولية الفكرية (ويبو) والمنّظمة الدولية للفن الشعبي (أيوفا) [1] فهو نائب المدير العام لهذه المنّظمة ، والمنّظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (أليكسو) .

وعلي خليفة من روّاد العمل الفكلوري الميداني في المنطقة ، حيث رافق البروفيسور الدانمركي بول اولسون (0908-0979) كدليل وجامع وباحث ميداني ، وقد رأس البروفيسور المجلس الدولي للموسيقى التقليدية في مسوحاته الميدانية المبكرة بمنطقة الخليج [2] .

وأجرى شاعرنا بحثاً ميدانياً لجمع نصوص من الأدب الشفهي عامي (1971- 1972) وكان في عام (0980) قد لفت انتباه دارسي لهجات الجزيرة العربية بالتحقيق الأدبي الذي قام بنشره لقصائد شاعر شعبي مجهول يدعى (حسن الفرحان) وحاول في هذا التحقيق إعادة مفردات شعر العامية البدوية إلى أصولها العربية المعجمية [3] وعنوان هذا الكتاب ديوان حسن الفرحان ، وقد أخرجه بمساعدة وزارة الإعلام في دولة قطر [4] .

ومن اهتمامات شاعرنا بالفلكلور والتراث أنه قاد فريقاً ميدانياً عام 1979 لإعداد مواد فلميه فلمية وثائقية عن الغناء والرقص الشعبي شمل كل منطقة الخليج العربية [5] .

موقفة من الشعر العامي :

إن شاعرنا يرى الشعر العامي كالزهرة البرية التي يجب أن تنبت وتظل نامية ، لكن دون مصادرة باقي الزهور ، ويرفض أن يكون احتضان الشعر العامي والمحافظة عليه دعوة للاستعمار أو الغزو الفكري الأجنبي للقضاء على العربية الفصحى[6] مع

عدم نكرانه وجود أهداف للقضاء على اللغة العربية . فهو مع تقديره للشعر العامي ، إلا أنه لا يشجع عليه ، ذلك لأسباب وطنية وقومية تجعله حريصاً كل الحرص على اللغة العربية الفصيحة التي يجب أن يبقى فن القول الشعري مقصوراً عليها .

إن الشاعر يعترض هنا على أن تكون القصيدة العامية هي الشائعة مع ميله إلى العامية واهتمامه بالفلكلور وذلك حتى لا تلغي العامية القصيدة الفصحى ، وهي القصيدة الأم والمجال الرّحب للتعّبير عن المشاعر والأخيلة ، والعامية كونها امتداداً للتراث

---

(1) أيوفا : منظمة عالمية تضم في عضويتها (134) دولة من دولة العالم ومقرها (مودلنغ بالنمسا) وهي تعمل على ثلاثة جوانب ، هي : الجانب العملي المختص بالشئون الميدانية ، والجانب الاحتفالي المهتم بالمهرجانات الدولية والفنون الشعبية ، الجانب المهتم بالإشراف على تنظيم المؤتمرات والندوات ، وهي منظمة دولية محور اهتمامها الفن الشعبي وتقوم على ثلاثة مستويات دول أو جمعيات ، متاحف وهيئات إقليمية أو وطنية ، علي خليفة م.س (28 أغسطس 1996) ، أمريكا ، ولاية ديلاور ، م.س ، (1989) .

(2) علي خليفة ، م.س ، (28 أغسطس 1994) ، أمريكا ، م.ن (1989) .

(3) أمريكا ، ولاية ديلاور ، م. ن (198989) علي خليفة ، م.س (28أغسطس 1994) .

(4) علي خليفة ، م.ن (28أغسطس 1994) .

(5) علي خليفة ، م . ن (28أغسطس 1994) .

(6) محمد البنكي ، علي خليفة يتحدث في نادي باربار ، في جريدة الأيام ، البحرين (جمادى الأولى 1411هـ/ ديسمبر 1989) ، ص 11 .

وجزءاً [1] منه ، إلا أن ذلك لا يعني أن تكون هي القصيدة المتفردة على حساب الفصحى إي لا بد من أن يكون للفصحى أهميتها ومكانتها الأدبية .

ونتبين مّما تقّدم أن دعوة علي خليفة إلى الفصحى لا تناقض إقدامه على تأليف ديوانين بالعامية في فترة الستينيات والسبعينيات وهي الفترة التي عبّر فيها عن روح الجمهور المتعطش إلى التراث وبلهجة مفهومه لديه ومحببه إليه وهي فترة كان بها الشاعر ذاته متأثراً بالبيئة المحيطة ، ومع تقّدم العمر وتطور فن القول ، وثقافة الجمهور أصبح يميل إلى الفصحى ، مع كتابته بالعامية طواعية متى ما شعر بالرغبة في ذلك وحسب طبيعة التجربة الشعرية فالعاّمية هي الرافد الذي يقابل الفصحى ودون أن يُلغي أحدهما الآخر .

هكذا تناولنا إنتاج الشاعر من خلال دواوينه بالفصحى والتي تحوى إنتاجه وخلاصة تجاربه وفكره ، وقد أشرنا إلى دواوينه بالعامية ، ربطنا بين جوانب من حياته وإنتاجه الأدبي وبعض المعطيات والأحداث التي عاصرها الشاعر خلال الفترة التي كتب فيها مجموعاته الأدبية .

وإذا ما حاولنا تحديد العلاقة بين دواوين الشاعر الفصحى وكما يرى هو ذاته فهي علاقة وثيقة لاسيما بين أنين الصواري وإضاءة لذاكرة الوطن ، ذلك لأن موضوع التجربة واحد ، إلا أنه يبدو أكثر عمقاً واتساعاً في الديوان الثاني الذي به ميل إلى الحّدة والبعد عن الرومانسية الواضحة في الديوان الأول فأفق التعبير واستخدام الرمز أكثر رحابة في الديوان الثاني منه في الديوان الأول .

ثم جاء الديوان الثالث امتدادً للديوانين وفي مرحلة عمريه هي مرحلة النضوج والتعقل حيث التعبير عن قضايا ذات نفس ذاتي تأملي وفي نبرة هادئة تبحث عن أسرار الجمال .

ثانياً ـ أنشطته

المؤتمـــــــرات :

تُعد حياة شاعرنا حياة مليئة بالنشاط الأدبي والثقافي والفكري الذي بدأ في فترة الستينيات ، ففي عام (1972) شارك في كثير من المؤتمرات ومنها مؤتمر الكتّاب الآسيوي الأفريقي الذي عقد في نيودلهي ،وقد حضره كعضوٍ لاتحاد أسرة الأدباء

والكتّاب البحرينية وبصفته رئيس وفد البحرين للمؤتمرات ، وكان ذلك برفقة الشاعر البحريني الكبير إبراهيم العريض ، والأستاذ أحمد المناعي[2] وهما من أعضاء أسرة الأدباء البحرينية .

---

[1] جمال الخياط ، حوار ن في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (15 مارس 1989) ، ص 00 .

[2] أنظر ، ص .

وقد التقى شاعرنا في ذلك المؤتمر بالكاتب المصري (يوسف السباعي والشاعر الفلسطيني محمود درويش) [1] ، كما حضر مهرجانات الشعر الشعبي بصفته رئيس وفد البحرين للمؤتمرات ، حيث شارك في مهرجانات الشعر بالجزائر ، والقاهرة ، ومهرجان المربد بالبصرة ، ومهرجان جرش بالأردن ،وقد حضر في عام (1976) مؤتمر اتحاد الأدباء العرب في تونس ، وتم اختياره عضو شرف في اتحاد الأدباء الأردنيين .

وقد شارك في مؤتمرات أخرى منها المؤتمرات الخاصة بوضع حقوق لحماية المؤلف والناشر [2] ، مّما يؤكد اهتمامه بالملكية الفردية واحترامه حقوقها ،وإدراك قيمة الإبداع الفردي وما يتعرض له المبدعون من معاناة .

وقد تنوعت المؤتمرات التي شارك فيها في الفترة من (1981 – 1983) إذ حضر مؤتمرات دولية خاصة بعالم طباعة الكتب الذي استهواه إثر تأسيسه (دار الغد) [3] للطباعة والنشر والتوزيع ، وعلى هامش ذلك حضر مؤتمرات تهتم بعالم الطباعة في لندن ، بولونا بإيطاليا ، وفي ألمانيا وتهتم (دار الغد) التي يمتلكها حالياً بالطباعة وإصدار كتب لها علاقة بالطبيعة والأحياء المائية والطيور وتنفيذ الأعمال المطبعية المتميزة وإن كان نشاطها يبدو محدوداً في هذه الفترة فهي شبه متوقفة عن العمل وذلك لوجود المؤسسات المماثلة المنافسة في مجال الطباعة والنشر بشكل عام في البحرين [4] وهذه المؤسسة تعمل لحساب الشركات الخاصة والآخرين الذين لا ينشرون مطبوعاتهم .

تأسس دار الغد :

أسّس علي خليفة عام (1974) داراً للنشر هي (دار الغد) وذلك بهدف نشر الأعمال الإبداعية لأدباء البحرين ، لاسيما المغمورين منهم ؛ إلا أن دور النشر قد مرّت بأزمة طباعة آنذاك لوجود المؤسسات المنافسة ، فكان أن تعرض علي خليفة لأزمة مادية أدت به إلى الخسارة فخرج من هذه التجربة متحملاً أعباء الديون وحده ، إذ لم يلتزم صغار الأدباء الذين مول إنتاجهم الأدبي بتسديد المبالغ التي تحمّلها ، فكان وقع الأثر النفسي عليه أشد من وقع الخسارة المادية ، وفقد الثقة في الآخرين ، وشعر بشماتة بعض المقرّبين إليه من الزملاء [5] .

ولا تزال تلك المؤسسة صامدة أمام التحديات وتزاول أعمال الطباعة بشكل محدود . ويؤكد ذلك قوله : " أما دار الغد فهي موجودة [6] ، وإن كنا توقفنا عن النشر لأسباب مالية بحتة حيث فشلنا مالياً في تغطية مصاريف الكتب التي طبعناها ...

فهي تمول مشاريع طباعة متميزة ، ويتحمل صاحب الكتاب مصاريف الطبع ،وليس ذلك هو الطموح المتوقع لهذه المؤسسة التي لم أكن آمل وأتوقع لها هذه الخسارة ...، وقد ساهمت المؤسسة في حل أزمة النشر بعد أن كنا نجد صعوبة في طبع كتبنا

---

(1) علي خليفة ، م.س ، (28 أغسطس 1994) .

(2) علوي الهاشمي ، م. س ، ص 119 .

(3) علي خليفة ، م.س (1 أكتوبر 1994) .

(4) علي خليفة ، م . ن ، (4 اكتوبر 1994) .

(5) علي خليفة، المقابلة الشفوية ،)19 اكتوبر 1994) .

(6) يوسف الحمدان ، ثقافة وفن ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (30 نوفمبر 1989) ، ص 9 .

وتوزيعها ، كان التفكير في إيجاد مؤسسة تتولى هذا الدور فكانت دار الغد هذه ولكن الخسارة المالية طالتني شخصياً ممّا جعلني أقف بهذا المشروع عند حد معين .... ومع ذلك يظل الاسم [1] ... ويستمر النشاط الأدبي .

إصدار مجلة كتابات :

إن فترة الستينيات والسبعينيات كانت من أخصب الفترات وأشدها تأثيراً في الحركة الأدبية في البحرين إذ تميزّت بالحيوية والتنافس الشديد بن أصحاب المواهب والأقلام الأدبية وقد أشرنا إلى ذلك في معرض الحديث عن دارسة الشاعر في المرحلة المتوسطة والنهائية ومحاولات الشاعر الأدبية ، ممّا دفع بالأدباء إلى الاهتمام بالنشر والتوزيع لأعمالهم ، لذلك أصدر علي خليفة مجلة كتابات بعد تأسيس (دار الغد) وكان ذلك في عام (1976) " وهي مجلة أدبية دورية متخّصصة ظلت تصدر عن مؤسسة (دار الغد) وكان الهدف من إنشائها تمويل الحركة الأدبية وخدمة حركة النشر والطباعة والتوزيع في البحرين ممّا ساعد على ازدهار فن القول الأدبي في تلك الفترة وقد تولّى علي خليفة رئاسة تحريرها لعشر سنوات ، ثم أوقفت المجلة بأمر من وزارة الإعلام ، بعد أن تعثر سيرها بسبب انتقال علي خليفة من العمل في البحرين إلى قطر [2] .

لقد كانت مجلة كتابات أول دورية أدبية متخصصة تصدر في البحرين بعد ظهور الحركة الأدبية الجديدة حيث طمح الكثير من الأدباء والمثقفين والمفكرين إلى وجود هذه المجلة ، فتحقق الطموح وتولّى علي خليفة إصدار كثير ن إبداعات الأدباء البحرينيين ونشرها ، وكان ذلك مغامرة ومجازفة منه حيث كانت دور النشر تمتلئ بمئات الكتب التي تنتظر التوزيع في المنطقة وخارجها ، وتحمل علي خليفة هذه المغامرة بثقة وتحد وقرر إصدار المجلة بحيث يصدر منها كل ثلاثة اشهر عدد ، أي ما يساوي أربعة أعداد في السنة ، فحافظت المجلة على هذا النظام إلا أنها تعثرت فيما بعد لأسباب مادية وفنية و لم يصدر منها إلا واحد وعشرون عددا في عشر سنوات . ونجد في أعدادها عشرات الأقلام للأدباء والباحثين والمحلّلين والنقّاد والمتحدثين

داخل البحرين وخارجها أمثال إبراهيم عبد الله غلوم [3] ، وماهر حسن فهمي [4] ، ونورية الرومي [5] ، وقاسم حداد [6] ، وكّتاب القصة ومنهم : محمد عبد الملك [7] ، وعبد الله خليفة [8] ، كما حفلت المجلة بالملفات والقضايا الأدبية ، ومثال ذلك الاهتمام بتجربة الشاعر البحريني إبراهيم العريض الشعرية في نطاق أدب المنطقة والتي كتب فيها محمد جابر الأنصاري، وماهر حسن فهمي ، وإبراهيم عبد الله غلوم ، , رجاء النقاش [9] .

---

[1] علوي الهاشمي ، م . س ، ص 120 ، علي خليفة ،م.س، (21 أغسطس 1994) إبراهيم عبد الله غلوم ، المقابلة الشفوية ، (9يوليو 1996) .

[2] علوي الهاشمي ، م . س ، ص 121 ، على خليفة م . س ، (21 أغسطس 1996) . إبراهيم عبدالله غلوم ، م .س ، (9يوليو 1996) .

[3] إبراهيم عبد الله غلوم ، أنظر ، ص

[4] ماهر حسين فهمي : ناقد وباحث أدبي مصري عمل فترة في دولة قطر وكان أستاذاً للغة العربية بجامعة قطر .

[5] نورية الرومي : باحثة وناقدة أدبية كويتية .

[6] قاسم حداد : أنظر ، ص

[7] محمد عبد الملك : كاتب قصة بحريني .

[8] عبد الله خليفة : كاتب قصة بحريني ومحرر في جريدة أخبار الخليج البحرينية .

[9] رجاء النقاش : كاتب وأديب مصري مشهور .

ولا يرى علي خليفة إمكان إعادتها في الوقت الراهن معللاً ذلك بأنها وجدت لتسد فراغاً تملأه الآن مجلة أدبية أخرى متخصصة هي كلمات التي تعد استمرار لمجلة كتابات ولا طاقة لاحتمال وجود مجلتين أدبيتين لا سيما أن الأبواب اليومية على صفحات الجرائد اليومية تسد الفراغ في هذا المجال كذلك .

الاهتمام بالتراث :

وفي قطر أسس الشاعر مركز التراث لدول الخليج وأشرف على المشروع ، وأداره خمس سنوات في الفترة من (1982 – 1987) [1] كما أسس مجلة المأثورات الشعبية [2] كما سيتضح بعد قليل .

تأسيسه مركز التراث :

أثار شاعرنا بحماسه فكرة توحيد جهود دول الخليج العربية لجمع التراث في منطقة الخليج وشبه الجزيرة ، فعرض الفكرة على مؤتمر وزارة الإعلام ، وكُلّف بوضع دارسة جدوى المشروع فكان إنشاء مركز علمي متخصص للتراث الشعبي في قطر تم تمويله من دول الخليج العربية .

لقد وجه علي خليفة بذلك الأنظار إلى الاهتمام بالتراث كعمل منظّم جمع حوله أندر الخبرات ، إذ وصل الجهود المحلية بمعاهد ومراكز البحث العلمي بالجامعات الأمريكية ، مثل جامعة أنديا ، ومعهد شمشونيان إلى جانب الجامعات الأوروبية ، وجامعة القاهرة [3] .

وقد أصبح مركز التراث نقطة مشعة ذات اختصاص علمي ثقافي ، فاستقدم له الشاعر المدرّبين والخبراء وشارك المركز في الفترة (1978 - 1982) في حضور المؤتمرات الخاصة بالفلكلور والتراث الشعبي التي نظمتها (اليونسكو) في باريس والجزائر .

ونّظم علي خليفة إبان إدارته مركز التراث بالوكاله في الدوحة أربعة مؤتمرات دولية حول التخطيط والبرمجة للعمل في ميدان التراث بمنطقة الخليج والجزيرة العربية حضرها متخصّصون من عدد من دول العالم فترجمت وقائعها إلى عدة لغات وهذه المؤتمرات هي :

1- مؤتمر التخطيط لجمع التراث الشعبي .
2- مؤتمر التخطيط والرقص الشعبي لجمع وتصنيف فنون الموسيقى .
3- مؤتمر التخطيط للإشراف على مادة التراث من عادات وتقاليد ومعتقدات شعبية .
4- مؤتمر التخطيط لجمع وتصنيف الثقافة الخاصة بالحرف الشعبية .

---

[1] مبارك الخاطر ، م . س ، (19 سبتمبر 1996) .

[2] مجلة المأثورات الشعبية ، مجلة فصلية علمية تصدر عن مركز التراث الخليجي في قطر .

[3] أمريكا ، ولاية ديلاور ، م . س (1989) .

وقد انعقدت هذه المؤتمرات في الدوحة بمركز التراث في الفترة من (1978 – 1982) ، فاصبح مركز التراث يخدم المنطقة في مجال الدراسة العلمية المتخصصة بالفلكلور ، وحّول الاهتمام والنـــزعه الذاتية العرقية إلى مادة علمية قابلة للدرس والجمع والتصنيف والبحث ، فأصبحت المادة التراثية تجاري مجال العمل الاكاديمي .

إصدار مجلة المأثورات الشعبية :

أسس علي خليفة في عام (1986) بالدوحة دورية علمية متخصّصة في الفلكلور وهي المأثورات الشعبية ، وتولى رئاســة تحريرها بمساعدة هيئة تحكيم من أساتذة الجامعات فاعتبرتها الأوساط الأكاديمية المعنية بالتراث حدثاً ذا أهمية خاصة [1] .

وكان علي خليفة خلال ذلك على علاقة وطيدة بالدكتور (عيسى غانم الكواري) وزير الثقافة والإعلام في قطر سابقاً إذ كان صديقاً له وهو مدير مجلة المأثورات الشعبية آنذاك .

موقفة من التراث :

ويرى علي خليفة إمكانية ضمان نهضة تراثية بالبحرين ويشير إلى وجود أسلوبين للتعامل مع التراث ، أما الأسلوب الأول فهو التعامل مع التراث على أساس الشكل الخارجي الذي تسد به الفراغات في مجال الإعلام ، وأما الأسلوب الثــاني فهــو التعامل مع التراث على أنه وليد حضارة تمازجت مع حضارات أخرى كالفارسية والهندية والأفريقية ، وهي روافد تتميــز بالتأثر والتأثير في الحضارة لذلك يجب النظرة إلى التراث بموضوعية واختيار المناسب الذي يمكن إضافته إلى الحياة المعاصــرة ورفض الغث [2] .

الأمسيات :

دأب علي خليفة على المشاركة في الندوات ، والأمسيات بالنوادي المحلية والهيئات الثقافية الخليجية ومثــال علــى ذلــك مشاركته في الندوة التي أقيمت بنادي الوحدة البحريني حول (التجديد في الشعر الشعبي) عام (1989) ومشــاركته في أمسية شعرية أخرى بمناسبة احتفال نادي (باربار) بمرور (25) سنه على تأسيسه ، ومشاركته في الندوة التي أقامها نادى الحالة بمناسبة اختتام أسبوعه الثقافي ومضمونها حول العادات والتقاليد وأثرها على النشء ، وأهم ما يميزها ، وقابلية الشباب للتغيير ولا يزال يواصل مشاركاته في الندوات والأمسيات الشعرية ملبياً دعوات الجامعة في البحرين ، ومنها على سبيل المثال الالتقاء بطلاب جامعة البحرين في أمسية شعرية حول توضيح أصول اللهجة العامية وصلتها باللغة العربية وشارك في أمسية

---

(1) أمريكا ، ولاية ديلاور ، الخطاب المترجم المرسل إلى الشاعر ن (1989) .

(2) محمد همام ، مثقف عربي يشكو من ظلم الأقربين ، في مجلة زهرة الخليج ، الإمارات العربية المتحده ، (31 مايو 1992) لا –ص

(3) فارس السلمان ، ثقافة ، قصائد الأسئلة المعلبة ، في جريدة الشرق الأوسط ، لندن ، المملكة العربية السعودية ، (3 ديسمبر 1993) لا–ص .

أخرى بدعوى من المجلس الوطني للثقافة والآداب بدولة الكويت، والتي نظمت على هامش معرض الكتاب الثـــامن عشـــر للكتاب العربي وكان ذلك عام (1993) [3]

النـــــــــدوات :

يشارك علي خليفة باستمرار في الندوات التي تقيمها بعض المدارس الثانوية بالبحرين في مجال المسابقات التربوية بين المدارس ، ويلى دعوات بعض الهيئات الإدارية والمدرسين لتحليل قصائده أمام الطلبة ، وذلك بهدف التفاعل التربوي بـــين الشـــاعر والطالب والتغيير من الأسلوب المتبّع في تقديم النّص المدرسي وتحليله [1] .

أما حضور الندوات على مستوى دول منطقة الخليج فمنها على سبيل المثال مشاركته في الندوه التي أقيمت في مسقط تحت عنوان (ومضات من التراث العربي) وألقى فيها مجموعة من قصائده وكان ذلك في إبريل (1989) [2] وشارك في مهرجان شعري أقامته اللجنة الثقافية لدول مجلس التعاون بالكويت ، فألقى ثلاثاً من قصائده على الجمهور الكويتي الذي يؤثره وكان ذلك في إبريل (1989) [3].

ولعلّ من المناسب في هذا السياق الإشارة إلى موقف الشاعر من الجمهور الذي يتواجد في الأمسيات الشـــعرية والنـــدوات فحينما توجّهنا بالسؤال التالي إليه وهو : ما سمات الجمهور الذي تميل إليه ؟ أجاب قائلاً : إنه الجمهور الذي يســـعى إلى الاستماع إلى قصائدي ويتابع ما أكتب ، فأنا أجد سعادتي في حضور الجمهور المثقف الواعي لما أكتب ، كما أجد سعادتي في حضور الجمهور البسيط لأمسياتي سواء في المدارس أو الأندية ، لاسيما القرى ، وأنا أميل إلى الجمهور المتعطش إلى الشعر الصادق المعاني غير المتكلف أو المجامل والذي يتفاعل معي بحرارة وصدق ؛ لذلك فهو لا يفضل إلقاء الشـــعر في حفـــلات تتضمنها برامج أخرى كالغناء ، ذلك لكون أجوائها مفتعلة ، فيطلب منه إلقاء قصيدة كمـــا يطلـــب مـــن أي مطـــرب محترف [4] .

إن جمهور علي خليفة المفضل لدية هو الجمهور الذي يتصف بالثقافة والبساطة أيضاً ، الذي يحب الشعر بطبعه ، ولعل من قائل أن هذا يبين لنا حرج الشاعر من الجمهور إلا انه قد ذكر بأن من يحضر أمسياته أيضاً الجمهور المثقف فهو لا يميل إلى الجمهور المتكلف ، إلى جانب كونه على قدر من الفطنة وحسن التخلص من الجمهور الناقد .

اهتمامه بالثقافة :

قضى علي خليفة حياته في خدمة الثقافة بجميع جوانبها كما ذكرنا من قبل ، وذلك من خلال إصدار المجلات والـــدواوين الشعرية وتأسيس (دار الغد) وحضور المؤتمرات الثقافية المتعددة ويبدو موقفه من الثقافة كذلك مـــن خـــلال حضـــوره

---

(1) علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (19 يوليو 1996) .

(2) لا-مح ، ومضات من التراث العربي ، في جريدة الأيام ، البحرين ، (24 إبريل 1989) لا –ص .

(3) سعدية مفرح ، أمسية الشعر الفصيح الأولى ، في جريدة الوطن ، الكويت ، (23 إبريل 1989) ، ص 26 .

(4) علي خليفة ، م . س ، (22 يوليو 1996) .

لمهرجانات الشعر لاسيما المهرجانات الستة التي حضرها في (المربد) والتي كان منجذباً إليها في البداية إلا أنه يرى أن حضوره مؤخراً قد جعله يعي أن تلك المهرجانات لا تعني بالشعر كما في البداية ، وصار الهدف من وجود المهرجان هو مجرد حشد أكبر عدد من الشعراء ، مّما حول المهرجان إلى مكان للقاء ، أما الهدف الفني فأصبح ضعيفاً . مّما جعله يفقد الحماس ، ويفضل عدم المشاركة في ظل هذه الأهداف الإعلامية وأصبح يتردّد في الاستجابة للحضورها [5].

ويرى علي خليفة أن الثقافة في الوطن العربي تواجه معضلات صعبة منها أن المبدع العربي لا يحصل على ما يحصل علية المبدع في أي مكان من العالم من دعم مادي ومعنوي فهو في صراع من أجل توفير العيش الكريم لأسرته ، وأن حريته تحت سيف الخوف ، و ينحي الشاعر باللوم على المؤسسات الصناعية والتجارية التي تجر الناس إلى الاقتراض بالأرباح الضخمة داعياً إلى تخصيص قليل من أرباح هذه المؤسسات لصالح المؤسسات الثقافية [1] . إن هذا الموقف يكشف جانباً من ملامح هذه الشخصية ن وهو الخوف والقلق ، وتلك وساوس طبيعية قد تنتاب الإنسان المحب للشئ والخائف عليه من الضياع أو الانحدار .

تلك كانت أبرز الملابسات والظروف التي أحاطت بمولد شاعرنا ، وتلك كانت حياته وصلته بالعصر والبيئة بما فيها من معاصرة للأحداث الاجتماعية والإنسانية والاقتصادية ، إنها حياة شاقة حافلة بالصراع ضد التقلبات ، ومليئة بالهزائم والانتصارات ، والتشاؤم والتفاؤل ، والقلق والراحة والشك واليقين والخجل والحدة ، إنها حياة إنسان قد حنكته الأيام والتجارب ، وذاق مرارة الشقاء وقسوته ، وحلاوة الأيام وطيبها ، فكان لهذه الحياة الأثر الواضح في دراسة وثقافته وأعماله وأنشطته ومساهماته ومواقفه وملامح شخصيته ،وبالتالي في إنتاجه الأدبي فيما بعد حيث سنرى أننا أمام أديب استمد أدبه من مكونات البيئة والعصر الذي عاشه . أما حدودنا في بيان حياة شاعرنا فهي الأرقام والسنوات ومنهجنا المعتمد هو المنهج الزمني المتتّبع لتلك الحياة مرحلة مرحلة ، وذلك كي يتسنى لنا الربط بين حياته وإنتاجه الأدبي ، ذلك الإنتاج الذي أفرز شخصية أدبية رائعة ، وذلك ما سنلقي الضوء علية من خلال مجموعات الثلاث بالفصحى محاولين دراسة ظاهرة البحر كواقع ، وفكر، وفن في الفصول التالية .

---

(5) يوسف الحمدان : ثقافة وفن ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (31 نوفمبر 1994) ص 9.

(1) محمد همام ، مثقف عربي ، يشكو من ظلم الأقربين ، م . س ، (31 مايو 1993) ، لا–ص .

مهنة الغوص

التمهيد :

يدور هذا الفصل حول مهنة الغوص كعنصر أساسي من عناصر البحر ، ويتألف من أربعة أقسام أساسية هي إجراءات رحلة الغوص ، وشخصيات الرحلة ، والمخاطر والأمراض التي تصيب الغّواصين والآثار المعنوية المترتبة على الرحلة .

وستنصّب الداسة في القسم الأول من الفصل وهو إجراءات رحلة الغوص على أربعة جوانب هي إحصاء ظاهرة البحر بما فيها من لفظه البحر ومكّوناته وصوره ومعانيه وذلك لاستخلاص أهمية البحر في دواوين الشاعر مقارنة بباقي الموضوعات البـــارزة وهي المرأة ، والنخلة ، والوطن ، ثم دراسة لحظة الاستعداد وتشمل التدريب على الغوص وإنزال السفن وصيانتها ،وأداء بعض الطقوس أثناء ذلك ، ثم إعداد لوازم الرحلة . وسنتناول توظيف الشاعر لهذه اللحظة . أما لحظة الوداع فتتمثل في مشهد الأهالي على الشاطئ والتقاليد المتّبعة أثناء لحظة الوداع ، ثم دراسة توظيف الشاعر لهذه اللحظة بما فيها من تهيئة نفسية ومادية ، ووصف لمشاعر الغّواص الشيخ عند الوداع .

أما الجانب الرابع وهو لحظة الإبحار فسوف نعالج فيه إبحار السفن وتحركّها من على الشاطئ ، ووصف الشاعر لمشاعر الغّواص ، وتوظيفه لجزء من أدوات البحر وهو معدات السفينة ، واستخلاص معنى الإبحار .

ويقوم القسم الثاني هذا الفصل على الحديث عن شخصيات الرحلة ، عددها ، ودورها على ظهر السفينة وفي أعماق البحر ، ثم بيان السياقات التي وظّف فيها الشاعر تلك الشخصيات وهي التبّاب ، والرضيف ، والغّواص ، والنوخذة ، والطّواش ، والنّهام .

وقد خّصصنا الجزء الثالث لرصد المخاطر والأمراض التي تصيب الغّواص في رحلة الغوص ، وهي مخاطر عامة وتتمثل في أخطار البيئة والكوارث ، ومخاطر الطعام ، وماء الشرب ، والإرهاق الجسمي والنفسي ، ثم سوف نتحدث عن مخاطر الغوص في البحر وهي الأسماك ، ومياه البحر ، وأمراض الغوص مثل الجهاز التنفسي والأذن ، والجلد ، والأملاح ، ثم دراسة المواطن التي وظف فيها الشاعر هذه الموضوعات محاولين قدر الإمكان الربط بين الدراسات التاريخية والسياقات الشعرية .

ويتناول الجزء الرابع آثار رحلة الغوص المعنوية بما فيها هموم الغّواص وهي الفقر والدين والغربة ، ثم هموم الأم زوجة الغّواص ، وتتمثل في معاناتها تجاه الزوج ، والمدينة المقفرة ، وهمومها تجاه الابن ، ومشاركة الابن الأم همومها وذلك من خلال استغلال الشاعر لهذه الجوانب الإنسانية والمعنوية .

وسنحاول في هذه الأقسام استعراض أدوات وعناصر البحر التي هي من مستلزمات الرحلة مثل والحبال والمجاديف ، محاولين إلقاء الضوء على مجتمع الغوص كواقع مستمد من البيئة المحيطة ، حيث انفرد الشاعر من بين شعراء البحرين بإعطاء الغـــوص ، وهو عنصر من عناصر البحر حجماً كبيراً في شعره حتى قصر عليه معظم ديوانه الأول [1] وعبّر في أعماله الشعرية عن واقـــع الحياة ومظاهر البيئة وهموم عمال البحر المشتغلين بصيد اللؤلؤ الطبيعي فربط بين الواقع والأدب مقدماً في بداية إنتاجه إضافة ثرية لأدب البحر.

---

[1] سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، عودة الله منيع القيسي ، دراسات في أدب البحرين ، ص 377 .

والمقصود بأدب البحر ذلك الأدب الذي يستهدف التعبير عن عالم البحر ، والذي يكون البحر موضوعه الرئيسي المؤثر في الأحداث والشخصيات ، وفي الرؤية الكلية للعمل الأدبي وهو أدب هام يشّكل جزءً أساسياً من تراث البشرية وحضارتها . فيضم أدب البحر الأسطورة والملحمة والشعر والحكاية الشعبية وأدب الرحلات البحرية والقصة والرواية ويجمع في نماذجه بين الشخصيات الأسطورية والواقعية ، بين الرؤية الرومانسية للطبيعة كمجال للهروب والاستسلام كما نجدها عند جان جاك روسو ، وبين الشخصيات البطولية ، التي هي جماع لكل عناصر القوة والذكاء والمغامرة في صراعها مع قوى البحر ، كما نجدها شخصيته " إيخاب " بطل رواية هرمان ملفل "موبي ديك " وفي شخصية " الطروسى " بطل رواية حنا مينه " الشراع والعاصفة " [1] و " سعيد حيزوم " بطل رواية حنامنية " حكاية بحّار " و "الشيخ والبحر " لـ " أرنست همنغواي" تلك القصة الخالدة التي تصّور النضال الإنساني ضد عوامل الطبيعة ، إنها سيمفونية انتصار القلب الكبير على اليأس والقنوط [2] .

ولا ننسى رواية " البحّار الذي لفظة البحر " لـ " يوكيو ميشيما " إنها حكاية البّحار البطل المغامر في البحرية التجارية ، والذي حاول أن يتخلّص من حياة البحر ويعمد إلى الاستقرار ،وحينها انتابه شعور بأن البحر قد لفظه كما قرر هو أن يلفظة ، إذ حاولت شلة من الصبيان اتخذته مثالاً لها في الحياة أن تتخلص [3] منه .

ولقد كان البحر مجالاً خصباً للتفسيرات الأدبية الأسطورية في أدب البحر ، من ملحمة الأوديسة لهومير وس والإلياذة لفرجيل ، وما حفلت به الملحمة الأولى من تصوير الصراع بين بطلها أو " أوديسيوس " وبين رمز البحر (نبتون) والمناظر الأسطورية للبحر ، وما قدمته الثانية من ملحمة بحرية عن العاصفة التي تعّرض لها أسطول إينياس في البحر حتى سقوط بالينورس بحراً فدءاً للأسطول الطروادي ، إلى حكايات السندباد البحري وقصص ألف ليلة وليلة البحرية ، وما تّضمنته من حكايات عرائس البحر وجنياته ، ومن تصوير أسطوري لعالم البحر إلى غير ذلك من الأنواع المختلفة التي أثرت أدب البحر على مر التاريخ وجمعت بين الأسطورية والواقعية ، مستهدفة اكتشاف الطبيعة البحرية وتفسيرها واستغلالها لصالح البشرية [4] .

هكذا قاد الأدب والفن صراع الإنسان ضد قوى الطبيعة من أجل استخدامها لصالح البشرية ، فكان سلاحاً إضافياً في الكفاح ضدها ، كما يقول " أرنست فيشر " في كتابه " ضرورة الفن " حيث يذكر أن ظهور رجال البحر أسهم في تطوير الشخصية لإنسانية وتّميزها بالبطولة والمغامرة والحرية لأن الحياة الخطرة فوق بحر شاسع مضطرب الأمواج والعواصف جعلت رجل البحر سيد مصيره " فهو مغامر اعتاد تعريض حياته للخطر المرة بعد المرة ، ليس في نفسه ولاء للأرض والمحافظة على نظمها التى تتغير في البدرّ والحصاد . وإنما ولاؤه للبحر المتغير المتقلب الذي لا يكف عن الحركة ، والذي يستطيع أن يهبط به إلى القاع أو يرفعه على قمة أمواجه إلى الذروة ..." [6] .

ويقول " ول ديوارنت " لم يكن الصيد والسِّماكة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادي ، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التي كتب لها أن تظل باقية في أعلى صور المجتمع المتحضر لقد كانا ذات يوم مركز الحياة وهما الآن بمثابة أساسيها الخبيئين ، إذ

---

(1) أحمد محمد عطية ، كلمات من جزائر اللؤلؤ ، ص 152 .

(2) أرنست همنغواي ، الشيخ والبحر ، خليفة الغلاف .

(3) يوكيو ميشيما ، البحّار الذي لفظة البحر ، ص 174 – 175 .

(4) أحمد محمدعطية ، م.س ، ص 154 .

(6) أحمد محمد عطية ، كلمات من جزائر اللؤلؤ ، ص 155 ، أنظر ضرورة الفن ، أرنست فيشر ، تر أسعد حليم ، ص 56-57 .

يكمن وراء أولئك الصيادين الأشداء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة ..." [1] .

ومن هنا تأتي الإضافة التي يقّدمها الشاعر إلى لوحة أدب البحر العالمي ، فهو يضيف إليها شخصيات جديدة في عالم الغوص على اللؤلؤ تجلب الثروات لغيرها ، ولكنها تعاني الفقر ، مستنداً إلى تراث البحر العظيم بدءً من معلقة طرفة بن العبد ، ابن البحرين وشاعرها وانتهاءً بأدب البحر العربي في صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ [2] ، وقد حاول الشاعر المزج بين الرؤية الاجتماعية والصور الواقعية لحياة البّحار في صور قصصيه اقتصر معظمها على الديوان الأول .

والسبب في اعتمادنا ذلك التصميم يعود إلى أهمية الربط بين عناصر مهنة الغوص من استعداد ووداع وإبحار ومخاطر وآثار معنوية ربطاً قائماً على الوصف والتحليل لهذه العناصر ، ومن ثم الربط بين ذلك الواقع وأعمال الشاعر الأدبية ، والتدليل على تطور التجربة الشعرية لديه من ديوان إلى آخر .

ولتوضيح ما سبق لجأنا إلى الأسئلة التالية : ما هي المواطن التي ورد فيها ذكر البحر، بألفاظه وعناصره وصوره ومعانيه ؟ وكيف وظّف الشاعر مفردات البحر لوصف مهنة الغوص وشخصياتها ؟ وعلام اتكأ في ذلك ؟ وهل ثمة تطور نلاحظه في بروز ظاهره البحر من ديوان إلى ديوان ؟ وما دلالة هذا الاختلاف بالنسبة لتطور تجربة الشاعر ؟ وما هو موقف الناس والشاعر من مهنة الغوص ؟ .

أما المنهج المعتمد في تأليف أقسام هذا الفصل فهو المنهج الوصفي التحليلي انطلاقاً من دواوين الشاعر والمقابلات الشفوية معه إلى جانب بعض المراجع الأدبية والتاريخية . وهدفنا من الدراسة هو إبراز أهمية ظاهرة البحر ، ومهنة الغوص في إثراء أدب البحر في أعمال الشاعر الأدبية ، وتحديد العلاقة بين الأدب والبيئة والأديب .

اولاً : إجراءات رحلة الغوص

رصد ظاهرة البحر :

تتمثل إجراءات رحلة الغوص في الاستعداد للرحلة ، والوداع والإبحار فالغوص ، و لعّل من المناسب قبل البدء بالحديث عن إجراءات رحلة الغوص في المجتمع ودواوين الشاعر ، دراسة المعجم البحري في أعمال الشاعر الأدبية بتحديد المواضع والسياقات المعّبرة عن عالم البحر الواسع بمكّوناته وصوره ومعانيه .

أما التحديد لظاهرة البحر فسوف يكون من خلال الرصد والإحصاء لما تّضمنته دواوين الشاعر من عالم البحر ومكّوناته ومن ثم استنتاج أهمية موضوع البحر في هذه الدواوين مقارنة بباقي الموضوعات البارزة وهي كما ورد النخلة ، والمرأة ، والوطن ، ثم

---

[1] أحمد محمد عطية ، م.س ، ص 155 ، أنظر قصة الحضارة ، تر، زكي نجيب محمود ، ص 14 .

[2] أحمد محمد عطية ، م.س ، ص 155 .

التركيز على مهنته الغوص كعنصر هام من عناصر البحر في هذا الفصل ، تمهيداً لدراسة ظاهرة وموضوع البحر في التعبير عـــن قضايا اجتماعية وطنية وذاتية في الفصل التالي :

والجداول التالية توضح لنا المواضع والسياقات والقصائد التي ورد فيها المعجم البحري في دواوين الشاعر .

أ – أنين الصواري

الموضوع	عدد المواضع	الصفـــــــــــــــــــحة	عدد القصائد
البحر	30	51-53-53-54-55-56-56-57-62-63-64- 00-72-86-33-127-143-145	12
صوره	18	25-27-28-29-30-44-46-85-26–26-28- 33-33-53-143-143-146	4
رحلة الغوص	3	25-34-51-57-59-65	3(كاملة)
شخصيات الغوص			
التّباب	2	30-53-54-55- (مقطع كامل ورد في قصيدة ، " أنـــين الصواري "	2
الرضّيف	1	33	1
الغّواص	4	30-32-54	2
النوخذة	5	30-31-31-32	2
النّهام	5	88-52-57-63-00	4
الطّواش	1	53	1
الصواري	4	29-99-51-56	3
المركب	3	40-79-33	1
المجداف	2	51-56	1
الشّراع	11	25-29-29-35-40-45-69-00-109-130- 133	0
السّن	3	36-110-143	3
الحبال	6	25-23-32-43-53-110	4
الأمواج	7	16-54-61-64-68-72-81-86	2
الأسماك	2	26-33	2
الملح	7	16-54-61-64-68-72-81-86	5
اللؤلؤ	5	14-31-32-99-54	4
الشاطئ	3	52-94-130	3

ب– البحر وعناصر في إضاءة لذاكرة الوطن

الموضوع	عدد المواضع	الصفحة	عدد القصائد
البحر	12	10-11-11-16-10-58-58-00-84-85-86-80	5
صوره	15	48-48-44-84-82-11-11-10-8-54-60-68-86-88-85	8
رحلة الغوص	–	–	–
شخصيات الغوص			
التّباب	–	–	–
الرضّيف	–	–	–
الغّواص	1	20	1
النوخذة	–	–	–
النّهام	1	80	1
الطّواش	–	–	–
الصواري	–	–	–
المركب	1	80	1
المجداف	–	–	–
الشّراع	–	–	–
السّن	–	–	–
الحبال	–	–	–
الأمواج	1	20	1
الأسماك	1	55	1
الملح	1	26	1
اللؤلؤ	1	54	1
الشاطئ	4	26-27-43-55-34	5

ج- البحر وعناصر ***في وداع السيدة الخضراء***

الموضوع	*عدد المواضع*	*الصفحة*	*عدد القصائد*
البحر	4	95-74-71-57	4
صوره	17	27-27-27-17-37-33-42-43-44-45-53- 122-111-33-75-71-53	10
رحلة الغوص	-	-	-
شخصيات الغوص	-	-	-
التّباب	-	-	-
الرضّيف	-	-	-
الغّواص	-	-	-
النوخذة	-	-	-
النّهام	-	-	-
الطوّاش	-	-	-
الصّواري	-	-	-
المركب والسفن	5	80-75-62-44-43	4
المجداف	-	-	-
الشراع	1	80	1
السن (المرساة)	-	-	-
الحبال	-	-	-
الأمواج	1	04	1
الأسماك	-	-	-
الملح	-	-	-
اللؤلؤ	1	80	1
الشاطئ	-	80-05-58-20	4

د. دراسة لموضوعات ذات صلة بالبحر .

ويوضح الجدول التالي أسماء القصائد التي تدور بصورة مباشرة أو غير مباشرة حول كل موضوع ذي صلة بالبحر ، وقد وجدنا أن المعاني تتمثل في تراجع القيم ، وإرهاق الفكر ، والموقف من الحب ، وأثر الاحتلال في الوطن ، إلى جانب الموضوع المباشر وهو مهنة الغوص ، ومخاطر البحر ، وشخصياته وأدواته .

الرقم	قصائد أنين الصواري	الصفحة	قصائد إضاءة لذاكرة الوطن	الصفحة	قصائد في وداع السيدة الخضراء	الصفحة
1	الجرح الكبير	22-14	1 حزن ليلى طفول	5-8-10-11	يعشب الورق	20
2	على أبواب الرحلة الأولى	84-25	2 آثار أقدام على الماء	10-16	الصوت الفارغ	88-80
8	صدى الأشواق	42-85	3 لغة الظمأ الأرجواني	20-26-82-84	النخل وأطراف النهر الناضب	42-88-48
4	زغب الطيور الجارحة	44-45-46-40-48	4 قادم في الزمن الآتي	44-48-48	–	–
			5 ذاكرة البلاد مضاءة		آن أن تهجع الخيل	44-58
5	أنين الصواري	51-50-	الحضور والغياب في	54-55-58	زهرة البرسيم	50-58
6	من أوال الشط أحكي	58-65	6 تضاريس جبل الدخان		7 سيدة القلب	62
0	بذر الأرض الواهمه	68-68-00	7 حتى أراك	60	8 في وداع السيدة الخضراء	01
		02	غداً يأتي	64-68	9 10 غياب	04-05
8	جمر الخمود	08	كان الفتى "سلطان"	00	الذي لا تقال	80
8	جرح في ضمير الليل	85-86	8 طائر الجزر الثلجية	08	11 12 قراءة اول النجوي	84-88-85
10	شمس المقاوز	88	هبوب النار على دم	80-86-84	13 تجوع الحُرّة	111
11			الورد 8	82-80-88	نهاوند	122
12	آثار جرح قديم	110-108	–	85-88	–	–
18	أمام جدار الصمت	127	10 –	–	–	–
14	إلى عينين صديقتين	130	–	–	–	–
15	زهرة في القلب	188	–	–	–	–
16	لن أهوى	143	–	–	–	–
17	خذيني	146	–	–	–	–

إن الإحصاءات السابقة تشير إلى أن معجم البحر قد ورد كما هو واضح في الجدول في ست عشرة قصيدة من إجمالي قصائد أنين الصواري التسع والعشرون ، بينما جاءت المفردات المعّبره عن عالم البحر في إضاءة لذاكرة الوطن

في إحدى عشرة قصيدة ، علماً بأن قصائد الديوان إحدى عشرة قصيدة أيضاً ، أما في وداع السيدة الخضـــراء فقـــد احتـــل البحر بألفاظه ومكّوناته اثنى عشرة قصيدة من مجموع قصائد الديوان الست والعشرون .

ولعّلنا نتبين من هذه الدراسة أهمية البحر في دواوين الشاعر مقارنه بباقي الموضوعات البارزة ، فحين إجراء المقارنة للسّجلات اللفظية سيتضح فيما بعد أن معجم البحر بألفاظه ودلالاته قد احتل نسبة 7, 41% ، أما النخلة فقد وردت في دواوين الشاعر بنسبة 26% في حين احتل موضوع المرأة نسبة 17 % وبلغت نسبة موضوع الوطن 5, 14% [1] .

إن المعجم البحري بألفاظه وعناصره هو الرصيد الضـــخم والوجـــه البـــارز مـــن وجـــوه الطبيعـــة في أعمـــال الشـــاعر وسوف ننطلق من البداية والواقع في هذا الفصل مركزين على مهنة الغوص وماله صله بها ، تلك المهنة التي تبـــدأ بـــإجراءات وطقوس متعارف عليها في مجتمع الغوص .

2- الاستعداد لرحلة الغوص :

إن الاستعداد لرحلة الغوص يشمل التدريب على الغوص ، وصيانة السفن وإنزالها ، وحمل مستلزمات الرحلة. وسنتتّبع توظيف الشاعر هذا الاستعداد في أنين الصواري من حيث التهيئة النفسية ، والإعداد المادي ، وتوظيف العادات والفلكلور الشـــعبي ، ذلك ما سنحاول التركيز عليه في هذا الجزء مستعينين بالدراسات والأبحاث المتخصصة في عالم البحر والغوص .

أ- التدريب على الغوص :

يبدأ الاستعداد لرحلة الغوص برحلات قريبة من ساحل البحر كما يقول صاحب التحفة النبهانية :-" إن أهل البحرين إذا أقبل فصل الربيع يُظهرون صغارهم إلى ساحل البحر في عمق ذراع فأكثر ليستلقطوا ما يجدونه من الصدف في كل يوم ويسّمون هذه الهيئة (المّجنى) فإن أبحروا وغابوا عن أهلهم بالسفن نحو يومين يسّمونها (العَزّاب) لعزوبهم عن البلدة أي بعدهم عنـــها فـــإن استعدوا بسفنهم وأبحروا بها على صفة الغوص وغابوا نحو إسبوعين يسمونها (خانجية) أي سفر يستلزم منهم النوم والمبيـــت فّيتخذون السفينة داراً (خاناً) للاستقرار فيها .

ب- صيانة السفن وإنزالها :

فإذا مضى شطر من برج الثور أي اقبل فصل الصيف تهيأ البّحار للغوص العام وخرجوا في اليوم الذي يعّينه لهم الحاكم [2] وقبل ابتداء موسم الغوص بحوالي شهر يتجه أصحاب سفن الغوص إلى العمل وأول ما يقومون به هو دفع السفن إلى البحر وذلك لأن سفن الغوص ترفع إلى الشاطئ وتترك لتجف بعد انتهاء موسم الغوص ويتم صيانتها وإصلاحها استعداداً للرحلة بعد ذلك .

ويشترك البّحارة في دفع السفن إلى البحر بمساعدة بعض الأهالي أحياناً ، وعلى نغمات صوت " النهّام " ودق الطبول والتصفيق ، تنـــزل السفينة إلى البحر ، وتنحر الذبائح في بيت النوخذة ويتوجه الجميع إلى بيته ليأكلوا الأرز واللحم ابتهاجاً [3] بهـــذه المناسبه .

---

(1) أنظر ، الفصل الرابع ، ص

(2) محمد بن خليفة بن حمد ، م.س ، ص 17 واللفظة مشتقة من الفارسية فالخان بمعنى دار المبيت .

(3) محمد بن خليفة بن حمد ، التحفه النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ، ص 17

وتبدأ أعمال صيانة السفينة في البحر ، وأول عمل يتم هو ملء جوف السفينة بماء البحر للتأكد من التحام ألواحها بعضها ببعض بعد ما تعرضّت للجفاف خلال بقائها على الشاطئ .

ثم يتّجه البّحارة ، لاسيما السّيوب لغسل وتنظيف السفينة والتأكد من سلامة ألواحها من إى خلل مستعينين بـــالقلاف ، إذا استلزم الأمر ، وهو من يشرف على تصميم وإعداد السفينة .

وبعد هذا الإجراءات يُطلى أعلى السفينة بطلاء زيتي ، ثم يُطلى أسفلها بخليط من " الكلس" لحماية السفينة من تسرب الماء [1] .

ج- ترديد الأهازيج :

في فترة الاستعداد للغوص قد تنـــزل إلى البحر سفن جديدة تم صنعها خلال فترة الشتاء ، ويحتُفل بذلك بجمع أجمـــل فتيـــات المدينة الصغيرات حيث تصفف شعورهن الطويله ، ويلبْسّن أحسن الثياب ويؤخذن إلى السفينة ، يؤدين رقصات وأغانٍ شعبية جميلة أثناء تسيير السفينة بالمجاديف ، وذلك تيمناً واستبشاراً بالفتيات في الحصول على لؤلؤ في مثل جمالهن [2]

د- حمل اللوازم :

يبدأ النوخذه والبحّارة بعد الاطمئنان على صيانة السفينة بجمل أدواتها الضرورية من أشرعة بجميع أنواعها وحبال ومجاديف ، ثم تُنصب الصواري واثناء ذلك ترتفع دقات الطبول أيضاً ويعلوا صوت النّهام مردداً أغاني الغوص الشجية [3].

وبعد ذلك تجهز الأطعمة الضرورية لفترة الغوص وأهمها الأرز والتمر والقهوة والسكر والشاي والسمن وغيرها ، وهي أطعمة يشترك فيها جميع البحّارة ويمولها النوخذه ، وقد يحضر بعض الغوّاصين زاداً خاصاً بهم يشتركون في تمويلة مع بعضهم البعض ، ويعد البحّارة ما يحتاجونه من ملابس تقيهم مخاطر الأسماك المفترسة وما يحتاجونه من ألبسه للنصف الأسفل مـــن أجســـامهم كالفوطة والإزار ، والقفازات التي يستخدمونها لحماية أصابعهم من أحجار الأعماق ويعدون الحبال ، و بعض العقاقير الطبيـــة الشعبية [4] .

هـــ -توظيف الشاعر الاستعداد للرحلة :

التهيئة النفسية :

وبإمكاننا أن نربط بين هذه المعلومات الواردة حول لحظة الاستعداد والمواطن والسياقات التي وظّف فيها الشاعر هذه اللحظة مبتدئاً بالتهيئة النفسية في قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى وسوف نرى أن الشاعر اتحد بشخصية الغوّاص وتقمّصها مصوراً البحر ورحلة الغوص بمخاطرها تصويراً يدل على المعايشة والخبرة بهذه الرحلة متخذاً من أسلوب القصة متكئاً لإيضاح جوانب

---

(1) عبد الله خليفة الشملان ، صناعة الغوص ، ص 17.

(2) عبد الله خليفة الشملان ، م.ن ، ص 7

(3) عبد الله خليفة الشملان ، م . ن ، ص 19.

(4) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت ، لـــ1 / 350-355 ، عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص 19 .

الاستعداد ، فأشار إلى أثارها التي ستتضح فيما بعد بحوار بين ابن البحّار الذي ابتلع البحر أباه ، وبين صديق الأب الذي يحاور الابن محاولاً التخفيف من مأساته فالمهمة التي استلمها وهي دور الأب مهمة شاقة .

ولعل عنصر التشويق والإثارة والتمهيد لمخاطر الرحلة كان دافعاً إلى البدء بالتهيئة النفسية ، ويبدو عنصر التشويق من خلال الحوار بين شخصين ، أما جانب التأثير فيه فهو يبدو من خلال الإشارة إلى الأحداث المؤلمة ومنها هلاك الأب ومحاولة التخفيف عن الابن :

يا بُنّيَ الموتُ حقٌ والزَوالْ
نازِلٌ بالكُلِ إنْ شاءَ الإلهْ [1]

إن آثار المجتمع الشرقي تبدو هنا من خلال الإيمان بالقضاء والقدر حيث يوحي النداء بحرف " اليا " الممتد بالاستسلام للقدر دون فزع . وفي ذلك ملاءمة للموقف الذي يتطلب التهوين للأمور لا التهويل والحدة .

والنصائح التي يوجهها الصديق للغوّاص الصغير في هذا السياق كي يتعلم من خبرات الغّواصين كثيره ، وقد جاءت النصائح على شكل جُمل فعليه ، وتقريرية و إخبارية ، وقد أعان على الربط بين أجزاء هذا المقطع وجُمله حرف العطف " الواو " وحرف الجر "في " الذي حدد المكان :

هذه دُنيانا، وحالُ البحر
مِنْ قَعر الدُّهورْ
لا يني دوماً يثور
يقصِفُ الأعمارَ .. بقَسو ، والنوالْ
من عطاءِ الخيرِ في أرضي وفيرْ

وفي تكرار حرف النداء " اليا " في المقطع الأول :

يا بُنّيَ الموتُ حقٌ
يَا لَهُ ديانُناَ ...
...
يا صغيري
...
ياصغيري ، لا تَبُالِ
...
يا شِرَاعاً ... [2]

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 25 .

[2] علي خليفة ، أنين الصواري ، 25-29 .

إن في ذلك التكرار تأكيداً على عمق المعاناة ومتاعب رحلة الغوص وما قد يواجهه الغّواص . وإذا عدنا إلى نهاية هذا المقطع نجد أنه ينتهي نهاية حلزونية مكملة لبداية المشهد الذي أدخلنا إلى عالم من البؤس ، إذ يختتم الشاعر المقطع الأول على لسان صديق الأب قائلاً:

يَرْحمُ اللهُ أبَاْك
كانَ لي نَعْم الصديقْ [1]

ولا نزال في المقطع الثاني من قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " نسمع الصديق يسدي النصح إلى الغّواص الصغير فيشير إلى ألاخلاص من مهنة الغوص ،وذلك في عبارات محكمة ، ومما عمل على تقوية الصلة بين أجزائها تكرار حرف النفي " لا" ، لقد أبان الشاعر على لسان الصديق بأن مهنة الغوص أمر حتمي يفرض على الأباء والأبناء في مجتمع الغوص ، إنه قانون الغوص المُجحف الذي يقّيد الغّواص وأبناءه به فلا مفر لهم من هذه الرحلة الشاقة :

يا صغيري ،
واقعُ الحالْ ... كيفَ الخلاصْ؟
لا فَكاكْ
لا مَناصْ [2]

توظيف التراث :

ثم ينطلق الشاعر بعد التهيئة النفسية من واقع مجتمع الغوص موظفاً الطقوس والعادات ومنها ترديد الأهازيج والمواويل أثناء دفع السفينة إلى البحر .

إن الشاعر يسمعنا في هذا الجزء " صرخة اليامال " ويشعرنا بالحزن " اللحن الحزين " (وجوع البحّارة) و(الآمهم) ويرعيا في الإصرار المتمثل في ركب المحال والذي يعلو دقات (الطبول) .

واهتّزتِ الأوتارُ في سمع الدُّهورْ
لصرخةِ اليامال [3] في اللحَنِ الحزينْ
إنِّي سمعتُ الجوع والآلامَ في إصرارِها
يعلو الطُّبولْ . [4]

---

[1] على خليفة ، م. ن ، ص 27 .

[2] علي خليفة ، م.ن ، 27 .

[3] اليامال : نداء يكرره النّهام في معظم أغاني الغوص ، علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 68 .

[4] علي خليفة ، م.ن ، ص 68 .

الإعداد المادي :

ثم ينتقل بنا الشاعر إلى مشهد من مشاهد الاستعداد للرحلة في بيت الغّواص والذي نرى فيه الغّواص يجمع حاجاته استعداداً للرحيل وحوله أبناؤه الذين يحسّون بما يكابده هذه اللحظة وقد أجاد الشاعر في وصف هذا المنظر في قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " وكان وصفه مطابقاً لما ذكرته الدراسات والأبحاث حول الاستعداد للرحلة :

ياصغيري ، لا تُبالي
ودِّعْ الأهل وخُذْ بعضَ الحِبالْ
وإزاراتٍ وأشواقاً إلى بعض المنالِ [1]

ويتكرر مشهد الاستعداد لرحلة الغوص في قصيدة " من أوال الشط أحكي " حيث يتكئ الشاعر في بداية المقطع على البعد الإنساني مستبطناً مشاعر الغّواص وانفعالاته من توتر ومخاوف تعتريه حين الاستعداد للرحلة ، والغّواص هنا إنسان جّرب رحلة الغوص ومخاطر البحر والغربة ، فكأنه يعيش المعاناة وإن كان على الأرض وبين أهلة ، إنها غربة دائمة ومستمرة ذلك لأنها متوقعة بين الحين والحين :

بَعدَ لَيْلٍ مَنْ لُهَاثِ الفقْرِ والحمُىّ طويلْ
عشْتُه أطوي حِبالي
مُسْتَعداً للْرَحيلْ
بعْدَ قُفاَل[2] حَزينْ
وأُهِدي طارقاتِ الهمّ في صدِري الثقيلْ
بَعْدَ حَزْمِ الخيشِ في جُزْءِ حَصِيْر [3]

إن البعد الإنساني النفسي يُلحظ من خلال القول : (من لُهاث الفقر والحُمىّ الطويل) و(الهم في صدري الثقيل) مّما يوحي بكأبة حال الغّواص ين النفسية ، فالغّواص يُقّدر المخاطر المنتظرة ، ويُعد ما يحتاجه للرحلة في عرض البحر لا شوقاً إليها إنّما لأنها شيء فُرض عليه ليكسب قوته وقوت أسرته من بين مخالب الموت ، من ظلمات البحر ، أما ما يحتاجه في تلك الرحلة إضافة إلى ما ذكر فهي قطع من خيش وحصير للنوم والجلوس ، وهنا يتكئ الشاعر على التراث والفلكلور في بناء معمار قصيدته الفني حينما يستعرض أسماء بعض المواد التي تستخدم للنوم أو الجلوس آنذاك لاسيما في المجتمع الفقير وهي الخيش الذي يلف فيه الحصير وقد جاء كناية عن بساطة الحياة وصعوبتها في مجتمع الغّوص وعلى ظهر السفينة .

وخلال لحظات الاستعداد تلك وفي هذا الجزء من المقطع الأول تمتزج لحظات الاستعداد بانفعال التوتر والقلق ومعاناة الغّواص لما يعانيه أبناؤه وهذه المعاناة تحمل في طياتها الاتجاه الاجتماعي الصادر عن وعي لجشع الإنسان الذي يستغل أخاه الإنسان وبؤسه

---

(1) علي خليفة ، م.ن ، ص 23 .

(2) القُفال : الاستعداد للعودة إلى الأرض ، وهي لفظة عربية مشتقة من القفول العودة ، سيف مرزوق الشملان ، م . س ، 1/ 263 .

(3) علي خليفة ، م.، س ، ص 59.

فيعطيه القليل ويأخذ الكثير ؛ إنها حياة البؤس والشقاء والحرمان إذ يعيش الغّواص وعائلته الكفاف فيحاول ابنه الفرار من المعاناة بالعمل للتخفيف عن أسرته في مشهد صادق يحكي قصته حينما جاء راجياً أباه أن يأخذه معه إلى البحر وكأنه وعي قبل الأوان الخشونه التي يعيشها أهله فأراد أن إلى العمل المجهد مّما يبعث على الحزن من جانب الأب والطفل الذي بدأ يعاني مبكراً .

ولا ينسى الشاعر في هذا المقطع عناصر التراث من خرزات وتمائم تلبس منعاً للحسد ، حيث كان يضعها الأهالي على صدور أبنائهم ، اعتقاداً بأن تعليقها يدفع المرض .

إن الشاعر في معرض وصف الاستعداد لرحلة الغوص يتقّصى ما حوله من جزئيات فيصف نحول جسم الابن وضعفه وابتسامته ، كما يصف حوش البيت وما به من حيوانات أليفة كالحمام ، ولا ينسى أن يشير إلى قسوة العيش على وجه الطفل والخرزات التي يعلّقها على صدره وما يرتديه من ثياب قديمة ، إن كل شيئ في مشهد الاستعداد يوحي بالإحساس بالإنكسار والذل بدءاً من الخرزات المتدلية وانتهاءً بنصف الإزار القديم .

جاءني إبني الصغيرْ
ناحلَ الجسمِ هزيلْ
بابتسامهْ
رفرفتْ في القلب حنياً كالهديلْ
ثم حَطَّتْ خلفَ (ميدانِ) [1] حمامهْ
عِاريَ الرأسِ بوجهٍ
لوَّحَتهُ الشمسُ في شطٍ قريبْ
فاعتَرتْ وجهَ الطفولهْ
قسوةُ العيش وآثارُ الظلامْ
فعلى الجفن اليسارْ
أثــرُ بَاقً لجرحٍ لا يطيبْ
وعلى الصدر تدلّت في انكسارْ
خَرَزاتٌ وتمائمْ
لا تّقاءِ العين دفعاً للسَّقامْ
جاءني يجري وفي العين مرارْ
وبقايا من نُعاسْ
لا بساً نصفَ إزارْ
مِنْ إزارتي القديمهْ
قالَ والصبُر على وجهي نداءٌات كليمهْ
إنني أحسنُ عنترْ

[1] الميدان : صندوق خشبي بسيط يهيؤه الأهالي ليضع فيه الحمام عشه .

أفلا تأخذني للبحر مّرهْ
أتصبّرْ [1]

هكذا وظّف علي خليفة بعضاً من الصور الاجتماعية في بيان الاستعداد لرحلة الغوص مستعيناً بالإيقاع الخفيف الذي نجـــده في التناغم ما بين (الانكسار – والسقام – ونعاس – وإزار) إذ تتقابل هذه الكلمات بامتداد الألف وسكون الحرف في نهاية كـــل سطر شعري ، ثم ينتهي المقطع نهاية طبيعية هي امتداد لما قبلها وتتمثل في رغبة الطفل في العمل والإصرار على تلك الرغبة ن ّمما يوحي بثقته وقدرته على تحمل المسئولية .

لقد نسج الشاعر من مفردات عالم البحر والغوص أبيات قصائده مستغلاً عناصر البحر من مجاديف وصواري، وحبال ، معـــبراً عن مشاق الرحلة من خلال أغاني النهام . حيث بدت الرحلة ومعاناتها المزدوجة في عالم البحر العنيف ومأساة الفقر والجوع . والجدول التالي يوضح لنا المواطن التي استغل فيها الشاعر معاني الاستعداد لرحلة الغوص .

الرقم	القصيدة أنين الصواري	الصفحة	الموضوع
1	" على أبواب الرحلة الأولى "	25-34 القصيدة كاملة	التهيئة النفسية التهيئة المادية تقديم النصائح
2	" صدى الأشواق "	88	الإشارة إلى أغاني النّهام
3	"أنين الصواري "	51-52	الإشارة إلى بعض أدوات الرحلة مثل المجاديف والصواري
4	" من أوال الشط أحكي "	59 64	إعداد لوازم الغوص التهيئة النفسية الإشارة إلى أغنيات النّهام
5	" بذر الأرض الواهبة "	68	الإشارة إلى أغاني الغوص

لحظة الوداع :

أ: الوقوف على الشاطئ .

بعد أن تأخذ السفينة كامل استعدادها للرحيل يتجمع أهالي البحّارة على الشاطئ من رجال ومسنين وسيدات وفتيات وأطفال لتوديع البحّارة بالدعاء لهم بالتوفيق تارة وبالبكاء تارة أخرى ، يودّعونهم ويودّو ألا يرحلوا عنهم .

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 59-61 .

ويسدي الأباء والأمهات حينها النصائح إلى الغّواصين لاسيما المبتدئين ويوصونهم بالحذر من مخاطر البحر .

وغالباً ما كانت تقدم النصائح في البيت ، وقد يذهب البعض إلى النوخذه لتوصيته بأقاربهم وفي أقوال المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان ما يدعم ذلك فغالباً ما كانت الأمهات يذهبّن إلى بيت النوخذه قبل الإبحار يوصينه بأبنائهن خيراً ، ومثال على ذلك الشاعرة الكويتية (موضي العبيدي) [1] التي أشارت في قصيدة شعبية لها إلى ذهابها إلى بيت النوخذة توصيه بابنها قبل السفر للغوص [2] .

ب- ترديد الأهازيج .

جرت العادة في الماضي أن يحضر حاكم البلاد إلى الشاطئ المزدحم بالمودّعين للمشاركة في توديع الرجال ولإعطاء الإشارة لهم بالتحرك وهنا يرتفع صوت صاحب السفينة آمراً بالإبحار فيندفع البحّارة لإعداد الشراع ويرتفع صوت " النّهام " مردداً " يامالي يا سلام " . ويرد عليه البحّارة " هيلى يُوه .. هيلي يوه .. " ويأمر النوخذه برفع المرساة فترتفع في يد البحّارة الأشداء يحمسّهم صوت " النّهام " [3] .

ثم يصبح النوخذة " سيه .. سيه " وهذا أمر برفع الشرّاع فّيرد البحّارة وهم ينفذون ذلك الأمر " الحي منا يا دار يجيك .. الحي منا يادار يجيك " حتى يصل الشراع إلى أعلى الصارية ، بينما لا يزال الأهالي ملّوحين بأيديهم لتوديع البحّارة [4] ، وتمتزج مواويل النهام الجميلة بأصوات المودّعين من الأهالي والبحّارة الذين يشاركون النّهام بالرد عليه تارة وبالتصفيق المنتظم تارة أخرى وتختلط هنا لحظة الوداع بالإبحار إذ تنطلق السفينة في خضم البحر الواسع طلباً للرزق ، ولا يزال مشهد الوداع من الأهالي متواصلاً حتى تتواري السفينة عن شواطئ المدينة .

ج- توظيف الشاعر للحظة الوداع .

إن لحظة الوداع كما رأينا تعد من أصعب اللحظات في رحلة الغوص ، ذلك لأنها ذات أثر عميق في كلٍ من الأهالي والغّواصين ، ولأهميتها رصدها الشاعر مبيناً أثرها في النفوس .

عِنْد ما تهوي المجاديفُ على الأمواجِ
في عُنْفِ طليقْ
يَعتلِي شُمَّ صوارينا [5] شِراعْ [6]

تقديم النصائح :

إن مواجهة البحر وتحمل مشاقه وأهواله يبدأ منذ لحظة الوداع وهي المحك الذي يمتحن فيه الغّواص الصغير وعليها سيتوقف مستقبله في رحلة الغوص ، فقدارته على المواجهة والثبات تقاس منذ لحظة الوداع ، ونجد في المقطع الثاني من قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " جزءاً يتضّمن التهيئة النفسية للحظة الوداع ويبدو من خلال النصح الموجّه لابن الصديق " بالكف عن البكاء " وقد استخدم الشاعر " لا الناهية " لبيان غرصه وهو منع ابن الصديق من البكاء ، وهنا تبدو المقابلة بين موقفين موقف

---

(1) سيأتي الحديث عن هذه الشاعر .

(2) سيف مرزوق الشملان ، م.س، ، 1/ 446 .

(3) عبد الله خليفة الشملان ، م . س ، ص 33 .

(4) عبد الله خليفة الشملان ، م.ن ، ص 33 .

(5) الصواري ، مفردها الصارية ، وهي العمود الذي ينصب وسط السفينة ويعلق عليه الشراع .

(6) علي خليفة ، م.س ، ص 29- 30 .

من يبالغ في إظهار عواطفه وهو الجانب السلبي الذي يرفضه صديق الأب المتحدث إلى الابن ، والموقف الإيجابي وهو المماثلة للبّحارة الأشداء في شجاعتهم وبأسهم لاسيما عند حدوث المخاطر ، وقد جاء ذلك من خلال فعل الأمر (كن) وأداة التشبيه (الكاف) والحرف الدال على الظرفية (في) ثم الربط بين أجزاء الجملة في السطر الأخير وهي جملة مكملة بالحرف (من) وقد بدت لنا من خلال ذلك صورة البحر وهو أنه جبار وثائر وتلك الصورة تستخلص من خلال النصائح (كن كما كانوا اساطين البحار) وما ذلك إلا لقوة الخصم وهو البحر :

لاتُجاري...
منَطِقَ الباكين في توديعِ غالِ
كُنْ كما كانوا أساطينِ البحارْ
في خُشوع اللحظةِ السوداءِ
مِنْ يومِ الفراقِ [1]

إن تكرار فعلي الكون (كن – وكانوا) يؤكد رغبة صديق الأب في حثّ البحّار الصغير على مواجهة لحظة الوداع بصلابة ، وفي تتابع جُمل (النهي ثم الأمر) ما يلائم طبيعة الموقف وهو أثر لحظة الوداع على شاطئ البحر، ومخاطره ... فلحظة الوداع تمّثل جزءاً من محنة ، الغّواص حيث الغربة ، وما يكتنفها من هموم .

وتبدو في هذه اللحظة مأساة الغّواص منذ أن كان (تباباً) [2] صغيراً ، ويلحظ ذلك في قصيدة " أنين الصواري " وذكريات الغّواص للسنوات الأولى من بدء حياته العملية ، حيث تقف عائلته من أب وأم وأخوة وهم يودعون ابنهم الصغير الذي غادرهم إلى الغوص وفقاً لتقاليد مجتمع الغوص الذي يفرض على الأبناء أن يحّلو محل آبائهم إذا ما عجزوا ، وهذا التوديع يبدأ من البيت ثم الوقوف أمام الشاطئ .

كَمْ بكى قَلبْي مِنَ الخوفِ غريرا
حينَ رُدْتُ البحَر تباباً صغيرا
شيّعتني الأمُ بالدمع وَأوصّتني كثيرا
وأبي يرجو مِنَ اللهِ بأَنْ أغدو كبيرا [3]

إن الشاعر هنا أسقط إحساسه بعذابات الطفل الصغير فصّور (قلبه) بالإنسان الذي يبكي ، وأشعرنا معاناة الطفل الصغير ، والمخاوف التي كانت تراوده في بدء حياته ؛ إن بكاء القلب يوحي بمحاولة الثبات والتظاهر بالجلد، وهو دليل على أن مصدر المعاناة هو أعماق النفس وما ذلك إلا لحال الغّواص المزُرية وظروفه القاسية ، وفي تقابل الصفتين (القلب الغرير) و (الصغير) تناغم وانسجام يؤكد ذلك .

---

(1) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 53 .

(2) التباب ، أنظر ص ، هنا ربط الشاعر بين حفظ القرآن الكريم " و الذهاب إلى البحر وهو مجال العمل آنذاك ، اعتماداً على أن من حفظ القرآن الكريم قد كبر وأصبح لديه الاستعداد للعمل

(3) علي خليفة ، م.س ، ص 53 .

هكذا أشار الشاعر إلي البعد الإنساني من خلال توظيف لحظة الوداع عند الإبحار ، أما البعد الاجتماعي المتبع في مجتمع الغوص آنذاك فيبدو في من خلال تدريب الأسر لأبنائها على حرفة الغوص على اللؤلؤ وقد أبدع علي خليفة في توظيفه ذلك بإحكام وترابط ودون تكلف ومن خلال المضمون الذي ألمح فيه إلى ذلك الجانب الاجتماعي معبراً عن أثر لحظات الوداع في الأهل .

أهازيج الوداع :

أما أهازيج الوداع التي اشرنا إليها في معرض الوصف العام للحظات الوداع فتبدو في أبيات من قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " في قول الشاعر متمثلاً إحساس الغوّاص الشيخ الذي لفظة البحر .

ينتشي الكلُّ كمن تاهَ عن الدُّنيا وضاعْ
يتغَّنوْنَ بألحانِ الوداعْ
فيفيءُ الهمُّ مَا في الجوفِ حتى يستريحْ
في مواويل الأسى
وانتكاساتِ الِّصراعْ [1]

إن هذا المقطع من القصيدة يصّور حال الإنسان الذي يكبر على آلامه وأحزانه ليتغلب عليها في هذه اللحظة القاسية من خلال الأهازيج التي يطلقها النّهام والبحّارة ، إنه الغّواص العجوز المرمي عند الشاطئ يودّع البحّارة هو وباقي الأهالي .

إن الأهازيج التي يطلقها النَّهام لها أثرها في الأهالي المودّعين لاسيما الغّواص الشيخ ، حيث تُمثل رحلة الغوص لديه الشباب والقوه والكفاح من أجل لقمة العيش ، ثم أصبحت هذه اللحظة محكاً تختبر به قوة إرادته وعزيمته وصلابته على تحمل الموقف الأليم .

وقد اتكأ الشاعر على التراث المتمثل في مزاولة بعض الطقوس . عند وداع البحّارة ، وهي أن الأهالي يقفون على الشاطئ في صفوف يموج فيها بعضهم ببعض ملوحيّن بالأيادي ومردديّن عبارات الدعاء للغّواصين بالعودة سالمين ، وبالتوفيق في كسب القوت . إن هذه العبارات تختلط بأناشيد الغوص التي يردّدها النّهام والبحّارة ، كما يختلط التلويح أثناءها بالتصفيق انتشاءً وانفعالاً بأغاني الوداع التي تتردّد فيها ألفاظ معنية مثل " الهولو " و"الياميال" ، . وفي مواويل الوداع والأهازيج التي يبدأ بها البحّارة رحلتهم ويرددّونها أثناء الرحلة تفريغاً لشحنات دفينة من الحزن والأسى ينقلها الشاعر معبراً عن الواقع الأليم الذي يعانيه البحّار وينعكس في مواويله [2] :

واهتّزت الأوتارُ في سمع الدُّهورْ
لصرخة الـ (ياميال) [3] في اللحنِ الحزينْ [4]

ويصّور الشاعر من خلال أهازيج النّهام والبّحارة لحظة الوداع موقف الغّواص العجوز ، وما كابده من مشاعر وأحزان يوم أن ودّع الرّجال على الشاطئ ، لقد ربط الحزن أطراف المشهد بإحكام فعّبر عن أسى الغّواص والآلام التي اختنق بها صدره ، و لم

---

(1) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 29-30 .

(2) هيا محمد عبد العزيز الدرهو ، صورة البحر في الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج ، ص 57 .

(3) الياميال : أنظر، ص

(4) علي خليفة ، م.س ، ص 68 .

لا ؟ وقد أصبح عاجزاً عن مواصلة الصراع مع الرفاق . إن الشاعر في هذا المشهد اسمعنا صوت النّهام وأنين الصواري وقد اتحدا ليشاركا الشيخ همومه في مقطع من قصيدة " أنين الصواري ":-

ثُم لوحتُ ، وَغَّشتني الدموعْ
بينما تلك الصّواري في أنينْ
هي والنّهام في لحنٍ حزينٍ
لا يُطاقْ [1]

إن البيئة هنا مجالاً لإبداع الشاعر كواحدٍ من الشعراء الواقعيين الذين ذاقوا مرارة العيش [2] ، حيث نقلنا إلى مشهد يموج بحركة الموّدعين وأهازيج الوداع المعّبرة عن الحيرة والشرود ، و الخوف من الغربة وسط المجهول بعد ألم الفراق ، فألحان الوداع والغناء هنا ليست تعبيراً عن الفرح والأنس قدر ما هي معاناة داخلية يشارك فيها كل من الأهالي والغّواصين لتفريغ المشاعر التي تعتمل في نفوسهم ، وما ألحان الوداع إلا سيمفونية تفيض دموعاً وحزناً وحسرة على الفراق الموعود . إنه لحن أوتاره شغاف القلوب المكلومة إنه لحن الأسى الذي تقيئ به النفوس وتسرى عنها .

وإذ كانت الأهازيج تثير مشاعر الأسى والحزن ، فإنها تثير أيضاً حماس ومشاعر البحّارة حيناً آخر ، وذلك بصوت النهّام الذي يخفّف عنهم هذه اللحظة بمواويله التي تتضمن معاني الثبات والشدة .

زَرَعَ الموّالَ في خِصبِ الرِّجالْ
زَرَعَ الموَّال في قلب الرِّمالْ
وعلى الأسْيافِ[4] مِنْ مِلْحِ البحارْ
عاشَ موالٌ حبيبْ [5]

إن لحظة الفراق والوداع على شاطئ البحر التي أحس بها الشاعر وعبّر عنها بصدق من خلال معايشته لهموم الغّواص سواء كان ذلك من محيط الأسرة أو البيئة المحلية تعد لحظة شاملة ، وما ذلك إلا لأن الغّواص سيِّودع الأرض بمن عليها من أهل وأقـــارب ونخيل وشجر ورواب أي الوطن الذي تحّدد ، وظهر بوضوح في قوله ناصحاً البحّار الصغير بالثبات والجّلد والتحلي بما تحلى به الآباء والأجداد :-

في وداعِ النخيل الباسِقاتْ
وفي رُبى البحرين ... في صَمْتِ العناقْ ... [6]

---

(1) علي خليفة ، م . ن ، ص 68 .

(2) علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 461.

(4) السِّيف : شاطئ البحر باللهجة البحرينية ، وهي كما يرى سيف مرزوق الشملان لفظة عربية فصيحة ذكرها العرب في أشعارهم ، م . س ، 1/ 252 .

(5) علي خليفة ، م.س ، 64.

(6) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 29 .

وهكذا يختتم الشاعر المقطع الثاني من القصيدة بنهاية دائرية مغلقة جاءت امتداداً للبداية حيث بدأ الشاعر في الجزء الأول من المقطع موضحاً أن مهنة الغوص على اللؤلؤ في البحر مهنة لا خلاص ولا مفر منها ثم انتهى إلى حيث أن لحظة الوداع عند ارتياد البحر والأسباب التي حملت الغّواص على الغربة أيضاً لا مفر منها ، والغربة هنا شاملة تتضمن الوطن ككل الذي يبرز بوضوح من خلال تكرار حرف الجر (في) في السطرين السابقين ثلاث مرات، مّما يؤكد أهمية ما يودعه البّحار ، وأثر اللحظة ووقعها عليه في الصميم .

ولقد تقصىّ الشاعر لحظة الوداع فطالعنا من خلال المخزون البحري ليثري القصيدة المأخوذة من عالم البحر ومفرداته قاموسه اللغوي والشعري والبحري فطالعنا المحاديف والأمواج والصواري وسمعنا اليامال والمواويل الباكيه . والجدول التالي يوضح القصائد والسياقات التي ورد فيها توظيف الشاعر للحظة الوداع .

القصيدة	***الصفحة***	***الموضوع***
أنين الصواري		
على أبواب الرحلة الأولي	29-27	الحث على الثبات عند الوداع
	28	دعوة إلى توديع الأهل وحث على الشجاعة
	29	وصف السفينة والشراع لحظة الوداع
	30-29	الإشارة إلى الأهازيج
	33-32-30	الاستمرار في تقديم النصائح
أنين الصواري	56-52	الإشارة إلى الأهازيج التي تردد لحظة الوداع
	53	مشاعر التّباب الصغير عند وداع الأم والأب
	51	وصف الصّواري ساعة الوداع
من أوال الشط أحكي	64-63	الإشارة إلى المّواويل التي تردد عند الشاطئ
بذر الأرض الواهبه	68	لحظة الوداع الإشارة إلى أغاني وأناشيد الوداع

إن لحظة الوداع تعني الإيذان بالرحيل فالإبحار والفراق والشقاء والغربة .

4- لحظة الإبحار

أ- الـــرّكْـــبة

يقول صاحب التحفة النبهانية في وصف الإبحار " إن أهل البحرين يعبّرون عن ابتداء الغوص بيوم (الـــرَّكْبة) كما يطلقـــون على انتهائه بـــ (القُفال) أو (القُفول) فإذا مضى برج من فصل الربيع يخرج البحّارة في سفنهم إلى البحر كل سفينة بحسب

ما تحتاجه من الغّواصين تحت رئاسة (النوخذة) وتخرج جميع السفن إلى البحر في مواضع مختلفة العمق ولها أسماء معروفة بينهم ، وهي تبعد عن البحر نحو (30) [1] ميلاً وعمق المغاصات يتراوح ما بين (100إلى 180 سم) .

وعند حلول موعد الإبحار يتّجه البّحارة إلى السفينة حاملين حاجياتهم الضرورية ، ثم يأمر النوخذة برفع المرساة والشراع وتتجه السفينة قاصدة مناطق الغوص بعد إجراءات الوداع الآنفة الذكر .

ويقوم ماسك دفة السفينة بضبط خط سيرها مسترشداً بتعليمات النوخذة عن المنطقة التي يرغب في التوجّه إليها ، معتمداً على البوصلة البحرية المثّبتة أمامة ، والتي لا يرفع نظره عنها متخذاً خط سير معين يوصله إلى المنطقة المطلوبة [2] وفي أثناء سير السفينة يرّدد النّهام الأهازيج الشعبية والمّواويل الجميلة بمشاركة البحّارة .

ويأخذ أغلب أصحاب السفن معهم خروفاً يذبح في اليوم الأول للإبحار فقط وتُعد عليه وجبة غذاء للبّحارة، وهي وجبة دسمة تعني الوداع للوجبات المعتادة ، إذ لا يقدم فترة الغوص للبحّارة إلا وجبة واحدة فقط في نهاية اليوم العملي المرهق [3] .

ب- مشاعر الغوّاص الشيخ .

إن لحظة الإبحار أوحت للشاعر بأن الصواري تئن ، إنها لاتئن من قوه العاصفة فالمجاديف حركتها طبيعية فهي حيناً تمضي في عنف وحيناً آخر تمضى في اتساق وانتظام ، وهي لا تئن من قدم التآكل فالسفينة قد أعدت وهيئت لرحلة الغوص ، إنما الآنين جاء مشاركة منها لمعاناة الشيخ ، فنحن أمام مشهد وصورة مؤثرة كلية عناصرها اللون في الصواري والبحر ، والحركة والأفعال في قول الشاعر على لسان الغّواص : (حين صاحت) و (لوحت) و(غشتني) والصوت الذي نسمعه في (أنين الصواري) و(لحن النّهام) الصادر في تناغم وانسجام مؤثرين ، ونجد من خلال ذلك التقابل ما بين الصواري التي صوتها أنين وما بين صوره النّهام ذي اللحن الحزين مّما نقل إلينا صوتاً مميزاً شجياً وجعلنا أمام صورة لإنسان يتالم ، إذاً فالصوت مصدره الغّواص الشيخ الذي خالطه الأنين الصادر عن الصواري وصوت النّهام بلسان الشاعر الذي تمّثل حالة هذا الشيخ وأسقطها على الصواري والنّهام . إن هذا التصوير الفني ، والتعبير الرائع يلّخص مأساة الغّواص الذي لفظه البحر حينما أصبح عاجزاً و لم يعد له من طاقة في ركوبه ، وأصبح الخيط الوحيد الذي يشّده إلى البحر هو خيط الذكريات ، وفي ذلك ما يوضح ارتباط الشاعر النفسي أيضاً بالمكان والزمان سواء أكان بحراً أم غيره فهو يميل إلى أن يعيش اللحظات السعيدة التي مضت ويتذكرها ويأسى على فقدانها .

وبذلك صور الشاعر في هذا الجزء لحظة صادقة من لحظات الإبحار بأبعادها الاجتماعية والإنسانية والتي تمثلها وعاشها من خلال ذكريات الآباء والأجداد ومن خلال أحاسيسه ذاته فالتقطتها الذاكرة ورصدها عبر تجاربه الشعرية : -

---

(1) محمد بن خليفة بن حمد ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ، ص 15 .

(2) عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص 33.

(3) سيف مرزوق الشملان ، م.س ، 1/ 352 .

هاهُمُ قدْ أبحروا ... كلُ الرفاقْ
شَّرعوا بالشَّوقِ في بدءِ اِنطلاقْ
والمجاديفُ مضتْ في البحرِ ...
عُنْفَاً واتِّساقْ
ينما تلكَ الصّواري في أنينْ
هي والنّهامُ في لحنٍ حزينِ
لايُطاقْ [1]

إن "أنين الصواري" هي القصيدة الرئيسية التي منحت الديوان عنوانها لهي عنوان على حياة الغّواص ، تلك الحياة المليئة بالكفاح وخوض صعاب الغوص وجبروت البحر حتى يصبح شيخاً عجوزاً لا يقوى على البحر ومخاطره فحينئذٍ يشعر هذا الشيخ بأنه مرفوض من البحر .

إن هذا القصيدة تعكس خبرات الشاعر بحياة الغوّاصين وتجار اللؤلؤ ، كما ظهر فيها تطور القصيدة من المباشرة والتقريرية واللهجة الخطابية إلى الصور المركبة من مفردات عالم البحر ، ولعل أبرزها المزج بين صواري السفن وأنين المعذبين .

ومن المقاطع الممتازة في تصوير لحظة الإبحار كما يرى الدكتور محمد جابر الأنصاري هذا المقطع من قصيدة " أنين الصواري " أيضاً :

وأنَا وَحْدي وأحزانُ المساءْ
واصْطِخابُ الموج في لغو النِساءْ
واْختِلاجَاتِ الوداعْ
وانسكابُ دمعةٍ عذراءَ من طفلٍ صغيرْ
يحتمي بالأم عيناهُ نداءْ
وسؤالٌ لجَّ في الأعماق ... مبحوُحُ الرَّجاءْ
يَا أبي ؟ كَيفَ اللقاءْ ؟ ؟
ربُمّا عزَّ اللقِاءْ . [2]

إننا هنا أمام صورة صوتية مزج فيها الشاعر بين ضجيج ولغو النساء حين الإبحار ، ومّما جسّد ملامح تلك الصورة (عين) الطفل الذي انسكبت منها صورة النداء ساعة الرحيل ، فأصبحت نداءً مجسداً تتمحور فيه مأساة البحّار والشاعر[3] الذي تمثل محنته وعبّر عنها شعراً ، فأضاف إليها في كل مرة جوانب إنسانية واجتماعية ، تبدو في قوانين الغوص المجحفة فبعد أن تخلى البحر عن الغّواص الشيخ فقد الأمل في العودة إليه ، فأصبحنا نراه في هذا المقطع وحيداً على الشاطئ جريحاً لحظة الإبحار ، إنه جرح الإنسان المطعون في كبريائه من جهة ، والمسلوب حقه في الحياة الآمنة من جهه أخرى .

---

(1) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 51-52 .

(2) علي خليفة ، م. ن ، ص 52 .

(3) مسامرات جاحظية ، فلهم معنى النقد ، في جريدة الأضواء ، البحرين ، 22 ديسمبر 1969) لا ـص

ومن الأبيات التي تعّبر عن أثر لحظة الإبحار في الغوّاص الشيخ قول الشاعر .

وَيْحَهُمْ قدْ أبحروا ، ويَح الشُّحونْ
ويَح مِا يجتاحُ أعماقى
ويطغى في جُنوُنْ
ويَح أيَّامٍ تغذَّتْ مِنْ عذابْ
ثُّم هدّتْ جسميَ العاجزَ البادي الغضونْ [1]

و لا نزال هذه اللحظة أمام منظر إبحار السفينة ومغادرتها شواطئ البلاد ، بعد أن تركت وراءها المودعّين من الأهل والأقارب ، وتركت الشيخ الغّواص في حزن نفسي ، وجسدي حيث تبدو عليه المتاعب الصحية .

وقد نجح الشاعر في إخراج هذا المقطع بشكل مؤثر حينما اتجه إلى الشعر الحر الذي يعتمد على التفعيلات وينوّعها ولا يلغي الوزن والإيقاع الموسيقي مقابل التعبير عن الفكرة المطلوبة .

ج- معدات السفينة :

لقد استعان الشاعر باستخدام أدوات تسيير السفينة في وصف لحظة الإبحار ، ففي قصيدة " على أبواب الرحلة الأولي " يقول :

عند ما تهوي المجاديفُ على الأمواجِ
في عنُفٍ طليقْ
يَعْتَلي شُمَّ صوارينا شِراعْ
يا شراعاً مِنْ خيوطِ الصبرِ
في صدري العليلْ [2]

إن هذا الجزء وما قبله وما سيليه يحكي أثر لحظة الإبحار في الغّواص وما ذلك إلا لشعوره بالغربة فالمجاديف التي (تهوي) تشعر بالسقوط والنكسة ، وحركتها العنيفة تدل على الاضطراب والتوتر الذي يشعر به الغّواص لحظة علو الشراع الصارية ، ويبدو ذلك التوتر في النداء الموجه إلى الشراع (يا شراعاً) إن النداء يظهر الحسرة وموضع الألم في النفس وقرينة ذلك أن صورة الشراع هي صورة النسج المصنوع من خيوط إلا أنها من الصبر وموضعها في الصدر الذي صفته أنه عليل ، إن الشراع في هذه الصورة هو شراع حقيقي في السطر الأول وشراع مجازي في السطر الثاني الذي يليه ، وهو يرمز إلى العلو والكبرياء والشدة في الموضع الأول ويرمز إلى المعاناة في الموضع الثاني وإن كان يوحي بالصلابة والبأس وقرينة ذلك في قوله : (خيوط الصبر) لذلك جاءت كلمة الشّراع في السياق معّبره عن امتداد المعاناة ومحنة الغواص وتأصلها في النفس فالشراع هنا رمز العلو والارتفاع عن الآلام .

ومن أقوال الشاعر في وصف منظر الإبحار موظفاً أدوات تسيير السفينة :

---

[1] علي خليفة ، م.س ، ص 51 .

[2] علي خليفة ، م . ن ، ص 29 .

حِينَ صاحَتْ بي الجُموعْ
وهي في إحكامِ ربطٍ للقِلوعْ
في أمانِ اللهِ لقُيانا قريبْ [1]

إنها معاني تشير إلى رفع المرساة والشراع إيذاناً بالرحيل وتسيير دفة السفينة ، كما تشير من جانب آخر إلى ما يعتري الغّـواص الشيخ من أحزان هذه اللحظة :-

ويعّبر الشاعر عن إحساس الغوّاص أيضاً ساعة الرحيل مستخدماً المجداف .

أَنِفَ المجدافُ عن كفي إباءْ
أبَداً ... يا بحرُ مالي من عزاءْ [2]

د- معني الإبحار :

إن للإبحار معنى عند الغوّاص والشاعر الذي اتحد به .

شرعةُ البحرِ تريدُ الأقوياء
وأنا جسميَ عَياءْ [3]

إن الإحساس بانتهاء مهنة الغوص هو المعنى المسيطر في قصيدة أنين الصواري وفي جميع مقاطعها فالمقطع السادس والأخير مـن هذه القصيدة يختتم بنهاية مغلقة وكأن لا سبيل في العودة إلى البحر ، ونسمع الغّواص الشيخ على الشاطئ يقول : (ثم لوحت وغشتني الدموع) إن الأمل في العودة إلى البحر ومهنة الغوص على اللؤلؤ قد بات ضعيفاً ، وذلك إيذاناً بنهاية عهـد وزمـان اللؤلؤ ، وتلك دورة الحياة إذ لا شي يبقى على حاله .

إن كل شيئ في هذا الجزء البسيط يوحي بالتلاشي فالجسم عياء وهو بادي الغضون ، إن لحظة الإبحار تعني عند الشيخ معـانٍ كثيرة تعني نهاية صراعه مع البحر ، واستلام آخر للدور ، تعني رحيل عهد وبداية عهد آخر جديد ، إنها تعني بدايـة الصـراع النفسي والمعاناة في حياة فراغ مملة يكتنفها العجز والألم ، إنها تعني الجرح الكبير في قلب هذا الإنسان المكافح الشريف .

هـ- تعريف الغوص .

أما بعد الإبحار فهو الذهاب إلى مغاصات اللؤلؤ حيث يشرع الغوّاصون في الغوص إلى أن ينتهي زمن الصيف فيرجعّون كلهم في يوم واحد يعنيه لهم الحاكم . ويكون الغوص في أعماق البحر على ظهر السفينة ، وبعد جمع اللؤلؤ ، وانتهاء موسمه يـأتي الغّواصون جميعاً إلى البلاد ويبيع النوخذة اللؤلؤ [4] .

---

(1) على خليفة ، أنين الصواري ن ص 56 .

(2) على خليفة ، م.ن ص 56 .

(3) على خليفة ، م.ن ، ص 56

(4) محمد بن خليفة بن حمد ، أنين الصواري ، ص 17-18 .

ويحدثنا المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان عن الغوص قائلاً : " إن العمل في الغوص على اللؤلؤ عمل شاق متعب جداً جداً ، فعندما تصل السفينة إلى أماكن الغوص وتسمي الهيرات والمفرد هير بكسر الهاء وتلقى المرساة يقول البحّارة بصوت واحد :-

نزلنا منـــزل وابركَ دار

على الهير والمحار

ثم يقَولون :

يا الله منـــزل مباركْ

وأنت خير المنـــزلينْ [1]

وتتراوح مدة العمل في الغوص ما بين اثنتي عشرة ساعة إلى أربع عشرة ساعة وتزيد إبان الصيف إلى حوالي ست عشرة ساعة . ولدى الغّواصين نظام للغّواص على حسب الوقت وهو إذا كان الماء بارداً فإن الغّواص يغوص ساعة ويستريح ساعتين ، وإذا مر شهر يغوص ساعة ويستريح ساعة .

وفي إبان الصيف يغوص الغّواص ساعة ويستريح نصف ساعة لأن الصيف طويل والبحر دافئ [2] ويستيقظ الغوّاصون مبكـــراً فيصّلون صلاة الصبح في وقتها ثم يتناولون الشاي والقهوة ويأكلون التمر ولا يأكل الغّواص إلا قليلاً جداً حتى لا يمتلئ بطنـــه فيصعب عليه الغوص في البحر .

وبعد طلوع الشمس يبدأ الغوص في البحر وجمع المحار (الصدف) ويظل الغّواصون يجمعون الصدف طيلة اليوم وينتقلون مـــن مكان إلى آخر ، بينما تكون السفينة راسية في (الهير) [3] .

وبعد غروب الشمس مباشرة يأمرهم النوخذة بقوله (اطووا حبالكم) أو يقول (هِلِلْ عليهم) عندئذٍ يقول الغّواصون (لاإله إلا الله) فيخرجون إلى ظهر السفينة وهم يقولون :

الغوص عادة

والصلاة إعبادة

ويقولون مَوّلَ مَول.

خير اللـــه على التالي والأول [4]

بعد ذلك يصلي الغوّاصون صلاة المغرب يتناولون العشاء ويتكون من الأرز والسمك المطبوخ مع المرق أحياناً أو المشوي علـــى النار، يخلدون إلى النوم والراحة . ويُفتح الصدف صباحاً بواسطة المفالق والسكاكين المعّدة لذلك من بعض الغّواصين ، بينمـــا يغوص الآخرون وذلك بالتناوب [5] .

---

(1) سيف مرزوق الشملان ، م . س ، 1/ 349 .

(2) سيف مرزوق الشملان ، م.ن ، 1/ 949- 350.

(3) سيف مرزوق الشملان ، م.ن ، 1/ 350

(4) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت ،1/ 355.

(5) الهير: أماكن مغاصات اللؤلؤ بكسر الهاء .

وبذلك نستخلص اهتمام الشاعر بلحظة الإبحار لما لها من أثر في الرحلة مع تركيزه على مشاعر الغوّاص الشيخ ، ووصف رحيل السفن ، والإشارة إلى معدات السفينة من شراع وصارية ، وتوظيف الطقوس التي تزاول عند الإبحار من ترديد الأهازيج ورفع الشراع وغيره .

والجدول التالي يوضح المقاطع والقصائد التي عبّر فيها الشاعر عن بيان مشهد الإبحار:

القصيدة	الصفحة	الموضوع
أنين الصواري		
على أبواب الرحلة الأولي	29	حركة المجاديف – رفع الشراع على الصارية
أنين الصواري	52-51	مشاعر الغوّاص الشيخ ، رفع الأشرعة، حركة المجاديف ، وصف الصواري
	52	أهازيج النهّام
	52	مشاعر الغّواص الشيخ
	56	الاستعداد للإبحار

هكذا وظّف الشاعر جزءاً من المعجم البحري بألفاظة وعناصره ، وصوره لتصوير إجراءات مهنة الغوص في المجتمع البحري ، حيث احتل ذلك الجزء مساحة كبيرة كما رأينا من ديوان أنين الصواري ، وعبّر فيها الشاعر عن إحساسه لمعاناة الإنسان في مجمع الغوص ، وأشار إلى صور من التراث من عادات وطقوس تزاول استعداداً لرحلة الغوص فالوداع ثم الإبحار .

ثانياً : شخصيات الغوص

عدد بحارة السفينة .

ينقسم البّحارة على ظهر السفينة حسب طبيعة مهنة كل منهم تحت رئاسة (النوخذة) صاحب السفينة ، ويختلف عددهم في سفينة الغوص فهو يتراوح من ثلاثين إلى مئه شخص أو أكثر وقد يقل عن ذلك على حسب حجم السفينة وقدرة النوخذة على جمع أكبر عدد ، وغالباً ما يكون السيوب أكثر عدداً من الغّواصين ، كما يوضع عدد من البّحارة الاحتياط يسّمون (الجَلاّسة) يحلوّن محل الّسيب المريض أو من يكون مشغولاً بأداء الصلاة ونحو ذلك [1] .

أعمال البحّارة :

البّحارة على ظهر السفينة هم السِّيبْ ، وهو بحار ذو دارية وخبرة بأمور البحر ويقوم بأعمال هامة على ظهر السفينة خلال رحلة الغوص ، منها حماية الغّواص أثناء وجوده في قاع البحر ،فهو الذي يجّر حباله حينما تنتهي مهمته في أعماق البحار وحينما يشعر بالخطر وهو يغوص في قرار الخليج بحثاً عن اللؤلؤ ، وفي يده كيس يسمى (الديين) يجمع فيه الأصداف وبيده الأخرى

(1) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت ، ص 1/ 354 .

الحبل الذي إذا ما شعر بالخطر فإنه يشده فيشعر به السيِّب ويسحبه إلى ظهر السفينة ، أما الرضيف فهو المساعد للسيِّب ، وهو بحّار تحت التدريب وخبرته بالبحر حديثه ، وهدفه من الغوص هو تعلم المهنة .

ومن شخصيات الغوص (المَجَدْمى) نائب صاحب السفينة وله خبرة بالبحر ومهنة الغوص ، فهو يتقدم بعد صاحب السفينة في إعطاء الأوامر ، وراعي (الشَيرِه) وهو من يقوم بعملية تخليص مرساة السفينة من القاع في حال وجود ما يعيقها (فالشيره) تعني ما يشجر أو يعلق بالشيئ وهو هنا السفينة ، فحينما يعوقها شيئ فإن (راعي الشيره) يغوص بحراً لتخليصها ، أما (الجنَّان) فهو بحّار له دراية وعمله نفس عمل السيِّب وهو شد الغّواص إلى ظهر السفينة إلى جانب ملاحظة مرساة السفينة ووضعها في مكانها .

أما النهام فهو مطرب السفينة ويتسابق اصحاب السفن في الفوز بالنّهام ذي الشهر الذائعة بين البحّارة . ويكـــون البحّـــارة في سفينة الغوص عائلة يسودها الحب والإخاء والوفاء يضحي أحدهم بحياته في سبيل إنقاذ المجموعة [1] .

وقد ورد ذكر شخصيات رحلة الغّواص في أنين الصواري في أربع قصائد كما سيتضح ، وفي إضاءة لذاكرة الوطن في قصـــيدة واحدة وهي كالتالي :

أ- التّباب

وهو ابن أحد البّحارة أو أحد أقاربه ويتراوح سنه بين التاسعة والثالثة عشرة ، ويقوم بالخدمة على ظهر السفينة كإحضار المـــاء للبّحارة أو نشر ملابسهم المبتلة ، والتّباب لا يحصل على نصيب محدد من إيراد الغوص وإنما يتركز نصيبه من الغوص فيما يمنحه له الطّواش ، أي مشتري اللؤلؤ بعد أن تتم الصفقة بينه وبين (النوخذة) كما أن التّباب يقوم بجمع أنصاف المحارات التي قـــد حصل عليها البحّارة ،وبعد فترة تغير هذه الأصناف بأخرى جديدة وتُرمى القديمة فيقوم التّباب بجمعها وفحصها من جديد لعله يجد فيها بعض اللآلىء الصغيرة التي لم يتمكن البحّارة من رؤيتها ن وتكون هذه اللآلئ من نصيب التّباب غالباً [2] .

وتبدو شخصية التّباب الذي أخذ يتدرب على مهنة الغوص طفلاً من خلال قول علي خليفة على لسان صديق الغوّاص الـــذي ابتلعه البحر ناصحاً إياه في بداية المقطع الأول من قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " بعدم البكاء :

كفكفِ الدمعَ ولا تَرْضَ بحالْ
أن تكَون امرأةً بينَ الرِّجالْ [3]

وفي المقطع الثاني من نفس القصيدة نجد فعل الأمر في قوله :

إلزِم الإبحارَ في ركبِ المغاصْ [4]

---

(1) عبد الله خليفة الشملان : م . س ، ص 7 –12 .

(2) محمد بن خليفة بن حمد ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ، ص 15 ، عبد الله الشملان ، م.س ، ص 10-11 .

(3) علي خليفة ، م . س ، ص 25 .

(4) علي خليفة ، م.ن ، ص 27 .

ويتكرر فعل الأمر (الزم) في المقطع الثالث في القصيدة :

اِ لْزِمْ الإبحار يا ابنَ الكادِحْينْ
طائِعاً للكلِّ تّباباً ظريفْ
لا يَملُّ الجريَ منِ رُكنٍ إلى رُكنٍ ... خَفيفْ
يعتني في لفِ تَبغِ الغائصينْ
واحمل النّارَ إلى نرجيلة الرُّبانْ
حتى تستفيدْ [1]

وتتوالى أفعال الأمر في المقطع نفسه : (احمل ، فاحمد ، وجمد، وخذها ، وأطبق ، وسل) ، وفي المقطع الرابع أيضاً نجد أفعال الأمر: (اغتنم وسانح واحذر) ، وفي توالي الأفعال دلالة على التركيز على إعداد الغواص نفسياً لتقبل الوضع الجديد وعدم التقليل من مخاطر البحر مّما يوحي بالحث على تحمل المسئولية والتحلي بالصبر
والشجاعة .

و إذا عدنا إلى المقطع أعلاه نجد أن المهمات التي توكل إلى التّباب الصغير هي التنقل من ركنٍ إلى ركنٍ في خفة وتقديم طلبات البحّارة من احضار الماء ، ونشر الملابس ولّف التبغ وتقديم النرجيلة لصاحب السفينة أو الشاي أو القهوة .

ولقد نجح الشاعر في رسم لوحة نابضة بالحركة ومستمدة من الغوص وحياة الغّواصين وكان موفقاً في استخدام أفعال الأمر التي وردت ملائمة لطبيعة المواقف ، إلى جانب الحركة التي تبدو في تنقلات الصبي حين إعداد الشاي والقهوة ولّف التبغ للبحارة ، إن الغّواص في هذا المقطع مهنة لا مفر منها ، وقد جاء الفعلان (الزم ، واحمل) والنداء (يا ابن الكادحين) والحال (طائعاً) تأكيداً لذلك المعنى ، وقد أعان حرف النداء (يا) الممتد الألف على إبراز معاناة البحّار الصغير ، وارتباط مستقبله بمهنة الغوص وملازمته للبحر ، فهذه المهنة ورثها عن الآباء والأجداد (فهو ابن الكادحين) وهنا تبرز مهامه نحو شخصيات البحر وأهمها الربان وهو صاحب السفينة .

ومن الأعمال التي توكل إلى التّباب الصغير جمع أنصاف الصدفات كما ذكرنا آنفاً ، وقد وردت الإشارة إلى تلك المهمة في قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " .

وإذا جِئْتَ إلى محارةٍ عَذْرَاءَ
في يوم سعيدْ
ورأيتَ الَحظَّ فيها
دُرةً بَّراقةً تزْهو الْخريدْ [2]
فاحمد الله ، وباركْ
يَومكَ المُعْطي الجديدْ [3]

---

[1] علي خليفة ، م . ن ، ص 30 .

[2] الخريد : اللمعان الشديد

[3] علي خليفة ، م.س ، 31 .

ب- الرضيف :

ويتّتبع علي خليفة التّباب إلى أن يصبح (رضيفاً) إيّ بحاراً تحت التدريب حيث يعتاد المهنة ويركب السفينة للتدرب على مهنة الغوص ومساعدة الغّواص إذ يشترك مع آخر في جره بحبل واحد كي يخرج من قاع البحر سريعاً ونجد ذلك في قول علي خليفة مخاطباً التّباب الصغير الذي سيتحول إلى رضيف وهكذا إلى أن يغدو غوّاصاً:

رُبّما تغدو (رضيفْ)
رُبَّما جوَّابَ أعماقٍ عزيرهْ [1]

كان هذا هو المقطع الوحيد التي ذُكرت فيه شخصية الرضيف في أنين الصواري .

ج- الغّواص :

ثم ينتقل بنا الشاعر إلى مرحلة هامة في حياة التّباب والرضيف حيث يغدو غواصاً خبيراً بالبحر ، بعد مرور الأيام السنوات فتنشأ بين الغّواص الصغير الذي أصبح رجلاً ، وبين البحر علاقة ألفة فيعتاد البحر ومخاطره ويخبره ويصبح يشتاق إليه مع معايشته للمتاعب والهموم في أعماقه ونجد ذلك في قوله على لسان الغّواص .

ثم لّفتْ بي سنينُ العُمرِ لّفهْ
قدْ خبرتُ الغَوصَ فيها
باجَتهاداتٍ وَخِفَةْ
وَعَشِقْتُ البحرَ ... صَارَتْ لَي معهُ بعضُ أُلفهْ [2]

في هذا المقطع الصغير أراد الشاعر أن يصّور دوران الحياة من الشباب إلى الشيخوخة لذلك الغّواص ، ويرى الدكتور محمد جابر الأنصاري في نقده قصيدة " أنين الصواري " أن بعض المقاطع فيها فاشلة ، ومنها هذا المقطع ، فهو كما يقول فاشل من حيث التصوير والتعبير فالعمر لا يمر بـ " لفة" ولا"خِفة" إنها دورة حياة طويلة مؤلمة ، مّما أضر ببناء القصيدة [3] .

إن ما ذهب إليه الدكتور محمد جابر صحيح إلا أن ذلك كان في بدء تجربة الشاعر الشعرية والحياتية فأراد نقل مشاعر الإنسان البسيط كما هي بصدق وعفوية وبألفاظ قريبة إلى العامية والمباشرة وبأسلوب قريب من السطحية والانكشاف ، وإضافة إلى ما سبق فقد يشعر الإنسان حينما تعترضه المتاعب والصعاب بعدم مرور الوقت بسرعة ، وإذا اجتاز هذه الفترة قد ينسى الصعاب وطول الفترة ، مردداً عبارات توحي بأن الأيام قد مضت سريعاً .

---

(1) علي خليفة ، م. ن ، ص 33 .

(2) علي خيفة ن أنين الصواري ، ص 55 .

(3) مسامرات جاحظية ، فلنفهم معنى النقد ، في حريدة الأضواء ، البحرين ، (22 ديسمبر 1966) ، لاـص .

وإن موقف الشاعر الإيجابي من البحر ومشاعره تجاهه من خلال موقف البحّار الذي تقمص شخصيته يشير إلى أن جانب النفور من البحر يقابله جانب الحب والألفه فهو مصدر عطاء وحيز يرى فيه صورة من صور كفاح الأجداد والآباء ، إنها علاقة أبان عنها شاعر خبير بالبحر المحيط به وبهموم المشتغلين في أعماقه وببواطن النفوس .

وتتميز شخصية الغّواص في رحلة الغوص بصفات أهمها أنه جسور ، وعريق ، وخبير بالبحر ، ومكافح ونتبين تلك المعاني في قول الشاعر على لسان صديق الأب الذي ابتلعه البحر موجهاً النصائح إلى ابنه :

إلزَمِ الإبحارَ في ركبِ المغاصْ
كالمِئاتْ
من رجالٍ طبعَّوا النفَّسَ الثبات[1]

وقوله أيضاً في نفس القصيدة .

اغتنِمْ ...
سانِحَ الوقتِ وخُذْ
عن كلِّ غّواصٍ عريقْ
خِبرةً تبقى ذخيرَهْ
مِهَنَ الغوصِ كثيره [2]

إن توالي أفعال الأمر في هذا المقطع سبقه تأكيد ما يتميز به الغّواص من صفات يجب أن يتحلى بها ، وبالتالى استعداد لمواجهة مخاطر البحر .

ومن هذين المقطعين نستخلص صفة الغّواص وهي الثبات فـ (العراقه) وسبب ذلك الخبرة التي تكّونت لديه حيث يزاول مهن الغوص الكثيرة منذ كان صبياً صغيراً ، أما عمله الدال على شجاعته فهو الغوص في أعماق الخليج بحثاً عن اللؤلؤ حيث ينزل إلى البحر مؤتزراً وبرجله حبلان معلقان ومهمتهما الإسراع به إلى قاع البحر وبأحد هذين الحبلين حجر وإذا وصل إلى قاع البحر أفلت الحجر من رجله ليبدأ بجمع الأصداف فإذا احس بخطر أو ضيق شد الحبل بأصابع رجله بقوة ، فيفهم (السّيب) الذي على ظهر السفينة والمكلف بالمحافظة على حياة الغواص هذه الإشارة فيسحب الحبل بسرعة ويخلع الغّواص الإناء الذي تجمع فيه الأصداف من رقبته ويرفعه بإحدى يديه إلى أعلا بينما يده الأخرى إلى جانبه ممّا يساعده على سحبه إلى ظهر السفينة فيستعيد قوته ويلتقط أنفاسه ، ويعاود الغوص ،وهكذا يواصل العمل منذ شروق الشمس وحتى الغروب [3] .

---

(1) علي خليفة ، م . س ، ص 27 .

(2) على خليفة ، أنين الصواري ، ص 32 .

(3) علي خليفة ، م.ن ، ص 26 .

لقد عمل الغّواص في أعماق الخليج حيث قضى سنوات العمر كادحاً ويمكن تلخيص ذلك الكدح في قول الشاعر.

أرْبعُونَ العُمرِ في الكدِ انقَضَتْ
وَرُفاتُ الجسم للحيتانِ في قاعِ الخليج[1]

إنها فعلاً دورة حياة مؤلمة وطويلة وشاقة ، إن هذا الجزء الصغير يطرح قضية الغّواص اجتماعياً في مواجهته البحر ، ويشير إلى الظلم الواقع عليه من البحر وحيتانه وما البحر في السياق إلا رمز لاستغلال الغّواص واضطهاده من صاحب السفينة وتاجر اللؤلؤ حيث تُمتص جهوده ويتخلّى عنه البحر من خلال أنظمة الغوص وقوانينه وتلك قضية سنشير إليها حين الحديث عن مخاطر البحر وأبعاده الاجتماعية تفصيلاً .

أما الظروف التي يعمل فيها الغّواص وسط البحر فهي حقاً صعبة وقاسية ويبدو ذلك بوضوح في قول علي خليفة :

قُلْ لَهُم كَيفَ يكُونُ العيشُ في دُنيا حقيرهْ
يركبُ الكُلُ المُحالْ
يُنبرون الَوحّلَ في قلبِ الهلاكْ
بِاَصْطِبارٍ ... في اعتِلالْ...
يفِلقُون الصَدَفَ المُوحِل في عزّ الظهيرهْ
حَسْبما شاءْتْ أميرهْ [2]

لقد لخص الشاعر في هذا المقطع الظروف التي يعمل وسطها الغّواصون وربط بين معاناة الغّواص والعامل في أي مكان على الأرض . وقد نجح فنياً في توصيل ما يقاسيه الغّواص مستخدماً فعل (الأمر) في البداية والذي يوحي باللهجة الآمرة والحّدة الصادرة عن إنسان يقاسي ما يقاسيه الكادح وأتبع فعل الأمر الأداة الدالة على الاستفهام (كيف) التي تعّبر عن الدهشة من حياة الذل التي يحياها الغواصون ، فالبحر دنيا حقيرة ، ودنيا صعاب وأهوال ، وما ذلك إلا لكثرة المشاق التي تواجه الغّواصين إنهم يبحثون عن اللؤلؤ في أعماق الخليج ، وقد جاءت عبارة (ينبرون الوحل في قلب الهلاك) مناسبة للسياق حيث حددت مكان البحث عن اللؤلؤ ، إنه مكان المهانة والهلاك في ظلمات البحر ، ثم جاءت شبه الجملة الحالية (باصطبار في اعتلال) واصفة حال هؤلاء الغّواصن المزرية ، إلا أنهم صابرون على الرغم من اعتلالهم ، إنه الإنسان الذي قد يهزم ولكن لا يدمر . إنها حياة حقيرة لأن في قعر البحر الموحل هلاكاً ، وتحت شواظ الشمس الحارقة في عز الظهيرة على ظهر المركب لهيباً قائلاً ، فالبحث عن اللؤلؤ بعد جمع الأصداف من قعر البحر يتم وسط الشمس الحارقة إنها صورة معبّرة عن الصبر وقوة التحمل وشدة المعاناة ، ويقابل ذلك الجهد وهذه الظروف القاسية التي يعمل وسطها الغّواصون الأجر الزهيد الذي ينالونه من صاحب السفينة ، فثمرة شقائهم تسلم له ، وبدوره يسلمها إلى تاجر اللؤلؤ الذي يبيعها بثمن غال فتستأثر بها إنسانة ثرية أو أميرة مدللة ، وهنا تبدو العلاقة بين النوخذة و الغّواص . إنها علاقة قائمة على الضدية وعدم التكافؤ إنها علاقة استغلال لجهود الإنسان ، وحرمانه من الحقوق ، ومن أقوال الشاعر على لسان الغّواص الصغير موضحاً هذه العلاقة :

---

(1) علي خليفة ، م.ن ، ص 88 – 99 .

(2) عبد الله خليفة الشملان ، صناعة الغوص ، ص 9-10 .

أوَ لَعلّ الحظَ يأتيني (بدانهْ) [2]
لي فيها نظرةُ العابدْ ...
أولاها الأخيرهْ [1]

إن لكلمة (الدانة) هنا وفي الأبيات التي سبقتها دلالة لغوية فهي تحمل على سبيل المعنى الحقيقي الندرة وارتفاع القيمة للشيء ، واستخدمها الشاعر في السياق لإبراز المقارنة بين شقاء الغّواص في سبيل الحصول على اللؤلؤة التي شبه نفسه أمامها بالعابد الذي تكفيه النظرة إليها فقط ، لأنه محروم منها في حين تتمتع الطبقة المترفة بها.

د. النوخذة (صاحب السفينة)

لقد ورد ذكر النوخذة صاحب السفينة في ثلاث قصائد من قصائد المجموعة ، وهي " على أبواب الرحلة الأولى " " أنين الصواري " من أوال الشط أحكي" ،ولقد طرح الشاعر من خلال هذه الشخصية قضية الغّواص من جانب اقتصادي واجتماعي وإنساني ، فأشار إلى ما يتغلغل في أعماق هذا الإنسان من حسرة وعناء نتيجة لاستغلال جهوده ففي قصيدة " أنين الصواري " يرسم لنا الشاعر صورة النوخذة في سياق حديثه عن أمنيات التّباب في الحصول على اللؤلؤة النادرة والتي يكتفي منها بالنظرة فقط وقد أشرنا إلى أبيات منها أعلاه .

ثُمَّ تمتدُ اليدُ النَّاعمةُ اللّمسِ الأجيرهْ
تزرعُ الحسرَة في نفسي الكسيرْه
فتُواريها ،
وحّظي قُوتُ أفواهٍ فقيرهْ [2]

إن اليد الناعمة في السياق كناية عن صاحب السفينة وتاجر اللؤلؤ وفي هذه الصورة الجزئية مقارنة تبرز متاعب الغّواص من جانب وتمتع صاحب السفينة بالجزء الأكبر من محصول الغوص .

وفي قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " إشارة في بعض المقاطع إلى شخصية صاحب السفينة الذي نلمح له من بين السطور صورة تبعث على النفور والاشمئزاز منه ، وتبرز جشعه وتجعلنا نستخلص عبارة تتردد في أعماق الغّواص وهي إن المخاطرة والتعب من نصيبي والخير والفائدة لغيري .

---

(1) على خليفة ، أنين الصواري ، ص 54 .

(2) على خليفة ، م. س ، ص 26 .

يالهُ دّيانُا الفظُ الصَّفيقْ !!
كجُمُوع الدُّودِ في أمعاءِ غّواص فقيرْ
قَرحَةٍ شوهاء في جسمٍ صغيرْ . [1]

كما أشار الشاعر في مقطع آخر من نفس القصيدة إلى النوخذة في معرض حديثه عن أعمال يقوم بها التّبـــاب مثـــل تقـــديم النرجيلة :

واحمل النارَ إلى نرجيلة الرُّبان
حتى تستفيدْ [2]

وفي قول الغّواص :

حفطتها للذي يقات من رزي أمانه[3]

إن المقصود في هذا السطر لاشك هو صاحب السفينة فمن غيره يتمتع بكامل الحقوق ومحصول اللؤلؤ والطعام الجيد المنـــــزلة الرفيعة ، بينما يعاني البحّارة في سبيل انتزاع لقمة العيش من قلب الهلاك .

وقد أشار علي خليفة على لسان الغّواص إلى النوخذة في قصيدة " من أوال الشط أحكي " في مقطع سوف تعالجه في موضـــع آخر أشار إلى النوخذة قائلاً :

وخسيسٌ يمتطي بؤسيى جوادًا
لُيعِّري زوجتي شَرعاً ، ويمضيى [4]

إن هذه الصور والمقاطع تلخص أبرز مميزات صاحب السفينة وملامح شخصيته ومن ذلـــك تتحـــدد العلاقـــة بينـــه وبـــين البحّارة ، وفي حديث سيف مرزوق الشملان ما ينفي هذه الصفة عن بعض النواخذة فهو يقول " بعض النواخـــذة ظُـــلاّم يتعبون الغاصة و السّيوب في العمل المستمر " [5].

هـــ0 الطّواش :

أما (الطّواش) وهو تاجر اللؤلؤ الذي ينتقل بسفينته الشراعية أو البخارية بحراً أحياناً بالمرور على سفن الغّواصين لشراء ما تجمّع لدى أصحاب السفن من اللؤلؤ فيقوم بشراء كميات كبيرة من اللؤلؤ ، وتجري بين تجار اللؤلؤ وأصحاب السفن المنافسات على

---

(1) على خليفة ، م.ن، ص 26 .

(2) على خليفة ، م.ن، ص 30 .

(3) عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص 150 .

(4) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 62 .

(5) سيف مرزوق الشملان ، م.س ، 432 .

عقد أحسن الصفقات في عرض البحر ، وقد وظف علي خليفة هذه الشخصية في معرض حديث الغّواص الصغير عند استعداده لرحلة الغوص في قصيدة " أنين الصواري" ، وهي القصيدة الوحيدة التي جاء فيها ذكر للطواش في معرض الحديث عن التّباب .

وأبي يَرْجو مِنَ الله بأنْ أغدو كبيرا...
أحْمِلُ العبَء وأرتادُ الغِمارْ . [1]
باحثاً عن لُؤلؤٍ يُغري (طوواويشْ) البِحارْ

و0 النّـــــــهام :

برزت شخصية النّهام في كل من قصيدة " صدى الأشواق " و " أنين الصواري " و" من أوال الشط أحكي " و " بذر الأرض الواهبة " ، وذلك في ديوان أنين الصواري كما جاء ذكر النّهام في إضاءة لذاكرة الوطن في قصيدة " هبوب النار علـــى دم الورد " .

وفي قصيدة " صدى الأشواق " تخاطب الزوجة الغّواص الغائب قائلة :

خبّر الدُنيا وخبِرني وارفعْ
آهةَ (النَّهام) في الأجواءِ باللحن المُوّقعْ [2]

كما وردت كلمة النَّهامَ أيضاً في قصيدة " أنين الصواري " من أوال الشط أحكي " وورد ذكر النَّهامَ أثناء حـــديث الغّـــواص الشيخ الذي لفظه البحر وتخلى عنه وما آل إليه حاله قائلاً :

ماتَ كُل الحبِ في قلبي،
وأبقانيَ ضريرْ
ألَم ، حَمّلني الَشوك وأبقاني ضرَيرْ
مِنْ على الأسْيافِ أبكي
مِثلَ (نَهام) ضَريرْ
ضَامَهُ الوقتُ وأضْناهْ السعيرْ
بَعْدَ أنْ جَفّ مِنَ الحلقِ (نِهَامَهْ)
آهٍ لَمْ يُوْتِرْ على المَوتِ السلامهْ [3]

إن شخصية النَّهامَ جديرة بالاهتمام ؛ ذلك بسبب الدور الذي يؤديه هذه الشخصية في الرحلة ، فالنّهام هو الذي يطرب البحّارة على ظهر السفينة ، وهو من يحاول مواساتهم والتخفيف من عذابهم في الغربة ، وهو من يحاول دفعهم إلى العمل وإثارة حماسهم فمواويله ارتبطت بالرحلة ذهاباً وإياباً ، وفي صوته أسىً ونغمة تعّبر عّما يعانيه الإنسان في الحياة ، إن الآهات الصادرة عنه أهات

---

(1) علي خليفة ، م. س ، 432/1

(2) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 88 .

(3) علي خليفة ، م.ن ، 68-64,

رفض وثورة ، إلا أنها ثورة مبطنه بالأهازيج والمواويل ؛ لذلك بقت هذه الشخصية ومواويلها محفورة في ذاكرة الأجيال بقت عالقة بالنفوس كرمز من الرموز إلى المثل والمعاني الجميلة .

و نجد في المقطع أعلاه أن صورة المّوال تشبه الشجرة المغروسة ، وغارسها هو النَّهام ، ومكان الغرس صدور الرجال ؛ إنها لوحة فنية دالة على أهمية الموال في رحلة الغوص ، ومّما ربط بين أجزائها استخدام (في) الظرفية والمكان الدال (خصب الرجال) و(قلب الرمال) مّما يوحي بأثر النَّهام والمّوال في النفوس .

أن تلك المعاني تشير إلى وجود بذرة التمرد على الوضع الاجتماعي والاقتصادي من جانب الشاعر ، ففي المقطع دعوة خفية للأجيال كي تحافظ على جهود الآباء ولا تتهاون في الحصول على حقها في حياة آمنة .

وتظهر شخصية النَّهام وصفته وهي (الضرير) مرة أخرى في قول الشاعر قصيدة " بذر الأرض الواهبه "

يَا أيُها النَجمُ المُضَّمحُ بالعُطورْ
أمَا رَأيتَ فتى البحارْ؟
وسَمِعتَ (نّهاماً) ضَرِيرْ
يبكي يَذُرَّ على الجرُوحْ
مِلْحاً ، وَيَصْرَخُ في السَّماءْ
صوتٌ تَصرّ لهُ الضُّلُوعْ [1]

وتنكر الصفة ذاتها في قول الشاعر في " هبوب النار على دم الورد "

يا مالَ (نَّهام) ضَرِيرْ غصَّ بالآه ، وغنّ
يَنْتَضَي البرقَ (ابنُ يا [2]مِنْ)[3]

إن الحوار الداخلي في المقطع الأول والجزء الذي يليه يكشف لنا عن تجارب هامة في بناء القصيدة في شعر علي خليفة ، ويوضح دور النَّهام التاريخي في التأثير على الإنسان ، وذلك يبدو من خلال النداء الموجه إلى النجم ، والاستفهام عن فتى البِحار الذي له صلة بالنّهام فهو الذي يحركه ويؤثر فيه بنغماته الحزينة وهو رمز حي للإنسان في تطلعه وثورته على ضعفه ، وقرينة ذلك (البكاء والصراخ) وفي قوله (غص بالآه) دليل على وجود المعاناة.

ومّما يلفت النظر أن النَّهام في شعر علي خليفة (ضرير) يؤكد الشاعر أنه وجد هذه الصفة فيمن يتميزون بعذوبة الأصوات ، والنغمات الحزينة ، ومثال ذلك (اللحن العراقي)[4] الذي كان يتّردد في المدينة ليلاً فترة غياب الغواصّين وكان يؤدية مطرب

---

(1) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 00 -71 .

(2) ابن يا من ملاح بسيط من أهل البحرين ، اشتهر قبل الإسلام بمعرفة البحر والجرأه على اقتحامه في كل الظروف ، علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 90

(3) علي خليفة ، م.ن ، ص 90 .

(4) أنظر ، أنين الصواري ، ص ، 42 .

ضرير يساعده رجلان آخران ، والسيدة (لطيفة بنت سليم) التي تعلم شاعرنا على يديها قراءة القرآن الكريم ، وأعجب بعذوبة صوتها كانت ضريرة فضلاً عن بعض النّهامين الذين التقى بهم .

هكذا بدت شخصية النَّهام في شعر علي خليفة من خلال البحر ورحلة الغوص الذي وظّفه في إلى جانب باقي الشخصيات .

وقد توزعت بعض شخصيات الغوص كما سنرى في الجدول التالي في أربع قصائد من أنين الصواري ، بينما احتلت قصيدة في إضاءة لذاكرة الوطن ، حيث اختفى بعد ذلك المعجم الدال على البحر بمكّوناته وصوره ومعانيه المباشرة ، وتحول البحر إلى رمز ودلاله على قيم وأفكار وفلسفة معينة ، مّما يدل على النضوج الأدبي والرقي الفكري وتطور التجربة الشعرية لـــدي الشـــاعر حسبما اقتضته روح العصر، وثقافة الجمهور ووعيه .

أنين الصواري .

القصيدة	الصفحة	الموضوع
على أبواب الرحلة الأولى	34-30	التّباب
	32-30-26-25	الغّواص
	32-31-30-26	النوخذة
أنين الصواري	53	الرضيف
	54	النوخذة
	57-52	النَّهام
	53	الطّواش
من أوال الشّط أحكي	65-59	القصيدة كاملة تتحدث بلسان الغّواص
	63	النَّهام
بذر الأرض الواهبة	00	النَّهام

إضاءة لذاكرة الوطن

هبوب النار على الورد	90	النَّهام

ثالثاً : الأخطار والأمراض التي تصيب الغّواصين

1-المخاطر العامة :

البحر عرضة لثلاث حركات كبرى تستحق الذكر ، فالأولى هي الناتجة عن تأثير الرياح على سطح البحر فتحدث التماوج ثم الأمواج وقد تصير الأمواج كالجبال حتى يبلغ ارتفاع بعضها 40 قدماً ومن ذلك اضطراب الأمواج المختلف ومصادماتها ورجوعها إلى العمق وغير ذلك .

أما الحركة الثانية فهي الناتجة عن جاذبية الشمس والقمر وهي المعروفة بالمد والجزر . والحركة الثالثة حركة ناتجة عن فعل الرياح والمدّ واختلاف الحرارة والتبخر وعن حركة الأرض اليومية فيّكون ذلك التيارات والمجاري العظيمة على سطح البحر [1] .

ونستطيع أن نستخلص من هذا القول أن مخاطر البحر العامة التي يتعّرض لها الغّواصون هي ذات الصلة بكوارث البيئة من عواصف وتيارات ،وارتفاع في درجة حرارة الشمس وهي مخاطر يواجهها البحّارة على سطح السفينة .

ومن المخاطر العامة ماله صلة بمهنة الغوص والوضع الاجتماعي منها سوء التغذية وعدم نظافة الماء ومراعاة الشروط الصحية .

أ-أخطار البيئة والكوارث .

لقد تبين من الدراسات والأبحاث التي أعدت عن مجتمع البحر ما تتعرض له سفن الغوص ، وبحارتّها ومن الكوارث ، والعواصف التي لا تنسى آثارها ، ما يعرف في البحرين بـ (سنة الطبعة) [2] فقد تعرّضت البحرين ومياهها الإقليمية سنه (1945) إلى عاصفة قاسية دمرت السفن في البحر ، وأغرقت البحّارة في مغاصات اللؤلؤ ،ويطابق ما سبق وصف أحد الناجين من العاصفة قائلاً : فؤجئنا بالعاصفة ونحن نيام على ظهر السفن حوالي التاسعة مساءً وكانت رياحها ساخنة وكانت من القوة بحيث أنها أغرقت سفناً من الحجم الكبير ... فنتج عنها حسب تقديرة غرق حوالي (30) سفينة كبيرة وصغيرة ، " وكانت قوارب الأهالي التي تطّوعت للإنقاذ تعثر على الناجين في نقاط متباعدة ممسكين بقطع من الخشب وكانوا يعانون من العطش والشحوب والجوع بينما أكلت الأسماك الأطراف السفينة للكثير منهم " [3] .

ويصف الدكتور (بندركار) [4] تلك الكارثة قائلاً " ففي هذه الساعة المتأخرة من الليل تعّرضت البحرين والمنطقة المحيطة بها لعاصفة مرعبة فاجأت مئات السفن التي كانت راسية في المغاصات والتي كان آلاف العاملين عليها يرقدون في سبات عميق بعد يوم عمل شاق دون أن يشعروا ببوادر الكارثة في هذه الليلة المشئومة وفي الصباح أسرع الآلاف من الرجال والنساء والأطفال إلى الشاطئ وقد ارتفع صراخهم وبكاؤهم وهم يحدّقون في البحر في ذهول دون أن يعرفوا شيئاً عن مصير أقاربهم وقد تلقيت تعليمات بالتوجه في لنش المعتمدية لتقديم المساعدة الطبية ، وإنقاذ من بقي على قيد الحياة ، وقد وجدنا مئات السفن مقلوبة ،

---

(1) بطرس البستاني ، دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب ، 421/5 .

(2) الطبعة : باللهجة البحرينية هي الغرق بحراً .

(3) عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص (282) تحقيق جريدة الخليج ، البحرين ، (30 اكتوبر 1987) ص 3 ، راجع مجلة الوثيقة البحرينية ، ص 160 ، ج،ج لوريمر ، دليل الخليج ، ص 300 .

(4) بندر كار : أول طبيب يقوم بالغاية بالبحّارة أثناء تواجدهم على سفن الغوص إذ عينته الحكومة ابتداءً من سنة (1325) وهو طبيب هندي قضى ثلاثين عاماً في دولة البحرين ، وكان يتنقل على ظهر سفينة تزور سفن الغوص مقدماً للبحّارة المساعدة الطبية ، عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص 31 ، راجع ، مجلة الوثيقه البحرينية ص 160 .

وصافية فوق سطح الماء ،ولكننا لم نجد أثراً للضحايا ما عدا شخصين تعلقا بحطام إحدى السفن وقد توفي أحدهما قبل أن يصل إلى الميناء وقد بلغ عدد الغرقى حسب التقديرات المعتدلة خمسة آلاف شخص [1] .

إن تلك الأحداث وما شابهها موّثق في دليل الخليج الباحث (ج.ج. لوريمر) ، وقد تحدث عنها كما تقّدم الباحث عبد الله الشملان في كتابه صناعة الغوص مستعيناً بدليل الخليج ، ومجلة الوثيقة ، كما إننا سمعنا عن كوارث الغوص من أجدادنا الذين امتهنوا الغوص على اللؤلؤ ، فالحادثة شهيرة وقريبة إلى الأذهان إذا لا يزال البعض يتذكرها ويؤرخ بها فيربط بينها وبين بعض الأحداث الهامة التي واكبت تلك الكارثة أو كانت قريبة من تاريخ حدوثها .

ب: الطعام وماء الشرب .

من المخاطر التي يواجهها البحّارة في رحلة الغوص بصفة عامة سوء التغذية التي بسببها وبسبب عدم النظافة غالباً ما تتداعى بعض أسنان الغوّاصين وتخرج من فمهم الرائحة الكريهة [2] ، ويحاولون علاجها بالحمضيات . ومن الأمثلة الدالة على أن الطعام في رحلة الغوص كان رديئاً ما ذكره المؤرخ سيف مرزوق الشملان " القذارة ، في المأكل والمشرب فالتمر تقع عليه الصراصير والحشرات الأخرى وتكون بداخله الديدان وهو من النوع الرخيص [3].

"أما خزانات المياة فكانت تملأ بالمياه العذبة في أول الرحلة ثم تملأ بعد ذلك بالماء المالح أو من عيون الماء الجوفية في قاع البحر ، وتختلط هذه المياه في الخزان وهو وعاء خشبي فيكون الماء به غير مستساغ ، إذ لا يغسل الخزان طوال الرحلة ناهيك عن الأخشاب والمسامير التي تؤثر على طعم الماء ولونه ... زد على ذلك الصراصير التي توجد بداخل الخزان ، ومع ذلك يشرب منه البحارة ويحافظون عليه ، ولا يستخدم الماء لغير الشرب والطبخ ، وعلاج بعض الأمراض الجلدية " [4]

ج: الإرهاق الجسمي والنفسي .

ويتعرض البحّارة أثناء تواجدهم في البحر خلال فترة الغوص إلى كثير من الأمراض والأخطار ، إما بسبب ظروف العمل الذي يؤدونه وخشونته مّما يؤدى إلى الإرهاق النفسي والجسمي أو بسبب الظروف القاسية التي يواجهونها أثناء عملهم إلى جانب أن الغذاء ليس فيه من المواد الأساسية ما يساعد أجسامهم الضعيفة على العمل الشاق المتعب.

2- مخاطر الغوص في البحر .

أ- الأسماك .

يتعرض الغّواصون في قاع البحر لجمع (المحار) الصدف إلى عدة أخطار قد يودي بعضها بحياتهم وهذه الأخطار هي:

* سمك القرش .

ويسمى في منطقة الخليج (الجَرْجُور) ، واسمه عند العرب القريش .

---

(1) عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص ، 33

(2) سيف مرزوق الشملان ، م.س ، ص 1/ 430 .

(3) تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت ، 1/ 433 .

(4) سيف مرزوق الشملان ، م.ن ، 1/ 436 – 430 .

وكما يقول المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان إليكم بعض الحوادث عن أشخاص كويتيين جرحهم أو أكلهم القـــرش ، ولكن هذه الحالات قليلة بين خمس أو تسع سنوات تحدث حادثه وغالباً ما تكون جرح لا حادثة افتراس[1].

" منذ نحو أربعين عاماً – الكتاب طبعة 1975 – كان أحد النواخذة يغوص ومن بين الغّواصين (مبارك بن حرب) الذي كان بحرّ السِّيب إلى السفينة وحينها لحقه القرش فالتهم لحم إليته ولحم الفخذ فأنقذه أصحابه والدماء تسيل منه فعـــالجوه مـــدة ثم أرسلوه إلى الكويت فعالجه أحد الأطباء الشعبيين حتى برئ غير أن أثره طل يُرى [2] .

وفي حوالي (1330) نزل الحاج (أحمد صالح المؤذن) إلى البحر وكانت هناك مفاجأة مذهلة مخيفة ، بل هي الموت الـــزؤام كانت هناك أنثى القرش ويسميها البحّارة (الذئبة) وهى أشد شراسة من القرش وكثيرة الأذى . وكانت كـــبيرة الحجـــم ، فسرعان ما هجمت على الحاج أحمد والتهمت ساقيه بفمها .

وتصّرف الحاج برباطة جأش و لم يقاوم السمكة ومن حسن حظة أن البحر غير عميق ،وقد تركه القرش وفمه مملوءة بالـــدماء على أن يعود إليه ، حينها كان أصحابه يحاولون جّره إلى ظهر السفينة والدماء تسيل من ساقيه وقدميه بغزارة ، وكما يقـــول الحاج عاد القرش للبحث عنه حيث رأى وهو في السفينة ، وبعد يومين من الآلام المبّرحة اتجهت به السفينة إلى الكويت للعلاج وقصد به أهله إلى المستشفى وقرر الطبيب الأمريكي بتر ساقه إلا أنه رفض ذلك قائلاً عالجني فربما تبرأ جراحي .

وكان ذلك من رأى طبيبه المستشفى الأمريكي الدكتورة (اليانور كا لفلري) فعالجته بنفسها حتى التأمت الجراح ، وفي العام الثاني ذهب الحاج إلى البحر للغوص على اللؤلؤ دون أن يخشى القرش إذ الأعمار بيد الله تعالى [3]

*اللُـــخْمَة .

اللُخْمَة بتشديد اللام وإسكان الخاء وفتح الميم سمكة ذات أشواك حادة ، ولها ذكرها في كتب العرب وأشعارهم وهي معروفـــة عندهم بهذا الأسم ، وهي مستديرة الشكل ولها ذيل طويل كالسوط كما أن بها شوكة سآمة .

ومن البحّارة البحرينيين بحار اسمه جاسم حتى (1955) علـــى قيـــد الحيـــاة كـــان قـــد تعّـــرض لأذى اللُخْمـــة حيـــث (لصقت) بظهره و لم يستطيع الإفلات منها ولحسن حظه كان الحبل ملتفاً على يده فسحبه السِّيب بشدّه فأغمي عليه [2] خوفاً من اللُخْمِة ثم أفاق من الصدمة .

---

[1] سيف مرزوق الشملان ، م.ن ، 1/ 333 .

[2] سيف مرزوق الشملان ، م.ن ، 1/ 400 .

[3] سيف مرزوق الشملان ن تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت ، 1/ ، 402-406 .

***الدجاجة :**

سمكة سامة لها أشواك تضرب بها وطولها نحو ذراع ولونها فيه بعض الاسوداد والاحمرار وعليها نقط خفيفةَ ، وفي جسمها أشواك سامّة تضرب بها وتعالج بدواء العقرب ، وقراءة التعاويذ ، وكثيراً ما عابت يد الغّواص بضربتها الشديدة [1] .

***الـــــــــدول :**

يتعرض البحّارة لبعض الهلاميات مثل "حيوان الدول" [2] الذي يتّقونه بلبس الثياب الضيقة وقد وصفه صاحب التحفة النبهانية " الذي رأه بأم عينه وخبر الغوص قائلاً : وقانا الله شره" [3] وقد تحدث عنه أيضاً المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان واضعاً عند الفقرة التي تحدث فيها عنه كلمة الأخطبوط بالإنجليزية (OCTOPUS) [4]

وقد تغنّى بالدول الشعراء الشعبيين الكويتيين في أشعارهم مشيرين إلى خطره وما يبعثه من رعب في النفوس ، وقد أستشهد المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان ببعض القصائد في مؤرخه [5] . كما أشار علي خليفة إلى الدول في قصيدة لم تنشر في دواوينه وسوف يأتي الحديث عن ذلك .

***ب: أخطار ماء البحر .**

يتعرض الغّواص لأخطار أخرى وتحدث له الأمراض جّراء الغوص في ماء البحر ، وأحياناً يتوفى الغّواص إذا لم يسعف في أول الأمر ، وتتمثل أخطار ماء البحر في المياه الباردة والتيارات المائية غالباً .

***الماء البارد .**

ينزل الغّواص إلى قاع البحر لجمع الصدف ويكون الماء القريب من سطح البحر دافئاً نوعاً ما فإذا به يصل إلى القاع حيث الماء البارد فيتعب تعباً شديداً حيث الانتقال السريع من الجو الدافئ إلى البارد ، وفي هذه اللحظة يكون الغّواص جائعاً ومعدته خالية من الطعام مّما يفقد الجسم الحرارة اللازمة .

ومن حسن حظ الغّواصين أن الماء البارد يكون موجوداً فقط في أول رحلة الغوص (شهر حزيران) وفي آخرها شهر (أيلول) [6] .

---

(1) سيف مرزوق الشملان ، م.ن ، 1/ ، 412 .

(2) الدول حيوان هلامي لا يهتدي في سيرة لجهة معينة وهو طاف على وجه الأمواج ، وحجم معظمه قدر انكف وهو كروي الشكل وله خيوط طوال نحو ذراع فكأنه كتلة حرير ابيض فإذا لامس جزء من هذا الحيوان جسم الإنسان أحرقه حرقاً مبرحاً وربما أعب العضو الذي لامسه . وإذا رفع هذا الحيوان من البحر وأصابته حرارة الشمس مقدار خمس دقائق ذاب وتحلل إلى ماء ، محمد بن خليفة بن حمد ، م . س ن ص 18-19 .

(3) أمين الريحاني ، م . س ،2/ 717 ، انظر التعريف أعلاه .

(4) سيف مرزوق الشملان ، م.س ، 1/ 402 .

(5) سيف مرزوق الشملان ، م . ن ، ص 1/ 413.

(6) سيف مرزوق الشملان ، م.ن ، 1/ 422-425 .

وقد وصف أحد الغّواصين الكويتيين الذين تعرّضوا لشدة المياه الباردة ،وصف في أبيات شعبية لذع الماء البادر واضطرب الأمعاء حينها ، وارتجاف الجسد وجلوسهم أي هو وزملاؤه حول موقد النار للتدفئة . ويشير المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان [1] إلى هذه الأبيات معلقاً " هذه الصورة التي أمامك طبيعية ، وهي تعطي فكرة صحيحة عن عمل الغّواصين في البحر ، نعم أربعة اشهر هكذا شبه عراه ٌانظر إلى أجسامهم ووجوههم الكئيبة فهى تغني عن كل بيان ٌانظرهم بعد ما غطسوا ثم جلسوا على موقد النار والنرجيلة بينهم ينفثون منها الزفرات وسوف ينـــزلون إلى البحر مرة أخرى أي بالتناوب جماعة تصعد وجماعة تنـــزل 14 ساعة متواصلة إلى أن تغيب الشمس .

ولك أن تّتصور ياعزيزى القارئ في عز الصيف ناراً من الموقدة أمامهم ، والشمس تلهب ظهورهم ، ثم ينـــــزلون في ميـــاه البحر الباردة ثم الحار ثم الباردة ... [2] .

فعلاً إنها صورة حيه ناطقة تغني عن البيان ، وتحمل تحيه تقدير وفخر لهؤلاء المكافحين في الحياة .

2: التيارات المائية .

التيار القوي يتعب الغّواصين والسيِّوب الذين يصعب عليهم جّر الغّواص من أعماق البحر ، وإذا ما اصطدم ، الغّواص بأســـفل السفينة نتيجة التيار القوي فإنه يُصاب أحياناً بجروح بالغة ، وقد يُصاب الغّواص بتمزق عضلات الصدر مّما يؤدي إلى شعوره بالألم في الصدر وذلك جّراء السحب الشديد، وأحياناً يخرج من صدر الغّواص بعض الدم .

ج- أمراض الغوص ومضاعفاتها .

أمراض الجهاز التنفسي .

غالباً ما يتعّرض الغّواص للإصابة بأمراض الجهاز التنفسي والرئة ، ومّما يؤكد ذلك قول أمين الريحاني : " في سبيل هذه الكتلة يفادي الكثيرون من رجال الغوص بصحتهم وبأرواحهم . فأكثرهم يرعفون حينما يرفعون إلى وجه البحر ، ومنهم من يصاب بداء الرئه . ذلك لأن الغوص يلزمه مع الجرأة والخفة نفس طويل . والنفس إذا طال تعبت الرئتان ، وإذا طال تحت الماء جاء فوق الإمساك ضغط تتفجر منه في بعض الناس الشرايين [3] .

ويطابق هذا القول ما ذهب إليه الدكتور بندركار وهو أن الغّواصين في بداية موسم الغوص غالباً ما يصابون باحتقان في الرئـــة ربما بسبب برودة الماء في القاع وكان المصابون يبصقون دماً ليوم أو يومين دون ارتفاع في درجة الحرارة " ويواصل قائلاً ولكن لم صادف التهاب رئوي أو التهاب شُعبي رئوي إلا نادراً [4] .

كما كتب الدكتور س. ح. تومس بالمستشفى الأمريكي في دولة البحرين " من الملاحظ أن غّواص اللؤلؤ عرضـــة للإصـــابة بأمراض الجهاز التنفسي التي تنشأ عن زيادة انتفاخ الرئة والضغط مثل النـــزيف الدموي وغير ذلك " [5] .

---

(1) جدير بالذكر أن جد المؤرخ شملان كان صاحب سفينة غوص ويذكر المؤرخ أنه كان يرافقه في بعض رحلاته للغوص .

(2) سيف مرزوق الشملان ، م . س ،1/ 246 .

(3) أمين الريحاني : م.س ، 715/714/2.

(4) عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص 81

(5) عبد الله خليفة الشملان ، م.ن ، ص 82، راجع ج.ج. ، لوريمر ، دليل الخليج ، ص 307 .

كما يصاب أكثر من في السفينة (بكحَه) و سعال شديد قد يعود إلى برودة الماء ، أو شرب الماء العذب ، ثم المالح بعد نفاذ الماء العذب ، ويصاب الغّواص أيضاً بالحشرجة في الصدر جّراء الغوص [1] في الماء.

* أمراض الأذن .

أما أمراض الأذن فنسبة الإصابة بها من 80 -90 % من البحّارة وكانت الإصابة بها حادة أو مزمنة وهي مصحوبة في بعض الأحيان بنزيف والسبب يعود إلى تأثير ضغط الماء على الغشاء الطبلي للأذن ، مّما يعرضهم للصمّمَ ، وأنواع من الإفرازات [2] .

وتصاب الأذن بالطّنان وهو مرض يحدث بالأذن ألماً وطنيناً فلا يستطيع الغّواص أن يغوص وإذا أجهد نفسه فإن أذنه تنفجر في قعر البحر ويخرج منها الدم وقد يبرأ الغّواص من ذلك المرض ، وإذا لم يبرأ يتحول إلى سّيب [3] .

* أمراض الجلد .

هناك نوع من مرض الجلد منتشر بين الذين يقضون معظم حياتهم في البحر أمثال الصيادين والبحّارة فإن بشرتهم تعلوها طبقة شبه زجاجية ينشأ عنها بثور تزول في أسابيع قليلة إذا لم ينزلوا في الماء المالح [4] .

وهناك مرض جلدي يصاب به الغّواصون لبقائهم طويلاً في البحر فتنتفخ جلودهم ويظهر عليها الطفح وقروح كقروح الجدري ، وقد يصل ذلك حول العين فيؤثر على البصر ويضعفه ويعالج هذا المرض بالأدوية الشعبية مثل (حجر الزاج) الشب وقشور الرمان [5] .

* الصرع.

جّراء ما يشاهد الغّواص في قرار البحر من مناظر موحشة مفزعة لاسيما في البّحار العميقة ، فإنه يكون عرضة للإصابة بمرض الصرع [6] ويتواجد في بعض السفن (المطُوع) الذي يقوم بتلاوة آيات من القرآن الكريم والتعاويذ على المرضى المصابين بهذا الداء .

ويصاب البّحارة عموماً بأمراض العين التي غالباً ما تلتهب إثر الغوص في المياه المالحة ، كما يصاب الغّواصون بالنزلات المعوية ، ويستعد معظمهم ببعض الأدوية الشعبية كالمسهلات وزيوت التدليك والأعشاب [7] ، وغيرها لمواجهة الأمراض المعوية وحرارة الشمس وملوحة ماء البحر ، وكما ورد آنفاً فإن الحكومة قد خصصت من سنة 1925 طبيباً مهمته العناية بالبحّارة أثناء تواجدهم على سفن الغوص .

---

(1) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت ، ص 43/1 .

(2) عبد الله خليفة الشملان ، م . س ، 32-راجع ج.ج. ، لوريمر ، م.س ، ص 377 .

(3) سيف مرزوق الشملان م. س ، 1/ 430 .

(4) عبد الله خليفة الشملان ، م.ن ، ص 82 راجع ، ج.ج. ، لوريمر ، م.س ، ص 37 .

(5) سيف مرزوق الشملان ، م.س ، 227/1 – 229 .

(6) سيف مرزوق الشملان ، م.ن ، 1/ 431 .

(7) عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص 82 .

3: توظيف الشاعر مخاطر البحر .

كانت تلك مخاطر البحر بصفة عامة ومخاطر رحلة الغوص وقد استعان الشاعر بهذه المخاطر ورصدها في قصائد من ديوانه الأول متقّصياً ما يواجهه البّحارة في رحلة الغوص من أهوال .

أ- المخاطر العامة .

من المخاطر العامة التي أشار فيها الشاعر إلى أهوال البحر من رياح وعواصف وشمس ما ورد على لسان الغّواص :

هذه أحْوالُ دُنيانا وحالُ البحرْ
مِنْ قَعرِ الدُّهورْ
لا يَني دَوْماً يَـثُورْ
يقصِفُ الأعمارْ ... يقَسُو ، والنَوالْ
مِنْ عطاءِ الخيرِ في أرضى وفيرْ [1]

الأفعال في هذا المقطع تدل على العنف والقسوه من البحر الذي (لايني) وهو (يثور) كما يشير الفعل (يقصف) إلى الهلاك المحتوم وهو ضد الحياة والضعف ، وفي التقاء (القاف والصاد) زيادة في قوه الجرس الموسيقي الموحي بالعنف ، وقد جاء ذلك تأكيداً على وجود مخاطر البحر ، و ما يتّعرض له البحّارة من شدائد ورزايا في قلب الهلاك ، إنه الهيجان وتقلب البحر وثورته على البحّارة الذي يكافحون من أجل العيش ، وهذه هي مخاطر البحر على السطح ، أما المعنى الباطن المراد هو قسوه الإنسان على أخيه الإنسان في الحياة .

ومن الصور التي توضح مخاطر البحر ما جاء على لسان الشاعر :-

غَرَبوا بالهمِّ في ليلِ العذابْ
في متاَهاتِ العُبابْ
بَيَن فكَّيْ مارِدٍ يَصْطادُ أعمارَ الشَبابْ
كالذُبابْ
في خيوطِ العنكبوت [2]

إن هذه المعاني تجّسد واقع البحّار المؤلم في الغربة والدال عليه الفعل (غربوا) والوصف للبحر بـ (ليل العذاب) فنحن أمام صورة المكان فيها البحر بظلام لياليه ، وأعماقه المخيفة المجهولة ، وفي هذه الصورة تحتل الغربة مساحة من البحر ، مّما ينتج عن هذه الغربة القلق فالتشتت وعدم الاستقرار الذي توحي به الكلمات التالية (ليل العذاب ، العباب ، المتاهات) وما ذلك إلا دليل على أن القول صادر من نفس حائرة انعكست مشاعرها على التجربة الشعرية فجاء ذلك تأكيداً على مخاطر البحر ، فا (المارد) تشير إلى أن البحر حينما يكفهر تتحول صورته إلى وحش يلوك بين فكيه ما يصل إليه من رجال البحر ، فهو والبحر رمزان لاستغلال الإنسان المكافح الشريف في هذه الحياة.

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، 26.

[2] على خليفة ، م.ن ، ص 27-28 .

ومن المعاني السابقة نلتقط صوراً جزئية توضح النهاية المؤلمة التي تنتظر الغّواص ، وتُطرح قضية إنسانية اجتماعية استمدها شاعرنا من واقع رحلة الغوص ، إن قسوة البحر في اصطياده الشباب تشبه الطريقة التي تصطاد بها خيوط العنكبوت الذباب ، وفي هذه المقابلة ما يدل على الاستهانة بحياة الشباب فنهايتهم سهلة كنهاية الذباب المستضعف، ومن المثير في هذا الجزء أن طريقة الوقوع سهلة عند الخصم في الحالين ، فالشبك المُعد للفريسة هو الخداع ، فالغّواص والذباب لم يقعا عن ضعف فهمها مجردان من وسائل الدفاع ، إن المارد هنا رمز إلى وجه مخادع قد خطط للقضاء على خصمه وصورته تشبه (خيط العنكبوت) المعد للذباب ، ونخلص من ذلك إلى أن المارد والعنكبوت يشيران إلى ضعف النفوس البشرية التي وإن بدت قوية فهي قوة ظاهرة أما الباطن فهو هش ، إن قوتها هي قوة المادة والسيطرة وليست قوة الخلق الرفيع والعقيدة والمبدأ .

ومن المعاني الدالة على صفات البحر وخطورته ما جاء على لسان صديق الغّواص الذي ابتلعه البحر ناصحاً ابنه الصغير: –

ٱحذَرِ البحْرَ ففي البِدءِ دوارْ
عَاصِفٌ يأتيكَ محمومُ الأَوارْ [1]

البحر هنا (عاصف ومحموم الأوار) وإن سبق ذلك الهدوء ؛ كانت تلك حقائق سجّلها الشاعر عن البحر وأعانه على إبرازها استخدام الأدوات التالية وهي تشبيه البحر بالريح العاصف والنار الملتهبة وقد مهد لتوضيح ذلك بجملة إنشائية طلبية ملائمة للسياق وهو النصح والتوجيه مستغلاً البحر كمساحة من مكان تجري فيها الأحداث حيث يعيش البّحارة وسطه على ظهر السفينة حيناً وفي أعماقه حيناً آخر و مّما يستوجب أخذ الحيطة والحذر من مخاطر البحر ، ففعل الأمر (ٱحذر) كان تمهيداً لبداية الأهوال (الدوار) ثم وتتوالى صفات البحر في ومنها أن أعماقه سحيقة وأنه جبار ،وعنيد ، وصامت : –

كُنْ جلوداً ... لاَ تخفْ ، كنْ كالحديدْ
فالذي تقصدُ جبارٌ عنيدْ [2]

وقوله :

في بحارٍ صمُتها الدَّاجي يُخيفْ [3]

وقول الشاعر على لسان الأم وهي تخاطب طفلها الصغير :

منذُ أن جئتَ وجفني ما غضى
يرتجي منكَ ابتساماتِ الرِّضا
وابتهالاتِ صلاةْ

---

(1) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 33 .

(2) علي خليفة ، م. ن ، ص 29 .

(3) علي خليفة ، م . ن ، ص 30 .

لِعُذُوق البِسر[1] ... للأرضِ ...
وللبحرِ العيتدْ
هل أخافَتْكَ السَّمومْ
واضطرابُ الموجِ في البحر الغَضُوبْ [2]

لقد تقصّى الشاعر أهوال البحر هذه منطلقاً من معلوماته وخبرته ، ومستعيناً بموهبته الأدبية من حيث استخدام التراكيب اللغوية وقوة التعبير ، وحيوية الصور ، فأعانته صلته بالبحر ، وما اختزنه من حكايات الغّواصين ، وما سّجله الباحثون في أبحاثهم على روعة التصوير حيث التقطت ذاكرته التاريخية تلك المشاهد والحكايات فاختلطت بوجدانه في التعبير عن تجربته الشعرية و دون أن يفلت منه الموقف الانفعالي اعتماداً على المصادر التاريخية ، والانتماء إلى مجتمع الغوص [3]

ب ـ *الطعام وماء الشرب :*

عبّر الشاعر عن استيائة حول ما يعده النوخذة للبّحارة من زاد ، وماء للرحلة ،والاستياء من ذلك إنما يعود إلى نوع الطعام الممّول فالأرز لا يكاد يقيم أود البحّارة فهم يتناولونه مرة في اليوم ، وأحياناً ثلاث مرات في الأسبوع ، والمياه المُعدة للشرب غالباً ما تكون غير صحية والتمر قد تقادم عليه العهد .

ولعّلنا نستطرد في هذا السياق إلى ذكر جانب من حياة الغّواصين على ظهر السفينة ، وبعض من العادات المتبعة في رحلة الغوص مستشهدين بالقول التالي " ... ففي أثناء فترة الغوص لا يقدّم للبحّارة إلا وجبة واحدة فقط في نهاية اليوم العملي المرهق ، وهي وجبة العشاء المكونة من (المحمر والسمك) وهو عبارة عن الأرز المطبوخ (بالدبس) [4] والسكر المذاب بقليل من الماء والذي يحمّر فوق النار ويضاف إليه الأرز مما يكسبه اللون الأحمر ... ويقّدم إلى جانب ما يقوم البحّارة بصيده من الأسماك طوال اليوم ... وهذه الوجبة لا تتغير أبداً طيلة فترة الغوص ذلك لأن الأرز المُحلى خفيف على المعدة ، ولا يتعب البحّارة وخصوصاً أنهم يأخذون هذه الوجبة ، ويستسلمون لنوم عميق" [5] ؛ ولا يتناول الغّواص خلال فترة النهار إلا قليلاً من التمر وبعض القهوة في الصباح الباكر .

ولقد وظّف الشاعر هذه العادات الغذائية الاجتماعية المّتبعة في رحلة الغوص مُلقياً الضوء على أثر سوء التغذية على صحة الغّواص ونفسيته ، ومحاولاً المقارنة بين شقاء الغّواص ، وجهده وترف صاحب السفينة وتاجر اللؤلؤ فهو يقول في قصيدة " على أبواب الرحلة الأولى " .

---

(1) البسر ، هو الرطب الذي لم ينضج .

(2) علي خليفة ، م.س ، ص 44 – 46 .

(3) ماهر حسن فهمي ، م. س ، ص 207 .

(4) الدبس : هو عسل التمر المنقوع .

(5) عبد الله خليفة الشملان ، م . س ، ص 82 .

زَادُنا تمرُ نُخيْلاتِ عِجافْ
عَاثَ فيهِ الدُّوْدُ وطَراً ثمَّ عَافْ
بَعَد أرزٍ قَدَّرُهُ قَدرَ الكَفَافْ [1]

إن هذه المعاني مستمدة من واقع رحلة ومجتمع الغوص كما رواها الآباء والأجداد ، وكما سجّلها الباحثون ، وكما تأثر بها وصورّها الشاعر في أعماله الأدبية ، فهذه الأقوال حقائق موثقة تشير إلى أن البحر والغوص قضية اجتماعية اقتصادية اكتوى بنارها هؤلاء العاملون الشرفاء ، وهي قضية امتدت جذورها في المجتمع بأسره ، وقد نجح الشاعر هنا في الإشارة إلى هموم المجتمع الفقير في كل زمان ومكان . فربط بذلك ماضي الآباء بالحياة المعاصرة ؛ فالمعاني في هذه الأبيات تشير إلى جشع الإنسان وتحكمه في قوت العامل البسيط من خلال استئثار صاحب السفينة بالغذاء الجيد والربح الوفير ، في حين تشير عبارتا (زادنا تمر نخيلات) و (بعد أرزٍ قدره قدر الكفاف) إلى حرمان الغّواص من الغذاء الجيد وأثر ذلك في صحته العامة .

ولا يقف الأمر عند هذه الظروف القاسية بل يوجز الشاعر ما يتعّرض له الغّواص من ظروف قاسية ذات تأثير سيئ في صحته ونفسيته في هذا الجزء من قصيدة " على أبواب الرحّلة الأولى " قائلاً على لسان الغّواص حول مياه الشرب التي تجهز استعداداً لرحلة الغوص .

ومياهُ الشُربِ في (فِنْطَاسِنَا) [2] الهشِّ العتيقْ
كبقايا القيءِ في جوفِ السَّقيمْ [3]

لقد ربط الشاعر في هذا الجزء بين وسائله الفنية وقضيه البحر كهم اجتماعي من خلال الأدوات التي تستخدم في رحلة الغوص ، وذلك للفت الانتباه إلى بشاعة الحياة في عرض البحر وعلى ظهر السفينة ، ويمكننا أن نتبين ذلك في كلمة (الفنطاس) الذي صفته أنه (هش وعتيق) . إن صورة هذا الخزّان تعطي انطباعاً لتلك الحياة البائسة في البحر ، وتدلنا على الاستهانة بصحة الغّواص وعدم التأمين عليها بأبسط وسيلة وهي إناء الشرب ، وتلك الصورة للخزّان بمنظره تقابل بقايا القيء في جوف إنسان عليل . إنه ماء أكثر من آسن ، وإنها صورة تثير الاشمئزاز وتبعث على النفور من رحلة الغوص ، إنها رحلة الموت والعذاب .

ج - الأسماك .

أما مخاطر البحر المتمثلة في مواجهة الغّواص لأسماك البحر المفترسه التي تحدثنا عنها آنفاً ، فقد وظّفها الشاعر في قصيده " على أبواب الرحلة الأولى قائلاً " –

---

(1) علي خليفة ،أنين الصواري ، ص 33.

(2) الفنطاس : خزان الماء واللفظه عربية بكسر الفاء ، سيف مرزوق الشملان ، م.س ، 1/ 255 .

(3) علي خليفة ، م.س ، ص 33.

أَربعُونَ العمرِ في الكدِّ انقَضَتْ
ورفاتُ الجِسمِ للحيتانِ في قاعِ الخليجْ [1]

لقد استغل الشاعر مخاطر البحر المتمثلة في مهاجمة الأسماك للغّواصين وفي ذلك حقيقة ، إذ ورد في الحديث عن (سنة الطبعة) بأن الأسماك الكبيرة قد أكلت الأطراف السُفلى من الغّواصين وكما أشار سيف مرزوق الشملان إلى تعرض البّحارة لهجمات القرش ، فاستغل الشاعر ذلك به من من جانب آخر وكنى به عن الخطورة الاجتماعية الاقتصادية ، وهي جشع تجّار اللؤلؤ وأصحاب السفن الذين يمتّصون شقاء المكدودين في الحياة .

كما أشار الشاعر إلى مخاطر بعض حيوانات البحر في قصيدة " إلى بحّار لم يعد" وهي كما ورد ليست ضمن قصائد أي مجموعة من مجموعات الشاعر ، أشار إلى ذلك قائلاً :

هل تُراكُمْ في بحار لا تني ... تُرهبُ الغّواص "بالدولِ"[2] اللْعِّينْ
هلْ تُرى مَرْكبُكُمْ قَدْ أوْغَلَتْ ... تَنْشُدُ الوَفَر عن الغورِ الضَنينْ [3]

د ـ *أمراض الجهاز التنفسي :*

تحدث الشاعر عن إصابة الغّواصين بأمراض الجهاز التنفسي والرئة إثر التعرض للمياه الباردة والحّارة ، وقد مزج الشاعر ذلك بالبعد الإنساني فصّور الغّواص وهو وحيداً يقضى الليل ما بين السُعال والوساوس والهموم التي تنتابه في الغربة فكأنها أبت إلا أن تنغص عليه وتجثم على صدره إلى جانب السعال والمتاعب :

ثم يأتي الليلُ من بعدِ الكَلالْ
خابيَ الأنجمِ مهزوزَ الظِّلالْ
فَيَرينُ الصمتُ إلا مِنْ سُعالْ
وأنينٍ وابتهالْ
فأقْضّي الليلَّ محمومَ الخيالْ
تَكْثُرُ الأوهامُ من حِولي أشباحاً ثقالْ
تُرْهُبُ القلبَ ، وتَمتْصُّ الثّباتْ [4]

إن هذا المقطع يجسّم رتابة الحياة التي يحياها الغّواص في الغربة ، وفي المزج بين (الليل والصمت والسعال والأنين والابتهال والأوهام) تعبير فني ناجح ساهم في إيصال أثر البحر على صحة الغّواص بمّا يسّببه من أمراض رئوية

---

(1) علي خليفة . أنين الصواري ، ص 26 .

(2) الدول : أنظر ، ص .

(3) علي خليفة ،" قصيدة إلى بحار لم يعُد" مجلة هنا البحرين ، ص 30.

(4) علي خليفة ، م . س ، ص 55 .

حادة تبدو في السعال وارتفاع درجة الحرارة ، جـرّاء الغـوص في أعمـاق البحِـار ومياهـا البـاردة، والصـعود إلى جو حار على ظهر السفينة .

وقد أوحت كلمة (الليل) إلى جانب ما تقّدم بالهدَوء والراحة ؛ إلا إنه هدوء رتيب ، وصمت ثقيل ممل ؛ فلياليِ الغوص لياليٍ نابغية تغلفّها الهموم والأحزان .

ولعل الشاعر أراد أن يوضح لنا في هذا الجزء حقيقة مفادها ألا راحة في رحلة الغوص ، فالآلام والأوهام تنغّص على الغّـواص صفو ساعات الهدوء ، حيث يطارده السعال والأنين ؛ وفي استخدام (حروف العطف) ما يؤكد ذلك فموضع الآلام في الصدر ، ووسيلة الخلاص منها هي الدعاء والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى.

إن هذا المقطع الصغير يؤكد أن ليالي الغوص ليست ليالي يشيع فيها الطرب والأنس ؛ إنها ليالٍ تشيع فيها الوساوس والأوهـام والخوف من المجهول ؛ إنها ليالي الغربة وسط أمواج البحر العاتي ؛ لذلك وصف الشاعر نجوم هذه الليالي بأنها غاربة ، ومهزوزة الظلال ، ولا عجب في ذلك الوصف إنه وصف يؤكد الإحساس بمعاناة هؤلاء الغّواصين البسطاء ونقلها بدقة بعد المعايشة ، وفي ذلك تجربة صادقة سبرت أغوار واقع رحلة الغوص وعبّرت عن إحساس الشاعر دُون اختلاق أو انفعال كاذب حـول ليـالي الغوص[1] .

هـ– أمراض الجلد :

أما أمراض الجلد التي يتعرّض لها البحّارة فقد أبرزها الشاعر لبيان ما يتعرض له الغّواص من أمراض جلدية جـرّاء اسـتخدام الحبال والمياه المالحة :

هذه كفيِ فَسْلْهاَ
سَلْ جفافَ الجلدِ آثارَ حِبالٍ مزقتها؟ [2]

إن الكف هنا صورها تشبه الإنسان الذي يتحدث ويجيب عن السؤال ، والكف علامة بارزة ودليل على مبلغ الخطورة والمعاناة ، وتلك صورة جزئية وردت ضمن صورة كلية نشاهد من خلالها آثار رحلة الغوص والبحر في الغّواص وكما رسمها الشـاعر وربط بين أجزائها بالجملة الإخبارية التقريرية (هذه – كفي) ثم أتبع ذلك الطلب في فعل الأمر والذي تكرر مـرتين لغـرض إظهار الجانب السلبي في هذه الرحلة ، وقد خدم التقابل ما بين جفاف الجلد وآثار الحبال مراد الشاعر من التعبير ؛ فشّد الحبل وهو عمل بعض شخصيات الغوص له أثره المباشر في اليد وهو التمزق ممّا يشير إلى القسوة والشّدة التي يواجهها الغّواصون في البحر ورحلة الغوص ، سواء أكان ذلك أثناء الصعود إلى السفينة أو الهبوط إلى قاع البحر حيث تستخدم الحبال أثنـاء هـذه العملية ،وتلك مشاهد ومواقف مستمدة من واقع مجتمع الغوص ومن ذلك قوله :

---

(1) محمد جابر الأنصاري ، مسامرات جاحظية ، فلنفهم معنى النقد ، في جريدة الأضواء ، البحرين ،(22 ديسمبر 1966) ، لا – ص

(2) علي خليفة ، م . س ، ص 32 .

وأرى أيدي الرِّجالْ
خرَّ شتها كثرةُ الملحِ وأدْمتْها الحِبالْ [1]

إنها حياة مميتة وقرينة ذلك (كثرة الملح) الدال في السياق على العقم والموات وما ذلك لإجهاد الغّواص وتحمله مشّاق الرحلة ، فهو جريح وجراحه تبدأ من اليد التي (أدمتها الحبال) بسبب خشونتها وملوحة المياه .

ولعل من المناسب في هذا السياق العودة إلى أحاديث الذكريات ذكريات الشاعر حول تهكم (الغّواص الشيخ) الوالد وسخريته من وسائل المدنيه الحديثة التي تتوافر لجيل الأبناء ، وسهولة العيش مقارنة بأيام الشقاء التي كان يعيشها الآباء ، فالشاعر يتذكر أقوال الوالد بأن استخدام الصابون مظهر من مظاهر النعومة التي لا تليق بخشونة الرجولة والحياة الصلبة [2] لقد كان ظهور الصابون آنذاك موضع تندر واستهزاء فحينما ظهر لأول مره عاب الناس استخدامه وتجنبه الكثيرون حتى لا يتهموا بالميل لحياة الليونة . [3] .

وجدير بنا في هذا السياق أن نشير إلى السِّيب الذي لم يتطرق الشاعر إليه بذكر اسمه حرفياً ، إلا أنه هو المقصود في المقطع أعلاه ، فمن غيره يمسك بالحبل الذي يسحب به الغّواص؟ " لذا تتقيح يده من ملوحة البحر والرطوبة وعدم توافر وسائل النظافة على سطح السفينة ، ولمسكه الحبل الذي يشد به الغّواص حتى يهترئ جلد يده ويظهر جلد آخر مّما يتعب يديه كثيراً ، وكذلك التجديف الذي يقوم به أحيانا بيديه ، إضافة إلى فتح الصدف مع باقي البحّارة.

وفي وصف سيف مرزوق الشملان لعمل السِّيب ما يوضح ذلك فهو يقول (... أضف إلى هذا وقوف السِّيب ساعات طويلة عندما يعمل في جّر الغّواص والعرق يتصبب من جسمه ، والدّم ينزل إلى ساقيه وقدميه وهو واقف كالطود الاشم بكل معنى الرجولة والنبل ، والصبر على هذا العمل الشاق ؛ حتى أن الحيوانات للحقيقة والتاريخ ترتاح ويقدم لها الأكل . أما السِّيب فلا يرتاح مطلقاً منذ الفجر وحتى بعد الغروب ..." [4] .

حقاً إنه لموقف جدير بالإعجاب ، وتلك المعاني هي ما أراد الشاعر التعّبير عنها فكان موفّقاً في رسم مشهد وقوف السِّيب والحبل بيده التي تقيحت من ملوحة الماء و خشونة الحبال .

أما أملاح مياه البحر فقد عّبر الشاعر عن آثارها في جلد الغّواص في بعض من القصائد فأشار إلى ما تسببه من آلام للبحارة .

و – أملاح البحر :

---

(1) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 54-55 .

(2) علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (9 اكتوبر 1994) .

(9) محمد جابر الأنصاري ، لمحات من الخليج العربي ، ص 94 .

(4) سيف مرزوق الشملان ، م . س ، 1/ 432 .

أشهر صفات البحر الملوحة " فمياهه ملحة مرّة مغثية والمواد الملحية الموجودة فيه بحسب التحليل الكيماوي هي كلورود الكلسيوم والمغنيسيوم وكبريتات المغنيسيا والكلس والصودا وكربونات المغنيسيا والكلس والبوتاسا واليود وغيرها ... وسبب ملوحة ماء البحر من الأجزاء الأرضية السبخة التي احترقت من تأثير الشمس واختلطت بالمياه وجعلتها ملحة بعد أن كانت عذبه " [1]

ولا شك أن وجود هذه المادة بعناصرها الكثيرة له تأثيره على الجسم إذ أن الغّواص يغوص لفترات طويلة في أعماق البحر ويتعّرض لأشعة الشمس مّما يسبب للجلد الجفاف والتهيج والحروق وغيرها من الأمراض الجلدية .

أما الشاعر فكما استخدم لفظة الملح للتعبير عن موات جلد اليد ، فإنه استخدمها في موضع آخر للتعبير عن إحساس الغّواص بالحزن والغربة والشقاء فربط بين جفاف الحياة وخشونتها وعقمها وبين لفظة الملح التي التحمت كما سنرى بآهة النّهام وصدى ألحانه الحزينة .

لقد أطلق الشاعر من خلال موالّويل النَّهام الشجية صرخة ألم دفينة صادره عن حنجرة قد ذاقت طعم الملح ممتزجاً بالطين ، فالملح هنا رمز لمرارة العيش والصّبر على الضيم الذي يتجرعه الغّواص :

واهْتزَّتِ الأوتارُ في سمعِ الدُّهورْ
لِصَرْخةِ الياملِ في اللحنِ الحزينْ
حَنَاجِرَ عَانَتْ
مذاقَ المِلحِ والطينِ ، وضَجّتْ بالأنينْ [2]

إنها صورة جميلة مؤثرة جمع فيها الشاعر بين ملوحة مياه البحر الحقيقية ، ومرارة الحياة بشظفها وقسوتها في أعماق البحر وعلى ظهر السفينة .

كما وظّف الشاعر لفظة البحر حينما تحدث عن هموم الغّواص الشيخ في قصيدة " جرح في ضمير الليل " في المقطع التالي :

عيناهُ تُومِض بالبريقْ
رغم اكتحال الجفنِ من رملِ القرارْ
يحكي لنا عَنْ جُرحِ أيّامِ الشَّبابْ
ويتِفُّ أملاحَ البِحَارْ
والدّاءُ ينخرُ في العِظامْ [3]

إن أملاح البحر التي يتفها الأب الجريح تؤكد مبلغ استيائه من نظام البحر والغوص ، بل تشّبعه حتى الاكتفاء بأملاح البحار ، وما أملاح البحار هنا إلا إشارة إلى ما يختزنه الغّواص الشيخ من قهر وضيم وصبر على الظلم وفي هذه العبارة البليغة تعبير عن

---

(1) بطرس البستاني ، دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب ، 209/5 – 210 .

(2) علي خليفة ، م . س ، ص 68 .

(3) علي خليفة ، م . ن ، ص 86

حياة اليأس بل العقم التي أصبح يحياها (الغّواص الشيخ) إنه الكبت الدفين في قلب الإنسان الذي يُقضى عليه شيئاً فشيئاً فالداء (الملح) قد تسرب وتأصل في الجسم إنه في (العظام) ومن الصعب أن يستأصل .

وفي موضع آخر استخدم الشاعر لفظة الملح في توضيح أثره الإيجابي موظّفاً التراث ، وهو ما كان يعتقده النـــاس في أن قطعـــة صغيرة من الملح يمّتصها الطفل قبل إفطاره تجعله أكثر استعداداً وسرعة في حفظ سور القرآن الكريم في الكتاب ، وذلك كان في جزء من قصيدة " من أوال الشط أحكي " :

إنني آكلُ ملْحاً كُلَّ صُبْحٍ وأُسَمِّي [1]
فَلذا أحفظُ سوره
ستراني أشربُ البحرَ إذا شئْتَ ، فَخُذْني
دونَ أن تُخْبِرِ أُمي [2]

إن الطفل في هذا المقطع يصّر على حفظ القرآن الكريم كي يتجه إلى العمل ويحل محل أبيه عبر أدوات تفيد التأكيد على هـــذا الإصرار (إن) و (كل) و (الفاء) .

ولعلّ التجربة التي عاشها الشاعر في طفولته المحرومة انعكست على مشاعره ووجدانه في هذه الأبيات فجاءت صـــورة ناطقـــة لطفولته وطفولة معظم أبناء جيله في تلك الفترة . فالتجربة الحياتية آثرت في التجربة الشعرية لدى الشاعر فأبدع هذه المـــزامير الرائعة .

والملح في سياق آخر هو المضّمد الذي يخفّف الجروح ويطهرها بل يزيلها ، فهو وصوت النّهام يتحدان في العمل علـــى التئـــام جراح المعذبين البائسين :

وسمعتَ (نَّهاماً) ضَريرْ
يَبكى... يَذُرُّ على الجْروحِ
مِلْحاً ، وَيَصْرُخُ في السَّماءْ [3]

وفي جزء من قصيدة " بذر الأرض الواهبة " تتكرر لفظة الملح لتدلل على فوائده الإيجابيـــة فهـــو المزيـــل أيضـــاً للـــهموم والجراح الممتـــزج بآلام المضطهدين والمقهورين امتـــزاجاً قد يخّفف من وطأة الأمر عليهم :-

---

(1) أسمي : أي أقول " بسم الله الرحمن الرحيم " .

(2) علي خليفة ، م.س ، ص 61 – 62.

(3) على خليفة ، م . ن ، ص 00 – 01 .

رَوِّني يا بحرُ مِلَحاً ، وأجلُ هَمَّ الأمسياتْ
وأنا الهَضمُ ... أنا الهضيمْ
حتّى الممات[1]

إن طلب الارتواء بمياه البحر المالحة في هذا السياق إشارة إلى أهمية الملح في إزالة المعاناة وجلاء الهموم ، لقد ربط الشاعر بين دور الملح كدوء حقيقي ، وبين دوره المعنوي في علاج النفوس التي تعاني الهموم والظلم .

كانت تلك مخاطر رحلة الغوص العامة بما فيها من تقلبات جوية وكوارث طبيعية تودي بحياة البّحارة إلى جانب خطر الأسماك المفترسة ، وأمراض الغوص من جلدية ورئوية ونفسية حسبما ورد في الدراسات ،والأبحاث ، إلى جانب توظّيف الشاعر لهـــا مركزاً عليها في أنين الصواري ومستّغلاً رحلة الغوص كجزء هام من عالم البحر للتعّبير عن إحساسه بمأساة الإنسان في هـــذه الرحله حيث وصف مياه البحر بالشيئ الذي يغّص به البحّارة تارة ، وأخرى صور بأنه قاع لرفات الغّواصين ، وحيناً هو قدر مكتوب عليهم ، وأحياناً هو صامت وحيناً آخر غضوب وهائج .

والجدول التالي يوضح القصائد التي أبان فيها الشاعر عن مخاطر وأهوال الغوص :

ديوان أنين الصواري :

القصيدة	الموضوع	الصفحة
على أبواب الرحلة الأولي	مخاطر البحر العامة	-33-30-29-28-27-26
صدى الأشواق	مخاطر البحر العامة	47-46-44-88
بذر الأرض الواهبة	مخاطر البحر العامة	71
أنين الصواري	مخاطر الأسماك	26
إلى بحّار لم يعد	مخاطر الأسماك	ليست ضمن الديوان [2]
أنين الصّواري	أمرا الجهاز التنفسي	55
على أبواب الرحلة الأولى	أمراض الجلد	32
أنين الصواري	أثر أملاح البحر	55
جرح في ضمير الليل	أثر أملاح البحر	86
من أوال الشط أحكي	الملح	61
بذر الأرض الواهبة	الملح	72 - 00

[1] على خليفة ، أنين الصواري ، ص 72 .

[2] أنظر ، الفصل الأول ، ص

لاشك أن رحلة الغوص ذاتها كمهنة . وما يتضمنها من صعاب ومشاق في البحر يترتب عليها آثار معنوية ، وهذه الآثار تنال كلاً من الغّواص ،وأسرته ، فالغّواص يعاني هموم الفقر والدين والغربة ، بينما الأسرة تعاني الوحدة والقلق والخوف على الغّواص في الغربة ، فالزوجة تعاني الشوق إلى الزوج والخوف على مستقبل الأبناء وللمعاناة آثارها في الأبناء .

رابعًا الآثار المعنوية المترتبة على رحلة الغوص

إن الآثار المعنوية تشمل هموم الغّواص وهي الفقر والدين والغربة ، كما تشمل هموم الزوجة وتتمثل في المشاعر تجاه الزوج الغائب والإحساس بالوحدة في المدينة المقفرة ، والخوف على مصير الأبناء الذين يشعرون بمعاناة الأم .

1- هموم الغّواص

أ- الفقر

لقد ارتبط الغّواص بالبحر ورحلة الغوص وخبره عن كثب واعتاده عن تجربة وأصبح لا يستطيع الاستغناء عنه فهو يحبه وينفر منه ، يميل إليه ميل الألفة والمعتاد عليه كمصدر رزق ، وينفر من أهواله وقوانينه المجحفة ، إذا فسبب ارتباط الغّواص بالبحر وألفته له كونه مصدر خير له ولأسرته لا بل إنه مصدر الحياة .

وقد وظّف علي خليفة الجانب الاقتصادي لبيان أثر البحر ورحلة الغوص على الغّواص وأسرته اجتماعياً ودليل ذلك قوله :

في بِحارٍ صَمْتُها الداجي يُخيفْ
آة لكنَّ الَرغيفْ
زادُنا ، والكلُ من جوعٍ يصيحْ [1]

إن نهاية المقطع تُلقي الضوء على الجانب الاقتصادي المؤثر في الإنسان من واقع مجتمع البحر ورحلة الغّوص فهو يشير إلى السبب في ارتباط الغّواص بالبحر على الرغم من مخاطره ، وكونه عالماً غامضاً مجهولاً ومخيفاً ومع عدم وضوح الرؤية المستقبلية حول مصير الغّواص وأسرته ، إلا أنه مجبر على معايشة البحر وأهواله وقرينة ذلك (آه) الداله على الحسرة والتوجّع التي وضّحت أزمة الغّواص وأسمعتنا زفرة خارجة من الأعماق ، إنها زفرة حادة ، إلا أنها دون نحيب ، ثم استدرك الغّواص بعد هذه (الآهه) الأمر موّضحاً موطنها وسببها (الرغيف) وهو هنا رمز وإشارة واضحة إلى الحاجة ودلالة بارزة على الفقر ، وتدني الحاله الاقتصاديه و الاجتماعية التي يحياها البحّار ، إنه يحيا حياة شظف العيش ، والكفاح من أجل الأبناء إن ذلك الجانب الاقتصادي لا يستطيع الإنسان الخلاص منه في مؤلفات الشاعر الكثير من الإشارات إلى الفقر ، وبساطة العيش ، إذ أن تلك ناحية عانى منها الغّواص فهي قد أوقعته في قضايا اقتصادية لها أبعاد إنسانية اجتماعية قد أثرت عليه وعلى أسرته سلباً ومنها قضية الدين .

ب- معاناة الدين :

إن معالم الصورة الحقيقية للبؤس والفقر في مجتمع الغوص تتضح في قول الشاعر متّحداً بشخصية الغّواص وموظفاً خبرته بقانون البحر :

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 30 .

جُلّ ما يَصفَى لنا لِلدَينِ والباقي زهيدْ
لا يفي قوتُ العِيالْ
يَالَهُ ديانُنا الفظُ الصَّفيقْ !!
كجموعِ الدودِ في أمْعَاءِ غّواص فقيرْ [1]

إن هذه الأسطر الشعرية توجز السّبب في فقر الغّواص الدائم مع وفرة خيرات البحر في موازنة عكسية أيضاً فالمخاطر والجهد المبذول من الغّواص في رحلة الغوص لا يقابله إلا العطاء القليل مّما يضطّره إلى الدين من صاحب السفينة ، فهو وإن عمل تحت أشعة الشمس الحارقة ، وفي أعماق مياه البحر طوال اليوم فان صاحب السفينة يستأثر بخمس المحصول بعد بيعه ، والباقي يوّزع بين البحّارة بنسب هي كالتالي الغّواص (50%) من الأرباح ، السيب (30%) ، والرضيف (20%) ، وأما التباب فليس له أي شئ سوى فائدة الغّوص [2] والأكل ، أما صاحب السفينة فيكون قد اقتطع لنفسه خمس إيراد اللؤلؤ أولاً ، إلى جانب اقتطاع مصاريف الزاد من الغّواصين وذلك طوال فترة رحلة الغوص . إن ذلك التوزيع كان يدفع بالغّواص إلى الاستدانة من صاحب السفينة .

وقد أشار علي خليفة إلى معاناة الغّواص هموم الدين حينما وصف (الدّيان) في هذا المقطع بـ (بالصفيق) و(جموع الدود) التي تنهش في أمعاء إنسان مريض ، مّما يوحي ببشاعة صاحب السفينة ، والموقف السلبي تجاه وقانون الغوص المضطهد للغّواص ، فتلك المعاني رمز إلى قضية أعمق وأعم من قضية الغّواص إنها قضية الفقر ، والظلم، والاستغلال في المجتمع وقد أبان عنها الشاعر عبر أدوات فنية تتمثل في العبارات الإنشائية الدالة على الدهشة من موقف صاحب السفينة ، ومنها حرف (الكاف) الذي ورد في معرض الربط بين (الدود) و(صاحب السفينة) .

وبذلك نجد أن علي خليفة سّجل في هذا المقطع صورة حقيقية من واقع مجتمع الغوص فالديُون كان لها خطورتها على الغّواص فقد كانت تكبله بقيود لا يستطيع الفكاك منها ، و لم تكن هناك قوانين تنظم عملية الديون ، ولا يمكنه الفكاك من دَيْنه إنه لا يقرأ ولا يكتب ، وليس هناك ما يوثّق الديون التي اقترضها ، مّما يجعله أجيراً يخدم صاحب السفينة مادام في صحة جيدة ، فمهما عومل بقسوة لا يمكنه أن يترك هذه المهنة بل إنه لا يترك المدينة ، حتى تؤخذ عليه المواثيق بالعودة [4] . إن هذه القضية امتدت آثارها إلى أسرة الغّواص ، فهو إذا توفى ، أو مرض ، أو عجز ، فإن أولاده ملزمون بسداد الدين

وذلك ما تردد صداه في بعض قصائد [5] علي خليفة حول إعداد الطفل الصبي تّباباً ، وقد يمتد هذا البعد الاجتماعي إلى زوجة الغّواص حين لا يتمكن الأبناء من سداد [6] الدين المتبقي على الأب ففي بعض الحالات كان صاحب السفينة يتزوج من أرملة البّحار المتوفى أو يستولي على البيت الذي تعيش فيه الأسرة [7] .

---

(1) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 26 .

(2) محمد بن خليفة بن حمد ، م.س ، ص 17 .

(4) عبد الله خليفة الشملان ، م . س ،ص 66-67 ، محمد غانم الرميحي ، و التغير ، ص 104 .

(5) أنظر ، ص

(6) تدخلت الحكومة أبتداءً من سنه (1323) وعّدلت بعض أنظمة الغوص ، ووضعت أنظمة جديدة تحمي البحارة ، عدم مطالبته أسرة الغّواص بالدين بعد وفاته ووضع حد لظاهرة الدُيون التي الُدفع للبحارة ، عبد الله خليفة الشملان ، م.س ، ص 137 .

(7) محمد غانم الرميحي ، م.س ، ص 274 .

مِحنَتي رِزْقي وَأَرْضي
وَخسِيسٌ يمْتَطَي بُوْسّي جَوَادَاً
لِيُعْري زَوجتي شَرْعَاً ويَمْضي [1]
وأَنا المطعُوُنْ في أعماقِ سِّجْني

لقد تمّثل الشاعر محنة الغّواص مع البحر وصاحب السفينة فوظّفها كقضية اجتماعية ملفتاً الأنظار إليها كحقيقة مستمدة من مجتمع الغوص وعاداته وقوانينه التي تكبل الغّواص وأسرته ، فاستخدم تلك الحقيقة استخداماً يدل على الوعي بهموم المشتغلين في البحر وأسرِهم . وتبلغ المأساة أوجها في الصورة المزرية التي رسمها الشاعر لزوجة الغّواص السجين بسبب الدين ، لتصبح بين عشية وضحاها زوجة صاحب الدين الجشع ، فأراد أن يوضح أن الزواج يتم دون دفع مهر لزوج الغّواص سداداً للدين المتبقي على الزوج ، وذلك ليس تعرية شرعاً إنما هو احتيال على قوانين الشرع ومنها عقد الزواج الذي من شروطه دفع المهر للزوجة ، فالمعنى الذي أراده الشاعر أن الزواج يتم بحكم قانون الجشع وسببه التحكم في حياة الإنسان البسيط ، وهو هنا ليس حكم الشريعة السماوية إنه حكم القانون الجائر الذي أكره الزوجة على الزواج رغم أنفها وكأنها أمَة تباع وتشترى . وفي هذا الجزء يمتزج الجانب الاقتصادي بالبعد الإنساني والاجتماعي فالبعد الاقتصادي يتلّخص في عبارة (محنتي رزقي) التي تعبّر عن الفقر والحاجة إلى ما يسد كفاف (أسرته) ودليل على ذلك تتابع الألفاظ الموحية باستمرار الوضع المتدني ، والحروف التي تتابعت أيضاً لتربط بين الأسطر فحرف العطف (الواو) ربط بين معاناة الغّواص وهي المحنة بالنتيجة والسبب وهو الخِسة الموجودة في صاحب السفينة مّما يثير الدهشة . ويدعو إلى الوقوف سلباً تجاه صاحب السفينة الذي يمتطي يؤس الغّواص جواداً وفي ذلك كناية توضح استغلال الموقف ن فصورة البؤس مثل الجواد وصاحب السفينة هو الفارس الذي يمتطيه وذلك دِلالة على قوته وسطوته مقابل ضعف الغّواص وشدة حاجته فهو فارس وحشي متسلط يعيش على آلام الآخرين .

ومن أقوال الشاعر حول قضية الدَين أيضاً :

بَعْد أنْ عاش سّنَ العمرِ مَصْلُوبَ الحياهْ
بينَ أفواهٍ تُنادي ...
ومُنادٍ هات مِنْ دَيْنكَ هاتْ [2]

حول هذه القضية يقول الدكتور محمد جابر الأنصاري : " ... ولعل أبدع شعر بحريني يصّور واقع الغّواص المأساوي الدامي هذا المقطع الصغير الذي لخصَّ المأساة في صورة شعرية ستبقى محفورة في تاريخنا الشعري المعاصر ... فتصُور هذا " الصليب " القاسي الدامي عُلق عليه الغّواص بين أصوات أبنائه الجائعين وبين طلبات تّجار الغوص المجحفة الظالمة ، إنني لا يسعني إلا أن أقدم التهنئة للشاعر الناشئ على مقطعه الرائع هذا ... [3] .

---

(1) علي خليفة ، م.س ، ص 62 .

(2) علي خليفة ، م . ن ، ص 62 ,

(3) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 53 .

وقد كان ذلك النقد في عام (1965- 1966) عندما بدأ علي خليفة ينشر محاولاته الأدبية ، حيث نصحه محمد جابر الأنصاري بقراءة الشعر العربي القديم والحديث وكُتب النقد الأدبي بشكل عام مُشيداً بمحاولاته الأدبية .

وتُختتم هذه القصيدة بأهة نسمع منها حسرة الغّواص بعد أن عجز ولفظه البحر فأصبح وحده على الشاطئ وهو يردد عبارات قد تّكررت معانيها في القصيدة من قبل وهى تخلي البحر عنه بعد سنوات الكدح ، فأصبح ملقىً على الشاطئ كالنفايات الحقيرة ، وفي ذلك التكرار ما يفيد مدى الألم والسأم اللذين يجتاحان الغّواص في الوقت نفسه :

إيه يا بحْر حكايانا كثيرهْ
كَدّني الغوصُ ، ومازِلْتُ أسيرهْ
هَاهُمُ قدْ خلَّفوني... [2]
كبقايا ... من نُفايات حقيرهْ

ج- معاناة الغربة :

وتتراكم الهموم على الغّواص فهو يعاني الفقر والدين الذي يضطر إليه بسبب الحاجة ، ويعاني الغربة في رحلة الغوص، إنها الغربة مع المجهول ، ومعايشة البحر ، بأهواله حيث لا أنيس إلا الفضاء الرحب ، إنها الغربة بعيداً عن الأهل والأرض ، والمدينة ، وهنا يبدو الشوق والحنين إلى الحياة الآمنة ، وإلى العائلة والأحباب ، ولذلك جاءت الأبيات في أقوال شاعرنا معبّره عن طابع الحزن والألم والذي أخفاه الغّواص في صدره زمناً طويلاً :

من رجالٍ طبَّعو النفّسَ الثباتْ
واستهانوا بالحياهْ ...
بِا لشَّقاءِ المرِّفي كُلِّ الحياهْ
غَرَّبوا بالهـــمِّ في ليلِ العذاب... [3]

وتارة يقول الشاعر ناصحاً الغّواص الصغير بالصّبر وتحمل الغربة :

سَتجدْ في النفّس إحساساً ... يُغالِي
جامحاً بالـــحُبِّ للأرضِ ، وللدَّاعين
من جَمْعِ الأهالي [1]

إن عالم البِحار الغامض يكشف عن جوٍ مأساوي ويدل على محنة الغّواص في الغربة إنه يعاني القهـــر و الاضـــطهاد ممتـــزجين بالغربة ، ونكتشف معاني ذلك عبر حنجره النَّهام وآهاته الحزينه وصدى صوته المبحوح :

---

(2) مسامرات جاحظية ، فلفهم معنى النقد ، م.س ، البحرين ، (22 ديسمبر 1966) ، لا – ص

(3) علي خليفة ، م . س ، ص 57 .

(1) على خليفة ، م.ن ، ص 28 .

يا أصدقائي الطّيبينْ ،
هذا الذي قالتهُ أصداءُ السِّنينْ
واهتَّزتِ الأووتارُ في سمعِ الدُّهورْ
لصرخةِ الياماﻟ في اللحنِ الحزينْ [1]

والغربة والشعور بالوحدة تقضي على الغّواص أن يسهر الليل وقد أحاطت به الأوهام والوساوس . والمخاوف التي صورها تشبه صورة الأشباح الثقيلة التي تستهدف القلب فتحث فيه الخوف وتسلب منه العزم .

فأقضّي اللّيلَ محمومَ الخيالْ
تُكثرُ الأوهامُ من حولَ أشباحاً ثقالْ
تُرهُب القلبَ ، وتمتصُّ الثّباتْ [2]

والغربة تطارد الغّواص على الأرض ، فبعد أن يعجز عن اللحاق بالرفاق يشعر فوق اليابسة بنوع من الغربة الموحشة التي لم يألفها ، و لم لا يشعر بذلك ؟ والجميع قد رحل عدا الأطفال والنساء والرجال المسنين :

يالَعِمْلاقِ طعينِ الكِبْرياءْ
بَعضُ إنْسانٍ على الشاطئ مُلْقىً كالرُّفاتْ
عَافةُ البحرُ وأَرْدَتْهُ قوانينُ الطُغَاةِ [3]

إن هذين المقطعين يعبّران عن قصة الغّواص الشيخ ، حيث يشاهد مرمياً على شاطئ البحر يجتر الذكريات والآلام عبر معانٍ توحي بالندم والحسرة التي تمتد وتتزايد بإبحار الرفاق ، وعجزه عن اللحاق بهم بعد انقضاء سنوات الشباب .

ونستخلص مّما تقّدم أن الشاعر أراد من خلال هذه الأبيات الإشارة قانون الغوص الذي لم يرحم الغّواص في أشد فترات حياته حرجاً و لم يُؤمّن على مستقبله ومستقبل أسرته بعد دورة حياة شاقة بدأها الغّواص طفلاً (تباباً) يرتاد البِحار ، واختتمها بجلوسه وحيداً عاجزاً عن مواصلة الكدح مع الرفاق فتلك هي الغربة غربة في أعماق البحر وعلى الأرض .

---

(1) على خليفة ، م. ن ، ص 28 .

(2) على خليفة ، انين الصواري ، ص 55 .

(3) علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 464 .

إن قصيدة " أنين الصواري " التي سمي الديوان باسمها ذات أهمية فهي تحكي تجربة حياتية إنسانية كان يمر بها الغّــواص آنــذاك ويمكن أن يتعّرض لها الإنسان المعاصر ؛ إنها تجربة تحكي جانباً من الظلم الواقع على الإنسان ، فهي صرخة ألم تعبّر عن معانــاة شاملة في كل زمان ومكان فالبحر في هذه التجربة الشعرية قضية ادرك الشاعر أبعادها المأساوية مستعيناً بسمو المعاني وبساطتها في آن واحد وتفعيلة بحر الرمال الغنائية العميقة (فاعلاتن) وامتدادات " ألف القافية التي تشبه على المستويين الصوتي والتشكيلي امتداد آهة الغّواص واتصال زفراته مّما قللّ من الرصد الخارجي للصورة وجعلها ذات أبعاد عميقة معبّرة عن وجدان الغّواص " مع إضافة بعض التفاصيل الجزائية لعالم الغوص [1] .

نهّاية الغّواص :

ونرى الغّواص الشيخ في قصيدة " جرح في ضمير الليل " بقايا إنسان قد أشرف على النهاية بعد أن حطمته الأيام ، ونالت منه السنون ، فأصبح عاجزاً مسلوب القوة التي لم يبق من آثارها إلا بريق العينين :

وأبي الكسيحُ عِلى الفراشِ بلا حراكْ
شُلّتْ قواهُ ، ولَمْ تَزَلْ
عيناهُ تُومضُ بالبريقْ [2]

لقد أبان الشاعر هنا بإيجاز عن نهاية الغّواص بعد كفاح مرير ، حينما رسم صورته وهو على فراش المرض وربط بإحكام في هذا المشهد بين هموم الغّواص وأسرته التي تعاني لمعاناته .

وفي الصورة أيضاً ما يوحي بالضعف والسلبية تجاه نظام الغوص من جهة ؛ إلا أن العين التي تومض بالبريق توحي ببقايا التحدى للوضع من جهة أخرى ، ومع ذلك تتصدر معاني الضعف والاستسلام المشهد (أبي الكسيح على الفراش) و (بلاحــراك) و(يتف أملاح البحار) ، مّما يفيد نهايه الغّواص ويؤذن بالشلل التام وجمود الحياة في مجتمع الغوص (فالداء ينخر في العظــام) ويصعب استئصاله .

تلك كانت نهاية الغّواص فالإرادة مقيده وعاجزة عن فعل أي شيئ ، إنه استسلام الضعيف أمام دورة الحياة التي لا بد منها إلى جانب إنه لم يجد ما يخفف عنه وطأة تلك الدورة في مجتمع الغوص البحري .

2- هموم الزوجة :

أ- المشاعر تجاه الزوج الغائب .

أبان الشاعر في قصيدة " صدى الأشواق " عن الشوق الجارف المتأجج في قلب زوجة الغّواص والتي تخاطب في بعض الأســطر المرآه وتصفها بالرعناء ، وكأنما تعني هذه الزوجة صورتها المنعكسة على المرآة ، فهي تغوص في أعماق هذه المرأة لتكشف لنا عّما بداخلها من أشواق تمتــزج بالسعادة لقرب اللقاء بالزوج :

---

[1] علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 464 .

[2] علي خليفة ، م . ن ، ص 86.

واشتِياقٌ لو تعَّرى
بانَ مجنونُ الرغائبْ
ما الذي ألبسُ يامرِآتيَ الرعناء ... قُولي
نَشْلِىَ [1] المزدانَ بالنجماتِ والكمِّ الطويلِ ؟ [2]

ومن الأقوال التي تصّور أشواق الزوجة في قصيدة " صدى الأشواق "

يا حبيبي
سوفَ ألقاكَ بتهليلي ، وأنغام الطُّبول
سوفَ يلقاكَ ابتهالي [3]

وفي المقطع الرابع تعبّر الزوجة عن فرحتها واستعدادها للقاء الزوج بعد شوق وحنين وانتظار :

يا حبيبي
سوفَ أحكي لكَ عَنْ شوقي جهاراً
...
عن حكايات الزمانْ
عن (مُرادة) [4] العَذارى
عصر يوم العيدِ ... عْن كلِّ السَّهارى
في أمانْ [5]

وفي تصوير أشواق الزوجة تجاه الزوج الغائب ؛ أبان الشاعر عن صور من التراث والتقاليد المتّبعة في المجتمع البحريني فنقل لنا جزءاً من الحياة الاجتماعية من خلال أدوات الزينة التي كانت تستخدم كالثياب الشعبية التي كانت ترتدى في المناسبات والأعياد ، والرقصات والأغاني الشعبية التي كانت تؤدّى حين استقبال الغّواصين وأثناء فترة غيابهم مثل رقصة المرادة .

و المقاطع السابقة توضح جانباً من تناغم الحياة بين الغّواص العائد وزوجته المنتظرة بالشوق قبل عودته من رحلة الغوص ، ومّما يخفف من معاناة الزوجة إنشاد الأناشيد المعبّرة في حركات جميلة ، حيث تجتمع النسوة كل يوم من بعد المغرب لأداء الرقصات وهن مزينات بثياب وجلابيب طويلة ، وذلك على شاطئ البحر أو في الأماكن البعيدة عن أعين الرجال المسنين الذين لم يذهبوا للغوص حيث تكون المدينة شبه خالية من الرجال .

---

(1) النشل : زي شعبي جميل كانت ترتديه المرأة الخليجية في الأفراح والمناسبات .

(2) علي خليفة ، م.س ، ص 37 .

(3) علي خليفة ، م . ن ، ص 37 .

(4) المرادة ، رقصة شعبية جميلة تؤديها النساء في المناسبات السعيدة لاسيما الأعياد واستقبال الغواصين حيث ترتدي النساء الملابس الجميلة ويقفن مجموعتين متقابلتين الأولى تنتقل إلى الثانية والعكس وهن يردّدن أغاني شعبية خاصه بالمناسبة ويكون الغناء بالتناوب من المجموعتين .

(5) علي خليفة ، م.س ، ص 47 – 41 .

لقد احتلت الآثار المعنوية المترتبة على رحلة الغوص مساحة من قصائد أنين الصواري حيث كشف الشاعر عن هموم الغّواص وأسرته وسط صور من الحياة الاجتماعية السائدة آنذاك والتي وظّفها ، في بيان الآثار المعنوية الناجمة عن مهنة الغوص والجدول التالي يوضح القصائد التيى تضمنت التعبير عن هموم الغّواص وأسرته :

أنين الصواري

القصيدة	الصفحة
على أبواب الرحلة الأولى	30-19
صدى الأشواق	88-36-35
أنين الصواري	58-57-56-55-53-52-51
من أوال الشط أحكي	61-60-59
بذر الأرض الواهبة	00-68
زغب الطيور الجارحة	47-46-45-44-43
جرح في ضمير الليل	99-88-87-86

ب: المشاعر تجاه المدينة المقفرة : –

أما المدينة فترة غياب الغّواصين ، وكما صّورها الشاعر فإنها تعّبر أيضاً عن شوق الزوجة ومعاناتها ، وقد ورد ذكر المدينة في قصيدة " صدى الأشواق " فقط ، والتي أشار فيها الشاعر إلى مسقط رأسه ومركز مجتمع الغوص ، المحرق ، نسمع في المقطع الأخير من هذه القصيدة وعلى لسان الزوجة آهة مخنوقة تصف ليل المحرق :

سوفَ أحكي لكَ عن ليل المُحّرقْ
حينما يخلو من النّايِ المؤرَقْ
في الليالي المقمراتْ
يسكبُ اللّحنَ العراقّي الحزينْ
طارقاً كلَّ الحواري والجِهاتْ
حيَن يَغْرَقْ
في متاهاتِ الظلامْ
وطُيورُ الليلِ حيرى ... لاتنامْ [1]

إن العبارات والألفاظ تدل في هذا المقطع على حيرة الزوجة فترة غياب الزوج والتي انعكست على المدينة ، إنها مدينة تبدو خالية من مظاهر الحياة فليلها موحش مقفر لا أنس فيه ، ولا أحاديث سمر ، ومظهر ذلك نجده في الحواري والأحياء السكنية المغرقة في الظلام وما ينتاب سكانها الباقين من إحساس بالضياع والقلق ، لقد خلت المدينة في إحساس الزوجة فترة غياب الغّواصين من مظاهر البهجة والحركة ، فما عاد يسمع في حاراتها إلا لحناً عراقياً ، بل إن هذا اللحن يشارك أهل المدينة همومهم فهو لحن حزين .

---

(1) علي حليفة ، أنين الصواري ، ص 42 .

إن توظّيف الشاعر للمدينة في هذا المقطع كان موفقاً ، فكما فقدت الأم والزوجة والأخت وجميع الناس أبناءهم الذين ذهبوا في رحلة الغوص ، لابد أن تفقد المدينة أيضاً هؤلاء الأبناء فترة رحيلهم إلى البحر وكأنها تشارك الأهالي وتعكس بؤسهم وحالهم . فالمحرق في السياق معلم حضاري ورمز الأم والزوجة والأرض التي فقدت جزءاً منها إنهم الأبناء الغّواصون .

أما اللحن المميز الذي تتكرر ذكره في هذه القصيدة وفي مواقف مختلفة فإنه دلالة على أهمية الموّال وهو جزء من التراث ذو صلة بالبحر في رحلة الغوص حيث تمتزج تلك الألحان الحزينة المؤثرة بأحاسيس الغواصين والأهالي فتعّبر عّما يشعرون ويريدون البوح به ، وإلى جانب ذلك دلالة أخرى وهي تأثر شاعرنا بالموّال الذي انصهر به وبدأ أثره واضحاً في معاني الحزن والشجن التي تغلف قصائده ، لذلك استمعنا في هذا الجزء إلى اللحن من خلال آهة الألم والحسرة في صوت المرأة زوجة الغّواص والشاعر معاً ، وكانت آهة صاقة صادرة عن نفس ذاقت مرارة الشوق .

ج- هموم الأم تجاه الابن .

ولا تزال زوجة الغّواص تعاني كأم سواء أكان ذلك فترة غياب الزوج أم حين عودته ، إنها معاناة دائمة ، فالهموم التي احتلت مساحة من قصائد الديوان الأول غابت عن سائر الدواوين ؛ ذلك لأن الشاعر أصبح في زاوية تسمح له برؤية تجعله قادراً على التعبير عن هموم المجتمع وقضاياه ، وهمومه الذاتية مستعيناً بالرمز ، وفلسفته ومواقفه من الحياة بعد أن كان يحكي الواقع بصورة مباشرة وتلقائية .

إن هموم أسّرة الغّواص تركزت في ديوانه الأول في عددٍ من القصائد أكثر من غيرها إذ نجدها في قصيدة " زغب الطيور الجارحة " [1] وقصيدة " من أوال الشط احكي " [2] وقصيدة " جرح في ضمير الليل " [3] فإن القصيدة الأولى توضح هموم الأم في المجتمع البحري من خلال خوفها على طفلها وذلك لما عاشته من بؤس وحرمان أثناء عمل الزوج في البحر ، ثم مرضه وعجزه بعد سنوات الكفاح فهي تخاف أن يعيش الأبن المأساة نفسها ، وتبدو تلك الهموم في توالي الأسئلة الحائرة في إيقاع سريع ، واتحاد السطر الشعري بقافية واحدة :-

ما الَذّي يُبكِيكَ يا طَفِلْي الحَبيبْ
ما لَهَا عيناكَ ، والحُزنُ المرُيبْ
وانكفاءُ القلقِ المُبهم في يومٍ عَصيبْ
وهمومُ الشمسِ في يومٍ شَتائيٍ كئيبْ ؟!
مالها عيناكَ ، يا طفليَ الحَبيبْ
تّذْ رَفانِ الدَّمعِ في صمتٍ غَريبْ [4]

إن الشاعر يقترب في هذه الأسطر الشعرية من ملامسة الواقع ويعايش أحداثه في رؤية واضحة محددة أكثر مّما سبق مشيراً إلى جذور ذلك الواقع وأبعاده الاجتماعية . إن هذه الجذور هي البحر ورحلة الغوص التي تركت آثارها في أسرة الغّواص من بعده ،

---

[1] أنظر ، ص 48 .

[2] أنظر ، ص 59 – 65 .

[3] أنظر ، ص 85-82.

[4] على خليفة ، م . س ، ص 48 .

وقد كشف الشاعر من خلال ذلك عن حياة الحرمان في مجتمع الغوص البحري ، وإن أراد جهة أخـــرى المجتمعـــات الفقـــيرة إطلاقاً . استعان في إبراز هذه الأفكار والمعاني بالأداء الفني ، والتعبير المؤثر .

أما الجانب الفني فيبدو في هذا الجزء من خلال استعانته بالاستفهام إذ تكرر حرف الاستفهام (ما) في السطر الأول وسطرين آخـــرين ، وإلى جانـــب الاســـتفهام اســـتخدم حـــرف النـــداء (اليـــا) وفيـــه نلحـــظ الحســـرة لحـــال الطفل ، وقد تكرر النداء أيضاً في السطر الخامس وذلك في قول الأم يا (لطفلي الحبيب) وقد استخدم حرف العطف (الواو) أيضاً ثلاث مرات ، وفي تكرار هذه الأدوات ما يبرز المعاني ويوضحها ويوحي بلهفة المتحدث ومحاولة استبطان ما في أغـــوار المُتحدث إليه .

إن العبارات في هذا الجزء تتضمن معان وأفكاراً معّبره ، أبان عنها الشاعر من خلال الوسائل الفنية المتمثلة في الصور الخيالية ، وأدوات النداء ، والعطف ، والاستفهام ، وقد لجأ الشاعر إلى الحوار الثنائي الداخلي المعبّر عن قلق الأم تجاه الطفل مركزاً على كلمة العين ؛ ذلك لأنها المصدر الذي تشع منه علامات الرضا والراحة ، أو العذاب والشقاء ، فالعين رمز البراءة والإشراق في الطفولة وقد اعترتها هنا آثار الشقاء الكئيب المظلم فما عدنا نرى فيها إلا القلق والدموع .

ويشير الشاعر في جزء آخر من قصيدة " زغب الطيور الجارحة " إلى أثر مهنة الغوص في الآباء والأبناء إلى جانب منهة الزراعة معبّراً عن قلق الأم المستمر على مستقبل الابن :

إنَّها ذكرى لأيَّامٍ عصيبهْ
يالها كانت جراحاتٍ خضيبهْ
يا ملاكي ،
كلُّ آبائِكَ عاشوا للنخيلْ
للحبالْ
أكلو التَّمرَ وديدانَ الحقولْ
واستعانوا بالجريشْ
في سنين الجوعِ ... في الماضي القريبْ [1]

إن لهفة الأم على ابنها تتمثل في خوفها عليه أن يعيش ما عاشه الآباء من (خطوب) و (أيام عصيبة) وسنوات تتمثل في فقر من علاماته أكل (التمر) (الديدان) (الجريش) تلك المعاناة التي قد طالت أجساد الآباء والأجداد إنها (جراحات خضيبة) تركت آثارها في المجتمع ، والأهل الذين يتملكهم الخوف على الأبناء .

وقد ربط الشاعر في هذا الجزء ربطاً محكماً بين مجتمع النخله والغوص ، وكأنه يريد القول بأن قضية الغّواص والفلاح واحـــدة وهي الفقر والجوع ، وقد ورد ذلك في تفاصيل الصورة الشعرية بشكل طبيعي ومعبّر عن انتماء الإنسان البحريني إلى البحـــر والنخلة ، وليس بالضرورة أن يكون في مجتمع النخلة بشكله الخاص والذي يقود إلى الفصل بين المجتمع البحريني ، فأهل البحرين

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 47 .

قد امتهنوا حرفة الغوص على اللؤلؤ إلى جانب الزراعة؛ والبحرين على صغر مساحتها كانت تسمى بلد المليون نخلة ، فضلاً عن تسميتها بلؤلؤة الخليج ، وكما تقدم أن الشاعر كان شديد الاتصال بالنخلة والشجرة منذ طفولته بغض النظر عن مجتمع البحر والنخلة ، فقد كانت النخلة والشجرة تحتل فناء بيت أجداده وتحتل أراضي جزيرة المحرق ونواحيها بمّا فيها من حقول ومزارع وبساتين . وقد عبّر شاعرنا في ديوانه الثاني باللهجة العامية وهو عطش النخيل عن الانتماء إلى مجتمع النخلة ، وأطلق صرخته احتجاجاً على اقتلاعها ، وما حّل بها ، وسمّى ديوانه الخامس باسمها وهو في وداع السيدة الخضراء فالنخلة والبحر كلاهما مصدر الخير والرزق والتأمل ، ولذلك ربط بينهما ربطاً ينّم على مشاعر فّنان ملك أدوات فنه الشعرية فأبدع أيما إبداع لاسيما في الديوان الأخير كما سيتضح .

د- مشاركة الأم همومها .

ولا تزال الأم في قصائد علي خليفة ترمز إلى معاناة أسرة العّواص وهمومها فهي المحور إلى جانب أفراد الأسرة الآخرين ، ومنهم الابن الصغير الذي لاحظ ما تتحمله الأم من أعباء ، وراح يحاول التخفيف عنها :

أُماهْ ، واقلبي الصغيرْ
الليلّ ويوغلُ في الظلامْ ، ولا أرى
إلاكِ في جُنحِ الظلامْ
جسْمَاً تكوّرَ قابعاً
والنورُ يَخْبُو في السَراجْ
عيناكِ تَقْفِرُ بالخيوطِ على القِماشْ
لتُخِيطَ لِلَناسِ الجديدْ
وَلنا الحنانْ
حُبُّ يُفَتِقُ في الظلام لنا لعُيومْ
مِنْ قَلْبِكِ الصافي الأَمانْ [1]

إن الأبناء في هذا المقطع يوجعهم كفاح الآباء الذين أكلتهم الأعوام وهم يلهثون ، فالأم هنا تبلور الموقف وهي عاكفة على نسيجها وإبرتها بامتداد (الليل الطويل) ، مّما يوحي بإرهاقها وسهرها وصبرها ، وفي قول الشاعر (إلاك في الظلام) دلالة على أن الأم هي النقطة المضيئة في حياة الأسرة المظلمة .

إن المعاني في هذا المقطع تعبّر عن تجربة شعرية ذاتية صادقة مستمدة من الواقع ، وإحساس بالحسره والتوجع والتمرد على الواقع السلبي يوحي به حرف (النداء) (يا أماه) ، فنحن نرجّح أن الأم هنا هي أم الشاعر التي كثيراً ما ألمح إلى تحمّلها المسئولية وحكمتها في تدبير شئون المنزل [2] ، ومزاولتها لأعمال خارجيه .

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 87 .

[2] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (31 اغسطس 1994) .

هكذا بدت معاناة أسرة الغّواص ، وهكذا بدت الأم في هذا الجزء متحّملة أبعاد رحلة الغوص ، إنها أم إيجابية تعمل على التئام الشمل ، وتوفير جو من الدفء والحنان . بمحاوله إسعاد الآخرين ، أبناءها بتوفير متطلبات العيش لهم ، والناس (بلبس الجديد) وهكذا تنير هذه الأم الصابرة اللّيالي المظلمة (حبٌ يفتق في الظلام لنا الغيوم) ؛ إنها غيوم بيضاء تخرج من ظلام الليل وفي ذلك رمز إلى الآمال والأحلام التي ستتحقق مستقبلاً ، مّما يؤذن بالتفاؤل والإشراق .

ولا نزال أمام مشهد من المشاهد التي تحكي كفاح الأم وتمتزج بهذه الحكايات هموم الابن أيضاً ، ففي المقطع الثاني من قصيدة " جرح في ضمير الليل " ويبدو ذلك على شكل حوار داخلي :

ويَمُّر عامُ تلو عامْ
اللّيلُ يصرُخُ في الفناءِ وفي الطريقْ
وضميرُ اللّيل مجروحٌ صفيقْ
أمَّاهُ ، كمْ رَحَلَ النهارْ ؟
مالي أرى عينيكِ تَدمْعُ في اصْفرارْ
ويداكِ ترتعشُ ارتعاشْ ؟!
يا مغزلاً ملء الطوافَ مع السنينْ
الحِمْلُ زادْ ؟
إلى متى؟
كَمْ تحمِلِينْ ؟![1]

إنه (الزمن) المحور الرئيس في المقطع الثاني والثالث من قصيدة " جرح في ضمير الليل " فالأيام والسنوات تّمر ، ويزداد حمل الأم وإرهاقها (عينيك تدمع) (يداك ترتعش) وتمتزج هذه المعاني بمشاركة الابن هموم الأم مستنكراً إرهاقها وتضحياتها (الحمل زاد) (كم تحملين) (إلى متى؟) .

ومع ذلك يختتم المقطع قبل الأخير من هذه القصيدة ، بإشراقه أمل تبدو فيها نتائج كفاح الأم الصابرة .

قلبٌ كبيرْ
هذا الذي عانى الحياة مَعَ الصِّراعْ
زرعَ المحبةَ في الصدورْ
فأنْبَتَتْ زهرَ الحياةْ ...
حُبَّ الأنامْ
حُبٌ تَغَلْغَلَ في الضِلوُعْ [2]

إن نتائج كفاح الأسرة والأم الصابرة هي جني ثمار المحبة التي زرعتها في صدور أبنائها إنها زهور الحياة اليانعة المتفتحة لعمل الخير والحب العميق الذي يسري في كل مكان وزمان إنه في الضلوع .

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 88.

[2] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 99 .

إن هذه المعاني تُؤذن بنهاية حياة قاسية ومهنة صعبة وبداية عهد جديد ومجتمع متطور وحياة كريمة ، إنه الاستقرار نوعاً ما ، وظهور معالم حضارة جديدة ، حضارَه النفط والمصانع والعمران .

وهكذا تعرّفنا في هذا الفصل مهنة الغوص بما فيها من إجراءات ، وطقوس ، ومخاطر ، آثار ولعل الدراسات والأبحاث ، والإحصائيات لظاهرة البحر في دواوين الشاعر قد كشفت أهمية هذه المهنة . فالغوص عماد الحياة الاقتصادية والمحرك الرئيسي لها فـ " حاصلات البحر من اللؤلؤ ، وجّل شغل أهل البحرين ومعاشهم هو الغوص في البحر لإخراج اللؤلؤ منه وقد قُدّر ما يخرج من لؤلؤ البحرين سنوياً بقيمة (30) مليون روبية [1] أي ما يعادل الآن (100) ألف دينار بحريني .
وفيما يلي إحصائية توضح أن دخل البحرين من اللؤلؤ كان يفوق باقي دول الخليج ، كما ذكر المؤرخ صاحب التحفة النبهانية :

البلد	مليون	ألف
	عدد	عدد
البحرين	30	000
قطر	11	000
القطيف	,4	000
الجبيل (موضع بين القطيف والكويت)	00	600
الكويت	,8	00
عُمان	15	00
بلدة لنجة (قرب الساحل الإيراني)	0,1	00
جزيرة قيس	00	400
المجموع سبعون مليوناً [2]	00	00

ولعّل هذه الإحصائية تحّدد لنا موقف الطّواويش تجّار اللؤلؤ ، والنوخذه صاحب السفينة من مهنة الغوص ، لا شك في أن لمهنة الغوص بالنسبة لهم أثرها الايجاري في اقتصاد البلاد والأسواق العالمية ، فحينما كسدت تجارة اللؤلؤ كانت أسوأ كارثة وطنية في بلدان الخليج العربية وعندما كان المحصول جيداً تحسنت أحوال التجار وبالتالي البحّارة [3] .

أما الغّواصون فقد وقفوا من مهنة الغوص موقف المحب لها على الرغم مايكتنفها من مشاق ، فأحبوها قدر حبهم للحياة [4] ، أحبوا فيها روح المغامرة ، وركب المحال من أجل كسب الرزق والمعاش فنشأت بينهم وبين هذه المهنة ألفة تمثلت في ملازمتهم لها طول الحياة ، ولا يزال الأحياء منهم يحنّون إليها .

---

(1) محمد بن خليفة بن حمد ، م.س ، ص 13 .

(2) محمد بن خليفة بن حمد ، م . ن ، ص 14 .

(3) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على للؤلؤ في الكويت ، 1/ 37 .

(4) محمد جابر الأنصاري ، لمحات من الخليج ، ص 17 .

ولنا في موقف الحاج أحمد صالح المؤذن [1] الذي التهم القرش فخذه مثال على حب الغّواصين لمهنة الغوص ، فبعد عام من التئام الجراح عاد الحاج إلى مهنة الغوص التي ألفها وأحبها .

بينما وقفت مجموعة من الناس موقفاً سلبياً تجاه مهنة الغوص فكان بعض البحّارة لاسيما الصبيان يهربون من الرحلة ومهنة الغوص .
ومن الأمثلة التي تحدد مواقف الناس السلبية من مهنة الغوص وهروبهم ونفورهم منها :

" شاعر بدوي كان يعمل في الغوص ، وكانت سفينتهم راسية في إحدى الجزر . فكان متبّرماً من الغوص فأنشد قصيده نبطية يقول فيها بأنه يرى الموت في الغوص ، وليس من رصاص البنادق [2] .

وشاعر آخر ذم الغوص وحذر منه في قصيدة نبطية أيضاً نصح فيها من يسمع شعره بألا يذهب للغوص مشيراً إلي ما يتعرض له الغّواص من كي في الرأس إذا آلمه رأسه [3] 0 وغير ذلك من مخاطر .

وقد ذم شاعر شعبي كويتي (علي الموسى) طريقة الغوص ،ومعاملة بعض النواخذة القساة للبّحارة [4] .

ولا ننسى الشاعرة الشعبية الكويتية (مُوضى العبيدي) [5] التي ذهبت إلى النوخذة توصيه بابنها ، وكانت تخشى عليه من البحر ، وقد خطبت له إحدى الفتيات ليتزوجها بعد رجوعه ، ولكن القدر كان قاسياً عليها ، فقد اختطف ابنها وهو في ريعان شبابه فبكته وحزنت عليه في قصيدة شعبية عبّرت فيها عن مخاطر البحر وذكرت بعض الألفاظ والتعابير البحرية كخطر التيارات المائية – ورفع الشّراع ، وتمنت أن تكون قد توفيت مع ابنها [6] .

وجدير بنا في هذا السياق أن نشير إلى رأي الناقد والمفكر والأديب البحريني محمد جابر الأنصاري في الغوص فهو يرى بأن الغوص كان " حياة اجتماعية حافلة بالتقاليد والعادات وكان مصدر معظم الفنون الموسيقية والغنائية بل إنه طبع الحياة الخليجية كلها بميسمه وطابعه ، حتى أن النشاطات الاجتماعية كلها نظمت حسب مواسمه وابتدائه وانتهائه ، فحفلات الزواج تقام بحيث لا تخالف مواعيده ، ... ومظاهر الأفراح كلها تجري حسب أوقاته المعلومة ، وحركة صناعة السفن ، وبناء المساكن ، وتنظيم التجارة ، ما هي إلا موجات تتصاعد وتهبط مع جزره ومده [7] .

---

(1) أنظر ، ص

(2) سيف مرزوق الشملان ، م . س ، 1/ 37 .

(3) سيف مرزوق الشملان ،م.ن ، 1/ 858 .

(4) سيف مرزوق الشملان ،م.ن ، 1/ 959 .

(5) موضى العبيدي ، شاعرة كويتية مجيده وهي أول شاعرة عرفت في تاريخ الكويت ، وقد توفى ابنها عام (1895) ، سيف مرزوق الشملان ، ، م.ن ، 442/1

(6) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت ، 1/ 442 .

(7) محمد جابر الأنصاري ، م.س ، ص 8-9 .

أما الشاعر علي خليفة فيبدو أن موقفه من مهنة الغوص ليس موقفاً إيجابياً ، فهو عند ما وصف إجـــراءات رحلـــة الغـــوص مستخدماً المعجم البحري إنما وصف أشياء كان يراها قريبة منه ، ويسمع عنها ، وحينما تحدث الشاعر عن موضوعات رحلة الغوص من استعداد ووداع وغيرهما ، إنما وصف طقوس وتقاليد كانت تؤدى في البيئة المحيطة به ، كما وصف حيـــاة الآبـــاء والأجداد المليئة بالصعاب . .

ولعلّ الدليل على عدم حب الشاعر لمهنة الغوص بل كراهيته لها ، هو أننا عند ما وجهنا إليه سؤالاً حول ما إذا كان هو الابن الصغير الذي تمنى أن يأخذه والده إلى رحلة الغوص ، أجاب بشكل حاد وبالنفي إنه لم يفكر قطّ في مزاولة هذه المهنة ، ذلك لما يعانيه الغّواصون في المهنه من إرهاق نفسي وجسمي ، وما يتركه الغوص من آثار وأمراض جلديه وغير جلديـــه في أجســـام الغّواصين . [1]

فموقف الشاعر ليس موقف المحب للمهنة قدر ما هو موقف المحب للناس البسطاء الذين تحدّوا المحال وعملوا بشرف من أجـــل كسب لقمة العيش ، إنه موقف الإعجاب والفخر بمغامرات الآباء والأجداد ونضالهم ضد قسوة الحياة .

وقد استطاع الشاعر أن يلفت النظر إلى تجربته في تناوله لعنصر من عناصر البحر وهو مهنة الغـــوص بأبعادهـــا الاجتماعيـــة والإنسانية والاقتصادية وهذا ما جعل الدكتور محمد جابر الأنصاري قي تقويمه لتجربة الشاعر يُسمى مقالته " الغّواص القـــديم الذي استخرج أدباً حديثاً "[2] .

وقد بدا لنا في هذا الفصل وعي الشاعر المعاصر لدور الفكر والأدب في علاج قضايا الواقع والإنسان ، فكانت مهنة البحر مجالاً للتعبيّر عن ذلك الواقع كما أننا قمنا قبل ذلك بإحصاء ورصد المعجم البحري بمكّوناته كظاهرة بارزة في دواوين الشـــاعر في بداية هذا الفصل ، وقبل إجراءات الغوص التي تركزت فالديوان الأول منه ، أما في الفصل التالي فسوف نركز على ظـــاهرة البحر كموضوع بارز أيضاً في دواوين الشاعر الثلاثه ، متنقلين من استخدام الشاعر للبحر استخداماً مباشراً إلى اتجاهه نحـــو الإيحاء والرمز في التعبير عن القضايا الاجتماعية والوطنية والقومية والذاتية .

---

[1] على خليفة ، المقابلة الشفوية ، 31 اغسطس 1994) .

[2] الغّواص القديم الذي استخرج أدباً جديداً . مقاله في مجلة الدوحة القطرية ، عدد مايو 1976 ، علوي الهاشمي ، م.س ، ص 543 .

الفصل الثالث

التمهيد :-

خصصّنا هذا الفصل لدراسة أبعاد البحر في شعر علي خليفة ، ونقصد بهذه الأبعاد اتجاهات الشاعر الأدبية والتي أبرزها من خلال موضوع البحر .

وهذه الاتجاهات هي الاتجاه الاجتماعي ، والاتجاه الوطني القومي ، والاتجاه الذاتي ويبحث الاتجاه الاجتماعي في نواحي الحياة ومشاكل الأفراد في المجتمع ، كما يعّبر الاتجاه الوطني القومي عن الوعي العام للأحداث والمواقف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية ، والمقصود بالاتجاه الذاتي لدي الشاعر هو الجانب الغزلي العاطفي ، فضلاً عن موقفه من مظاهر الحياة المادية والمعنوية الحديثه والتأمل في الكون .

فبعد دراسة حياة الشاعر ، ومصادر تعلّمه وثقافته ، وأهم آثاره الأدبية وجوانب من شخصيته في الفصل الأول ، ثم رصد وإحصاء ظاهر ، البحر والتركيز على مهنة الغوص في أنين الصواري في الفصل الثاني ، تأتي دراسة هذه الاتجاهات لبيان أهمية البحر في دواوين الشاعر من حيث الدلالة والموضوع والفكر ، إلى جانب الوقوف على تطور التجربة الشعرية لدى الشاعر من ديوان إلى آخر .

ويقوم هذا الفصل على ثلاثه أقسام رئيسية كما ورد أعلاه ، وقد اتبعنا التصميم التالي في تأليفه الاتجاه الاجتماعي وتتصل به القضايا التالية ، العطف على الطبقة البائسة ، إبراز دور المرأة وأثرها في المجتمع ، إبراز قضايا الكادحين من الوجهة الإنسانية الخاصة والعامة ، وذلك من خلال ظاهرة البحر.

أما الاتجاه الوطني القومي فتتصل به الجوانب التالية : الاتجاه الوطني العام في الأدب العربي ، والاتجاه الوطني عند علي خليفة ، ثم الاتجاه القومي العام في الأدب العربي ، وإبراز الشاعر لهذا الاتجاه .

ويتألف القسم الثالث في هذا الفصل وهو الاتجاه الذاتي من ثلاثة أقسام رئيسية هي : الطابع العاطفي ويدرس الوصف الغزلي الحسي ، والوصف المعنوي للأشواق والهموم ، ثم التوظيف المباشر والرمزي للبحر في بيان الاتجاه العاطفي .

أما القسم الثاني فهو الطابع النفسي المعنوي ويتبادل المسائل التالية : الظواهر المعنوية في الشعر المعاصر ، وإبراز الشاعر لهذه الظواهر من خلال موقفه من الحضارة المادية والمعنوية في إطار توظيف البحر وموقفه منه ويتناول الجانب الثالث وهو الطابع الفكري التوطئة تحت العناوين التالية : التفكير في الحياة الروحية ، والالتفات إلى المجردات، والنظر المعنوي في الريف والطبيعة ، ثم الاتجاه الفكري لدى الشاعر وإبرازه من خلال معجم السفر والرحيل ، والموقف من الكون ، والعلاقة بالبحر ، فخاتمة الفصل .

وفي تأليف هذا الفصل لجأنا إلى الأسئلة المحورية التالية : ما هو المقصود بالبحر في دواوين الشاعر؟ وكيف استخدم الشاعر البحر للتعبير عن اتجاهه الاجتماعي ، والوطني ، والذاتي ؟ وهل ثمة دلالة على تطور التجربة الشعرية لدى الشاعر من ديوان إلى آخر ؟ وما هو موقف الشاعر من البحر ؟ وما نوع العلاقة بين الشاعر والبحر .

والمنهج المعتمد في تأليف الفصل هو المنهج الوصفي التحليلي القائم على دراسة المحاور والقضايا ذات الصلة بالبحر وإبراز السياقات التي وردت فيها هذه القضايا من خلال تدوين القصائد والدواوين في جداول خاصه بكل اتجاه .

أولاً الاتجاه الاجتماعي

المقصود بالاتجاه الاجتماعي دراسة الحياة العاملة وتناول مشاكل الأفراد المختلفة وأثر الحياة الجديدة في المجتمع [1] .

وتعود أصول هذا الاتجاه في الأدب العربي الحديث إلى نهاية القرن التاسع عشر وانتشار الثقافة الجديدة في البلدان العربية حيث أتيح لها الاحتكاك بالعالم العربي ، فنهضت شعوبها بعد سباق عميق ، وكانت نهظتها ترتكز على أربع قوى رئيسية هي المدارس الحديثة والمطابع والصحف والجمعيات هذه القوى الأربع جعلت الأبناء اليوم غير ما كان عليه الآباء والأجداد . فالمدارس تقوم لهم وسائل التهذيب العلمي ، والصحف والمطابع تنشر ثمار الأفكار الجديدة ، والجمعيات تعمل على تدريبهم وتنظيمهم وجميعها تشترك في تحرير الأدب من روافد التأخر والسيطره ، وتوجهم نحو المشاكل العامة [2] .

لذلك أصبح الشعب ونواحي العامة عماد الأدب ومصدر نشاطه فالجمهور وقضاياه ومشاكله هي التي تغدي الأدب. ولأجه ينظم الشعراء ويكتب الكّتاب ، وعليه تقوم الجمعيات والمعاهد والأحزاب [3] .

والأدب نتيجة طبيعية لما تعكسه شتى المؤثرات الاقتصادية والاجتماعية في النفوس . ولا عجب أن يغلب بعد الستينيات على الشعر العربي التيار الواقعي [4] الملتزم بقضايا المجتمع وجوانب الحياة العامة في جميع مناطق العالم العربي .

وبما أن البحرين جزء من العالم ، فقد كان الاهتمام بمشكل الشعب منهجاً التزمته مجموعة من الأدباء والشعراء فكان شعارها النضال بالكلمة من أجل الإنسان [5] .

وسوف نتتبع المؤثرات العامة في المجتمع من اقتصادية واجتماعية إلى مصادرها الرئيسية : البيئة والمجتمع البحري ، والمنازل ، والمصانع ، حيث نرة الناس في سرائهم وضرائهم ، وحيث يتاح لنا أن تطلع على أسباب تقدمهم وتأخرهم وفقرهم وآلامهم . وسنحاول دراسة هذا الاتجاه في دواوين الشاعر من خلال توظيف البحر وعلى ضوء القضايا التالية :

1- العطف على الطبقة البائسة
2- إبراز قضايا الكادحين .
3- إبراز قضايا الكادحين .

---

(1) أنيس المقدسي ، الاتّجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص 12 .

(2) أنيس المقدسي ، م . ن ، ص 202 .

(3) أنيس المقدسي ، م . ن ، ص 202

(4) نوريه صالح الرومي ، م . س ، ص 463 0 464 .

(5) علوى الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 459 0 460 ، راجع النهج الفكري لأسرة الأدباء والكّتاب في البحرين ، (سبتمبر 1970) ص 1 .

العطف على الطبقة البائسة

للبؤس أشكال شتى يجمعها عاملان هما البؤس الاقتصادي والبؤس الاجتماعي .. ولعل الأول أصلها جميعاً ولنا وقفه معه لنرى مدي تأثير في أعمال شاعرنا .

البؤس الاقتصادي

أن مسالة الغني والفقر مسألة فلما تخلو منها العصور والمجتمعات . كان همّ العبد والفلاح والعامل العيش أمنن أرباب السيادة وأصحاب العمل [1] .

وفي المجتمعات العربية كانت الشعوب تعاني المشقة والفقر والجوع ، كما عّرفنا ذلك من خلال هموم الغّواص ومطاردت الديون له .

وقد أبان علي خليفة عن تلك المعاناة مشيراً إلى أهمية الالتفات للطبقة الفقيرة ، وإصلاح الأوضاع البالية مّما يتّم عن رقي الحياة الفكرية الاجتماعية ، وذلك من خلال التركيز على مشكلة الغّواص :-

ولنا وقفة مع قصيدة " بذر الأرض الواهبة " التي يتنامي فيها البعد الاجتماعي من خلال توظيف معطيات البيئة البحرية إلى حد كبير ، فهي تبرز معاناة الكادحين من غّواص وفّلاح وتحدّد العلاقة بين البّحار والنوخذة (صاحب السفية) وقد فازت هذه القصيدة بالجائزة الأولى في " مسابقة مجلة البحرين الأدبية الثانية " ، ولقد كتب علي خليفة هذه القصيدة في مارس (1969م) وهو العام نفسه الذي جمع فيه قصائد ديوانه الأول أنين الصواري ومن المقاطع المعّبرة عن الآثار الاجتماعية المتردية من خلال توظيف الغوص كجزء من البحر : -

يَا بأسنَا الدَامي على مرِّ العُصُورْ
يا حُزْنَ أحبابي ويا صَمْتَ القُبورْ
يا أيُها البؤسُ الذي
عاشَتْ به الأيامُ قَهراً في البيوُتْ [2]

إن الشاعر في هذا الجزء القصيدة يسمعنا صوت (النّهام) الذي تكرر ذكره في الديوان الأول كما تقدّم وفي توظيف (النّهام) وهو من شخصيات البحر والغوص دلالة علي أنه يمثل فيضاً من الحزن والمشاعر والنّهام ؛ فالنّهام هو المحّرك والمثير لعواطف البحارة والدافع بهم إلى الحماس ، والتحمل ، والشاعر يتقابل ويرتبط مع هذه الشخصية نا في إثارة المشاعر والإيحاء للطبقة الكادحة بالتخلص مّما تعانيه من ظلم واستلاب حقوق ، تلك المعاناة التي برزت من خلال الامتداد في حرف النداء (اليا) الذي يوحي بالتنبيه لما يحيط بالإنسان وبألم النّهام والشاعر معاً .

---

(1) أنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص 226 .

(2) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 67.

ومّما أعان على بروز تلك المعاني في هذا الجزء إلى جانب تكرار النداء ، توالي الألفاظ المعّبرة التي تدل على ظروف البّحارة القاسية ونجد تلك في لفظة (يا بأسنا – الدامي – يا حزن – يا صمت القبور – البؤس ثم القهر) .

إن هذه التعابير لها دلالة حية ملموسة لدى الشاعر حيث رسخت في ذاكرته مشاهد الطفولة عن رحلة الغوص وما سمعه من الآباء والأجداد .

لقد علقت تلك المشاهد والصور بالذاكر فسّجلها بدقة وتفصيل من خلال مواويل النّهام الذي يشترك معه في الحزن ؛ إلا أن حزن النّهام حزن الإنسان الضعيف الذي لا حول له ولا قوة أمام جبروت البحر وصاحب السفينة، وحزن الشاعر ينصّب في الدعوة إلى الخلاص من الهوان والظلم والفقر ، إنه حزن اجتماعي من أجل المجتمع والإنسان .

وننتقل إلى صورة أخرى مفّسرة لواقع الإنسان الاجتماعي ، وسبب ثمرده وذلك من خلال البحر ومعطياته ومن ذلك قول الشاعر في قصيدة " بذر الأرض الواهبة " مخاطباً فتى البِحار:-

يا أيُها النَّجمُ المُضّمخُ بالعُطْور
أما رَأيْتَ فتى البِحارْ؟
وسَمِعَتَ (نهاماً) ضَرِيرْ
صوتُ تُصّر له الضُّلوعْ
يا أيها الدهَرُ الـخَؤُوُنْ
يا سَارِقاً قوتَ الـجُموعْ [1]

إن الحوار الداخلي الواضح في هذا الجزء يتضح ذلك من خلال الخطاب الموجه إلى النجم والاستفسار عن فتى البِحار الذي يرتبط بالنّهام أيضاً هنا والذي يحركه بالموال ؛ فالنّهام في اتجاه الشاعر رمز للإنسان في تطلعه وثورته على ضعفه ، ومن خلال الألفاظ الواردة في السياق مثل قوله : (يصرخ في السماء) والنداء الموجه إلى الدهر الذي صفته الخيانة والسرقة ؛ إن لغي ذلك سرداً الواقع المجتمع والآثار السلبية فيه والتي كني بها عن مخاطر البحر في الماضي ، والمعنى المقصود في ربط محكم هو اضطهاد الإنسان في الحاضر . وقد نجحت التجربة في توظيف شخصية (النّهام) للتعبير عن واقع الإنسان وبؤسه تجاه مصادرة حقوقه ، وفي صوت النّهام الأصيل إشارة إلى محاوله تغير الآثار السلبية في المجتمع .

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص ، 70 – 71 .

ولعلنا نستخلص محنة الغّواص وقضية في المجتمع من صورة الغني الذي ينهم برغد العيش مع كونه لا يشقى شقاء البحار الذي يبذل العناء من أجل قلادة أو سوار من لؤلؤ يبيعه تجار اللؤلؤ كي تتحمل به حسناء ثرية في الهند وباريس ، بينما زوجته بلا سوار [1] في بيتها المتواضع تنتظر عودته بعد أن قرحت أصابعه الحبال والملح تحلم بعودته واستقباله بالعطور وماء الورد والتجمل بالخواتم الرخيصة الثمن .

إنها قضية الغني والفقير في المجتمع ، قضية الإنسان الكادح والمرفّه ، وعدم التكافؤ في الحقوق والواجبات . وبالتالي احتجاج الغّواص وإن كان صامتاً ، فلا بد من أنه طرح هذا التساؤل : لماذا لا يتحقق العدل الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع ؟ لماذا التعب من نصيبي والفائد لغيرى ؟ لماذا تكون الأرباح لصاحب العمل او فئة معنية ، بينما الأجر الزهيد لمن يعمل في أعماق البحر ولهب الشمس ؟

وقد أبان الشاعر في مقارنه رائعة عجيبة عن حياة البؤس الاقتصادي الاجتماعي التي يحياها الإنسان في المجتمع من خلال بؤس الغّواص وكدحه في البحر :-

يَفلِقونَ الصَّدَفَ الموحلَ في عزِّ الظهيرهْ
حسبما شاءْت أميرهْ
في أقاصى الأرضِ ... في أغنى البلادْ [2]

بينما زوجة الغّواص تتزين بالخواتم الرخيصة الثمن :-

هاك ماء الورد والعود الثمين
عِّطرى (البشْتَ) [3] وأعطيني الخواتمْ [4]

وقد استمر الشاعر في تعاطفه مع قضايا المجتمع ، ومّما أعانه على ذلك كونه واحداً من أبناء الطبقة البائسة المحرومة من الحقوق ، و لإيمانه بأن قضية الأدب والفكر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهموم الإنسان وبؤسه في الحياة ، وذلك نتيجة لازدياد انتشار العلوم الإنسانيه في القرن العشرين والاحتكاك بالثقافه الغربية والعربية [5] ، مّما زادتنبه الأديب العربي إلى هذه المسأله وكثر ذكره للطبقة البائسة وجذب الأنظار إليها ، فهو يشعر بمرارة الحياة عند الفقراء ويلمس مواقع الحرمان في نفوسهم .

---

(1) علي خليفة ، م . س ، ص 38 – 39 .

(2) علي خليفة ، م.س ، ص 38-39.

(3) البشت : عباءة من الصوف مشغولة الأطراف بالقصب ، يرتديها الرجال .

(4) علي خليفة ، م. س ، ص 35 .

(5) أنيس المقدسي ، م.س ، ص 227.

ومن الأدبيات المعّبرة عن المواقع المرير في المجتمع ، ذلك المشهد الذي رسم فيه الشاعر بؤس الطفل واساه، فالآثار الأليمة قد انعكست عليه :-

وَبلا انْكسارْ
حتى أسى الطفل المُمزقِ في انتظارْ
كُنَّا نَراه بِلا متاَعْ
يقوى على حملِ العذابْ [1]

إنها معان تذكرنا بطفولة أبناء العاملين في البحر والطبقة الفقيرة ، فهى طفولة بعيدة كل البعد عن سعادة الطفولة وهنائها طفولة بائسة جار عليها الزمن وعّضها بأنياب فقره ؛ طفولة معذبة لا تعرف للطفولة معنى ، ونستخلص منها حساسية الشاعر تجاه الوضع ، مما يفسر رغبته في العمل لإعانة أسرته ، وانتباهه إلى وجود الفوارق الطبقية بينه وبين الزملاء على مقاعد الدارسة ، ومحاولة الظهور بمظهر الميسور أمامهم ، فشاعرنا عاش التجربة بكل جوانبها فجاءت صرخته الاجتماعية صادقة لأنها نابعة من صميم فؤاده لإنصاف هؤلاء الكادحين المظلومين .

وبذلك جاء التصوير للطفل كما يظهر في المشهد بأنه (ممزق) تصويراً محكماً به ربط بين حياة الشاعر وإنتاجه الأدبي ، فالطفل ممزق بين حياة الفقر ، وانتظار عودة الوالد ، ولتمزقه يسخر من الواقع المعاش ، إلا أن هناك يوحي بمحاولة الصبر والاحتمال الممتد بامتداد (الشراع) وارتفاعه ، والضحك أمام الرياح أي التحدي للصعاب وقد اعتمد الشاعر في توصيل أفكار ومعاناته واتجاهاته على التراث فاتكأ على مجريات الأحداث في مجتمع الغوص من معاناة البّحارة وأسرهم ومن بينها الطفل ، إلى جانب انتظار الأهالي للبّحارة العائدين من رحلة الغوص ، وقد استخدم خلال ذلك ألفاظاً من معطيات البيئة البحرية وهي (الشراع – الرياح) ، فكان الربط المحكم بين أحداث مضت وواقع معاش حاضراً ، وبين معاناة الغّواص ، ومعاناته الشخصية ، التي نتج عنها الفقر والحرمان والوضع المتردي في المجتمع .

وفي قصيدة " من أول الشط أحكي " نجد أن شخصية الغّواص شخصيته حية ونموذج إنساني متصل بجذور الطبقة الوسطى في الصراع من أجل رفاهية الإنسان الكادح وأمله في مستقبل [2] أفضل إذ إن الآثار السلبية ينتج عنها الرغبة في تغير الواقع والحلم بحياة مثالية يتحول فيها البحر أي المجتمع إلى حدائق عنّاء .

أيها الصَّبَّرُ الجميلْ .
تحلمُ البَحْرَ حدائقْ
ورَغيفَ الخُبْزِ شمسَا
وصليَل القيدِ للْسَّجانِ أعَوادَ مشانِقْ [3]

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 69 .

[2] علوي الهاشمي ، ما قالتة النخلة للبحر ، ص 465 .

[3] علي خليفة ، م . س ، ص 64 .

في هذا الجزء يتحدث الشاعر من خلال صوت الغّواص الذي يخاطب الصبر ويصفه بالجميل استهزاءً وكأنما يريد أن يقول : لقد تصّبرت حتى مصطبر ، فإلى متى هذا الصبر الذي يحلم صاحبه المستحيل ، موضحاً حلمه في حياة سعيدة مّما يستوحي الحل الجذري وهو انقلاب الحال ، وتحول البحر وهو الخضم الواسع بجبروته وقسوته وتقلبه وثورته إلى حديقة واسعة مليئة بالخير والأمل بعد هذا الصبر الطويل ، مما يولّد لنا من هذا السطر معنيين متضادين فالبحر قد يكون رمزاً للشقاء ورمزاً للأمل والسعادة .

وتبدو معطيات البيئة الاجتماعية المتواضعة ، التي تحلم بواقع اجتماعي افضل في توظيف الشاعر (رغيف الخبز) ، إلى جانب (الشمس) وهي من معطيات البيئة الطبيعية ، والمحور الرئيسى المعّبر عن معاناة الإنسان وهو (البحر) ، إن هذه الألفاظ الدالة تتآزر في رسم صورة للمجتمع البائس الذي أبرز ما يميزه الجوع والحرمان والفقر ، والأماني بأن يتغير الوضع في مقابلة موفقة البحر وهو دال على مذكر يتحول إلى حديقة وهي دالة على مؤنث وهما يشتركان في السعة نوعاً ما ، والرغيف يتحول إلى شمس ، مّما يبشر بالاشراق والخير والقاء ، وهي آمال حلُم بها الإنسان والشاعر في هذا المجتمع الفقير .

وهكذا تتآزر الألفاظ و التعابير والصور الجزئية في نقل صورة كلية مليئة بألوان البحر ، والحدائق والقيد ، ومليئة بالحركة في صليل القيد والصوت في نداء الغّواص لتصل إلى ما يدور في ذهن الإنسان الثائر ويعّبر عن احلامه ويعكس حالته النفسية وهي أن تتحول أصوات القيود للسجان إلى أعواد مشانق لهؤلاء المستثمرين أتعاب الغواصين والمسيطرين على حريتهم ، إننا أمام خيال ثري واسع تمثل في الصور المتسمة بالحدة والتي خرجت من إطار الكلية .

ويمتزج صوت الشاعر بالنّهام والبّحاره والإنسان المعاصر في مقطع آخر من القصيده نفسها معّبرين عن تردي الوضع في المجتمع وسئياته من خلال عناصر البحر :-

حناجرٌ عَانتْ
إنيَّ سَمَعتُ الجوعَ والآلاَم في إصرارِها
يعلُو الطُبولْ
ورأيتُ أحزَان الرّمال على الشُّطوطْ
بلا دُموعْ [1]

إن هذا الجزء يفّسر البعد الاجتماعي لدى الشاعر ، والذي يلحظ في السطر الثالث من خلال قوله : (إني سمعت الجوع والآلام في إصرارها) فالجوع والألم لا يسمعان وإنما يحسان ، وفي ذلك كناية عن الشعور بالتأزم والتمزق اللذين جسّمهما الشاعر معتمداً في تعبيره على الخيال الفني الذي جعل الجوع والألم يُسمع ، إنه يُسمع

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 68-69.

من خلال الإصرار وهو دليل ملموس ومسموع إنه صوت التحدي الذي يطغى على صوت الطبول ، إن الشاعر في هذه الأبيات جسم بخياله الواسع موقفاً من مواقف التمرد ، واعتمد في نقل الأحداث وتصويرها على الألفاظ المعّبرة والملائمة للسياق ، فكل لفظ وعبارة يحملان معني التمرد ، ابتداءً من الحناجر التي عانت الكبت والضيم ، إلا أن الشاعر سرعان ما ينتبه ويقابل تلك المعاناة وذلك الكبت بالضجيج والذي نسمعه في (الأنين) الذي يخالطه العويل والصراخ ودليل ذلك أنه يرتفع ويعلو على صوت الطبول .

ربط الشاعر في هذا المقطع معاني التمرد والثورة إلى جانب الربط الفني بمعطيات البيئة ذات الصلة بالبحر فالشواطئ والرمال من مكونات البحر ، و (الطبول) إنها الطبول التي تدق على ظهر السفينة للترفيه عن البّحارة أو حين العودة أو قبيل ذلك عند الوداع ؛ ومن خلال ما تقدم نجد أن الشاعر نجح في تصوير المشهد ونقل المشاعر والأحاسيس المزدوجة إذ جعل لحظات الفرح يشوبها القلق والحزن اللذان مصدرهما الأنين وهو من الصدر ؛ إن الحزن الذي رآه على الشطوط أثر من أثار تلك الذكريات المؤلمة التي تراود نفس الشاعر وتطرق خواطره ، فهو والرمال والشطوط عناصر ثلاثة تراكمت عليها أحداث الماضى و لم يستطع التخلص منها في رسم جوانب الصورة فالرمال على الشطوط تتحول إلى شخص يحزن ويتألم مع قلة شكواه ودموعه ، إذا لقد " خلع الشاعر الحياة على الرمال مّما جعلها تشارك البائسين محنتهم [1] وإن كان المشارك الفعال الحقيقي هو الشاعر ، إنه أبلغ تمرده واحتجاجه من خلال الكلمة المعّبرة الصادقة ، ومن خلال الامتزاج والاتحاد بين شيئين البحر بشواطئه ورماله وأملاحه وطينه وبحارته ، والشاعر.

هكذا بدا اتجاه الشاعر الاجتماعي من خلال العطف على الطبقة البائسة موظفاً الواقع المحيط به وهو البيئة البحرية التي تمثل بؤرة معاناة الطبقة ، فكان ذلك التوظيف آثارً او رسوماً تعكس ما في المجتمع من مهناد وألهم وشقاء [2].

2- إبراز دور المرأة وأثرها في المجتمع :

في الواقع أن المرأة كانت عند أكثر الأمم القديمة مقيدة بقيود شديدة من العادات والتقاليد ولهم تتحسن حالها في أوروبا إلا في أواخر القرن التاسع عشر في ذلك الحين أدركت ، المرأة كما أدرك الرجل أن لها حقوقاً ضائعة وأنه من الواجب أن تفتح لها أبواب التقدم [3] وقد نشأ عن هذا الشعور مع الزمن حركة أدبية ترمي إلى رفع شأنها وتحريرها من قيود التقاليد الجائرة وتتجلى هذه الحركة في ظاهرتين رئيسيتين : الأولى ما قام به أنصار المرأة من الرجال ، والثانية ما قامت به هي في هذا السبيل [4] .

---

[1] حسين راشد الصباغ ، بذر الأرض الواهبة دراسة وتحليل ، في مجلة هنا البحرين ، ص 20.

[2] آنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص 234 .

[3] راجع المنعطف 7-7 و 584 – وراجع مقال عبد الفتاح عبادة " نظضة المرأة العصرية والعربية ، في الهلال ، 27-705-و841و882،آنيس المقدسى ، م . س ، ص 253 .

[4] آنيس المقدسى ، م . ن ، ص 254 .

وتتمثل الظاهره الأولى في المطالبه بتعليم المرأة والتي بدأت في مصر على يد رفاعة الطهطهاوي أما في سوريا ولبنان فالمعروف أن بطرس البستاني هو أول من أهتم بهذا الأمر . وقد توالت الدعوات إلى وجوب تعليم المرأة ومنحها حقوقها الاجتماعيه وحريتها الطبيعية منذ مطلع القرن العشرين حيث دوى صوت قاسم أمين في المطالبة بتحرير المرأة [1] .

أما ما قامت به المرأة استجابة للدعوات إلى تحريرها فهو دخول المدارس الحديث ، ومن ثم الجامعة ومنافسة الرجل في ميدان البحث والنقد ، وبدا نشاطها ملحوظاً في الجمعيات العلمية والأدبية وفي الميدان الأدبي والصحافة.

وفي الخليج العربي لم تكن المراة بعيدة عن هذه الدعوات ، كما لم تكن بعيدة عن حقيقة الصراع في المجتمع ، والوعي. لحقوقها وحقوق الرجل المسلوبة ، والتالي مشاركته المسئولية . ويقّدم الدكتور الرميحي صورة لحياة المرأة في الخليج عامة : " تذكر بعض المصادر التاريخية الحديثة أن المرأة قد شاركت في الغوص بنفسها إلى جانب الرجل ، عند ما كانت تعوزها الحاجة والفقر إلى ذلك العمل الشاق والخطير " ويضيف " وكان ذلك في بعض مناطق الخليج ولا أعرف أن كانت البحرين واحدة من هذه المناطق التي ما رست فيها المرأة في البحرين لعمل ، إلا أنه ليس مستبعداً أن تدفع الحاجة والعوز إلى مثل ذلك في البحرين وغيرها ، لأن الغّواص عند ما يموت يطالب أهله بديونه ويباع بيته وتزوج أمرأته إلى الدائن (رب العمل) ويؤخذ أبناؤه رهينه في بيته حتى سداد الديون " [2] .

وقد تأثر شاعرنا بهذه الدعوات التي كان لها أثرها في الأدب واتخذت ناحيتين الأولى وصفية والثانية إصلاحية . وتنزع الأولى وهي التي ركز عليها شاعرنا تصوير المرأة الفاضلة وبيان أثرها المحمود في حياة الأفراد والمجتمع [3] ، ودورها في تحمل متاعب الحياة والاضطهاد وفي هذا السياق يشير الشاعر إلى موت وردة الدكتور الرميحي حول استيلاء صاحب السفينة على زوجة الغّواص إذا توفي وكأنه يدعو إلى تحريرها من التقاليد البالية وسوء الاستغلال والامتهان ، وذلك عبر صرخة الغّواص .

وحسيسٌ يَطي بؤسي جوادً
ليُعّرَي زوجتِي شَرعاً ، ويمضي

كما أبان الشاعر عن دور المرأة الفاضلة في المجتمع البحري مشيراً إلى اضظرارها إلى العمل وامتهان المهن البسيطه كالخياطة : –

---

[1] أنيس المقدسي ، م . ن ، ص 254-255 .

[2] علوي الهاشمي ، ماقالتة النخلة للبحر ، ص 20 ، راجع غانم الرميحي ، البترول والتغيير الاجتماعى ، ص 37 .

[3] أنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص 261 .

مالي ارى عينيكِ تدمعُ في اصفرارْ
ويداكِ ترتعشُ ارتعاشْ ؟
يا مِغزلاً مَلَّ الطوافَ مع السنينْ [1]

ويقول الشاعر : –

أّماهْ ، ما أقسى الحياهْ
ما أصعبَ الدربَ الطويل بلا مَتاعْ [2]

هكذا كشف الشاعر عن دور المرأة لمكافحة الشريفة في المجتمع لاسيما مجتمع الغوص لم يكن هيناً فبينما يتغيب الرجل شهوراً في البحر ، كانت المرأة تتولى شئون بيتها ، وتقوم بدور مهم في مساعدة الرجل مّما أكسبها وعياً وخبرة بقضايا المجتمع إلى جانب الصلابة في العمل ومواجهة التحديات ؛ فأصبحت المرأة تعي وعياً كاملاً الظلم الواقع عليها وعلى زوجها وأبنائها ؛ بل على الطبقة الكادحة ، وأدركت أن لهذه الطبقة حقوقاً مسلوبة تأمل في عودتها وهي تشحن الابن وتغذيه للثورة على الوضع ، مّما يؤكد إيمان الشاعر بدور المرأة الاجتماعي في إبراز قضية الطبقة البائسة : –

يا مُن عُمري أراكْ
في الغيدِ الآتي ... أراكْ
حطباً تقتاتُهُ نارُ الخلاصْ [3]

وفي قصيدة " زغب الطيور الجارحة " ورد البحر بمفرداته كواقع اجتماعي حي ، إذ وظّف الشاعر في هذه القصيدة ومن خلال المجتمع البحري دور الأم في الصراع الاجتماعي ضد الآثار السلبية ف المجتمع ، ويبدو ذلك الدور في اللهفة على الابن والخوف عليه من حياة آبائه البائسة ، والقوانين التي تسلبه حقوقه ، ومن ثم توعيته بواجبه تجاه الوضع المتدني للقضاء على الرواسب البالية في المجتمع :–

وما الذي يُبْكيكَ يا طْفلِي الحبيبْ
عضَّ نابُ الجوعَ أمعاءً طرِيه
فَأَسَلْتَ الدمعَة الحَّرى العصيْه
مُدْرِكاً كُنه القضيه
إن نابَ الجوعِ في الدُنيا بليه
...
لا ... وحقِّ البحَرِ والأفقِ الرَّحيبْ

---

[1] علي خلية ، م . س ، ص 62 .

[2] علي خليفة ، م . ن . ص 88.

[3] على خليفة ، م . ن ، ص 48–49 .

في انفعالاتِ الرّجالْ
وانطلاقاتِ شراعٍ مُستجيبْ
لِندا لُج خليجيٍّ عميقْ [1]

إن هذه الأسطر الشعرية تشير وجود قضية لها آثارها في المجتمع وهي معاناة الطبقة المحرومة ، إنها معاناة ناتجة عن رواسب اقتصادية واجتماعية ، لعّل أبرزها وجود فئة تعاني الجوع ، وفئة أخرى تعيش حياة الرفاهية ، إنها مشكلة الجوع الذي صّوره الشاعر بالوحش الكاسر بأنيابه الحادة مستعيناً بالاستعارة إذ جعل من قضية الفقر والجوع في الدنيا بلية ، وهل هناك بلية أشد من الفقر والجوع في نفس الإنسان ؟ نعم إن قضية الجوع في تلك الفترة قضية اجتماعية يولّد عنها الإحساس بوجود الفوارق والتوعية للأفراد بالوضع السلبي ، الذي بدا في هذا المقطع على لسان الأم .

وقد ربط الشاعر بين معاناة الأبناء وحياة الآباء والأجداد في قولة (لا وحق البحر) و(انطلاقات شراع) وذلك لأن معاناة المجتمع الحالية تمتد جذورها إلى ماضي الآباء الذي كان سبباً في وجود هذا الآثار الاجتماعية من فقر وجوع وصراع وطبقية ، وفي ذلك دلالة على تغلغل الوعي من الشاعر بقضية الإنسان والرفض للوضع والثقة بوعي وإدراك الفرد في المجتمع لما يحيط قضايا.

ولقد استعان الشاعر في إبراز فكرته بالعناصر الشائعة في البيئة البحرية (البحر) (الشراع) (الخليج) (الرّجال) ، إنها عناصر تعد جزءاً من التراث مّما يدل على الصراع بين ما في ذاكرة الشاعر من مخزون أدبي وفكري مستمد من مجتمع الغوص والذي يلح عليه بشده لتدوينه في قصائده حسبما يقتضي السياق ودون مبالغة وإسفاق ، حيث وردت كلمة (انطلاقات الشراع) موحية بالأمل والإشراق والتفاؤل بالتغلب على الصعاب وتغير الوضع الاجتماعي ، كما وردت كلمة (انفعالات الرجال) و(ندا لج خليجي) مسانده (لانطلاقات الشراع) ودالة على الإصرار والثبات والمواجهة للسلبيات في المجتمع .

وفي مقطع آخر من القصيدة ذاتها يبرز الشاعر وعى الأم بمعاناة الأفراد في المجتمع من خلال معطيات البحر والبيئة البحرية ، وفي ذلك تنمية للإحساس المتزايد باضطهاد الإنسان واستغلال جهده وتعرضة للهلاك مقابل حقوقه .

هَلْ تُرى بَانتْ لعينيك الــخُطوبْ
في الليالّي الماضياتْ
فأَخافتكَ النُدُوبْ
في جُسوم الصيّدِ أجدادِك أبناء الخليجْ ؟ [2]

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 44-45 .

[2] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 47 .

أن البعد الاجتماعي في هذا المقطع يبدو في تذكرة الأم لابنها بما قاساه أجداده أبناء الخليج ، وفي ذلك توظيف معاناتهم في البحر ورحلة الغوص وما سببه البحر لهم من متاعب ، وذلك بما يجب عليهم من دور تجاه ذلك وهو محاولة الخلاص من تلك المعاناة التي لا تزال تمتد في الحاضر ؛ إن الشاعر في هذه الأسطر استطاع أن يجعل من أهوال البحر ناراً تؤجج المشاعر ؛ ليتحقق التحرر من القيود التي تحد من حرية أبناء الوطن وتجعلهم مضطهدين ، وقد جمع الشاعر بين التراث وهو البحر ومعاناة الأجداد في الماضي ، وبين الحداثة وهي معاناة الإنسان المعاصر ؛ وفي ذلك تحديد لمسار شاعرنا الثوري وشعوره بفقدان الحرية والاستقرار وأهمية البحث عنهما وإن كان بالكلمة، ومن خلال ذلك الجمع نتبين عاطفة الإعجاب المتوزعة ما بين الاعتزاز بالتراث والإنسان المعاصر والثقة في المستقبل .

وفي هذا السياق نجد أثر الزمان والمكان في ذهن الشاعر ، إنهما الماضي والبحر وهما المسببان للمعاناة والمؤثران في نفس الشاعر أيضاً (فالليالي الماضيات) توحي بالوحشة وحياة السام والضيم التي كان يعانيها الآباء (وذكرى لأيام عصيبة) تبرز قيمة هامة لها أثر في حياة الشاعر مّما جعله يوظفها بحرارة وصدق ؛ إنها ذكرى مضت فيها قسوة الحياة ومرارة العيش والحرمان لذلك يصعب أن تمحى ذكراها من ذاكرة الشاعر والإنسان المعاصر ؛ إذ تبدو آثارها في مكان لا يزال يذكره الشاعر به الأم إنه (جسوم الصيد من الأجداد) .

وقد اعتمد علي خليفة في توضيح البعد الاجتماعي إلى جانب المحور الرئيسي وهو البحر على وسائل أخرى منها المقابلة بين الألفاظ (فالليالي) تقابلها (الأيام) و(الخطوب) وهما مؤنثان ودالان على الزمان وتقابل (الخطوب)، (الندوب) وهما مذكران إفراداً ويوحيان بوجود الصعاب وقد أعانت تلك المقابلة على إحداث التوازن بين السطرين الأول والثالث ؛ إلى جانب الصور الجزئية المعّبرة عن سوء الوضع (فالندوب في جسوم الصيد أبناء الخليج) ، وفي هذه العبارة كناية عن الشدائد التي واجهها البحارة قديماً في حياتهم .

وتصبح المرأة الزوجة أكثر وعياً بمعاناة الأفراد في المجتمع ونتيجة لذلك تعّبر الزوجة عن رغبتها في الخلاص من الواقع السلبي ونيل الحقوق من خلال حث الغّواص ودفعه إلى التمرد والرفض :-

متى أرفعُ رأسي للصواري
شامِخاً مثلَ شراعي في فضا كلّ البِحارْ ؟ [1]

إن البعد الثوري يبدو من خلال أداة الاستفهام (متى) مما يوحي بالرغبة في التحرر من القيود التي تكبل الإنسان وتغيير الأوضاع الاجتماعية نحو الأفضل ، وقد أسقط الشاعر هنا معاناة الغّواص وثورته على معاناة الإنسان المعاصر، فالبحر قضية اجتماعية تؤرق الإنسان كما كانت تؤرق الغّواص ؛ لذلك فهما مشتركان في الثورة على ذلك الوضع الاجتماعي . وقد استعان شاعرنا في هذا المقطع بالتراث الخالد ومعطياته إنه البحر معّبراً عن تمرد

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 40 .

الإنسان ورغبته في الخلاص ، وقرينة ذلك قوله (أرفع رأسي للصواري) . إن هذه العبارة توحي بالعلو إلى جهة معينة إنها الحرية واسترداد الحقوق وكرامة الإنسان .

وتوحي المعاني في هذا المقطع بتفاؤل الشاعر بغدٍ مشرق فا (الشموخ كالشراع) و(فضا البحار) معنيان لهما دلالة إنهما التفاؤل بالنصر ونجاح الثورة والإيمان بتحقيق الأحلام والأماني الواسعة مما يدل على صفاء النفس وإيمانها بنجاح المساعي .

وفي سياق الإحساس بفقد الحرية في المجتمع ، والامتهان لكرامة الإنسان ، وضياع حقوقه أبرز الشاعر هذا الواقع الاجتماعي من خلال أماني زوجة الغّواص متحدثة بلسانه عن الحلم والأمل بتغيير الواقع واسترداد الحقوق المسلوبة ، والحياة الآمنه :-

ومتى يعلو على (البَتيُّل) [1] في النور إزاري
كالبنُودْ ؟
هَا هُنا الإنسانُ في ذاتي يُرَدّدْ
عادَ حقيّ ... عادَ حقيّ ...
ويَزُ غْرِدْ [2]

إن الرغبة في الحرية والخلاص من قيود المجتمع وأنظمته البالية قد أصبحت قضية أولتها زوجة الغّواص اهتمامها .

وهنا نجد أن شاعرنا قد وظّف البحر بمعطياته للتعبير عن هذا البعد الاجتماعي ، (فالبتيل) من الأدوات المستخدمة في البحر وهي سفينة ، فأطلق الجزء وهو يريد التحرر من عبودية الإقطاع في البحر بأسره والبحر هنا جزء يقصد منه التحرر وعودة الحقوق إلى أصحابها سواء أكان ذلك في البحر أم الأرض ، مما يكشف عن جانب التمرد في ذات الإنسان والشاعر ، وعدم القدرة على السكون على الضيم ، وفي تكرار عبارة (عاد حقي ... عاد حقي) التي يرددها الغّواص ما يدعم ذلك ويشير إلى الأمل في النصر الذي يوحي به أيضاً الفعل (يزغرد)

وقد انتهى المقطع نهاية حلزونية جاءت امتداداً طبيعياً لما قبلها فهي مكملة ومعّبره عن الموقف الدال على الثقة بالنصر والاستبشار به لذلك تتابعت الألفاظ في سرعة ورشاقة ، وأعان على تتابعها ذلك الإيقاع الموسيقي البسيط .

ولقد عّبر الشاعر عن رغبته في أن تسود الحرية المجتمع وينال الغّواص حقوقه من خلال أماني الزوجة على لسان الزوج ، وقد استوحى الشاعر تلك الأماني من المجتمع في فترة الستينيات حيث غلب التيار الواقعي المعّبر عن قضايا المجتمع بالكلمة ، وبدأت الاحتجاجات والثورات التي سنتحدث عنها في القسم التالي :

---

[1] البتيل : من أنواع المراكب الكبيرة التي تستخدم في الغوص .

[2] علي خليفة ، م . س ، ص 40 .

ونتبين من خلال المعاني والتعابير الواردة في هذا الجزء أن أمنية الزوجة أتحدث بأمنية الشاعر الذي أعلنها خلال الغّواص صرخة تمرد ورفض وثورة على الوضع السلبي في المجتمع موظّفاً البحر وألفاظه ومعبراً عن الرغبة في انتقال ملكية السفينة من يد (صاحب السفينة) إلى يد الغّواصين ؛ وقد يذهب البعض إلى أن ذلك الحل يتوحى الحل الاشتراكي ، وبذلك يستنتجون انتماء الشاعر إلى حزب اشتراكي أو جهة معينة ، إلا أن علي خليفة ذاته قد صرح بأنه ليس اشتراكياً ، وقد أشرنا مسبقاً إلى عدم ميله إلى التخرب فالذي يريده أن يتحقق هو العدل وليس ما ورد حرفياً في النص [1] ؛ فهو إنما يريد زوال الظلم وأن يأخذ البّحارة حقوقهم المشروعة التي سلبت منهم من دون ظلم لمالكي السفن .

وقد يقول قائل : إن الشاعر قد استوحى هذه المعاني من القومية العربية دون أن يلتزم أيديولوجية محددة: فاتجاهه هذا بلا فكر معين فهو لا يصنع موقفاً كاملاً أو رؤية واضحة مما يّجعل رؤية الشاعر غائمة لم تقدم حلاً واضحاً [2] .

ومع تسليمنا بصحة هذا الرأي إلا أننا نرى أن هذا الجزء يعّبر عن ثقافة الشاعر العربية القومية الإسلامية من غير أن يكون صاحب فكر أيديولوجي معّين فالشاعر عاش في بيئة تتوافر فيها النزعة الدينية ؛ فقد ذكرنا أنه منذ الطفولة بدأ يتلقى دروساً في القرآن الكريم فحفظ آيات منه وفهم معانية ، إلى جانب الثقافة العربية القومية المتمثلة في الإطلاع على الإنتاج العربي الأدبي شعراً والانفتاح على الأفكار العربية التحررية الجديدة وذلك أثناء تردده على المكتبة العامة بالمنامة ، فهو إذاً استوحى الحل الإسلامي العلمي المنحدر من التراث الخالد وهو الدين الإسلامي والشرع ، فعودة الحقوق إلى أهلها لا تعني أن يستولي الغّواصون على السفينة ، بينما تصادر حقوق صاحبها ، إنما المقصود هو عودة الحقوق إلى أصحابها بالعدل والمساواة وحسب اجتهاد كل عامل دون إجحاف بحق أحد فلا ضرر ولا ضرار ، كما أن الشاعر هنا يحمل وجهة نظر أبناء الطبقة الوسطى التي بدأت بالظهور في العالم العربي قبيل منتصف هذا القرن بفضل انتشار التعاليم الداعية إلى الحرية والعدل والمساواة والمشاركة في اتخاذ القرار [3] فكانت صرخة الشارع صدى لفكر هذه الطبقة وتوجهاتها .

وهكذا تبين أن الشاعر قد وظّف البحر ومفرداته مستغلاً الزمان والأحداث التي لها صلة به في التعّبير عن الموقع الاجتماعي من خلال رؤية المرأة زوجة الغّواص . بقضايا المجتمع وذلك في قصائد من ديوان أنين الصواري هي " زغب الطيور الجارحة " و " صدى الأشواق " و " جرح في ضمير الليل " وقد عّبر الشاعر عن إعجابه بالمرأة في المجتمع بدورها في التوعية لإزالة الفوارق والامتيازات بين الفئات .

ونجد أن الشاعر قد تأثر بظاهرة الدعوة إلى تحرير المرأة نتيجة للاتصال بالثقافة الغربية ، والثقافة العربية الواخذة عن طريق الصحف والمجلات ، إلى جانب وجود الأندية الثقافية في البحرين واتصالها بالجمعيات ، وحركات

---

(1) سيهر القلماوي ، عودة الله منيع القيسي ، دراسات في أدب البحرين ، ص 376.

(2) سيهر القلماوي ، عودة الله منيع القيسي ، م . ن ، ص 376.

(3)

الإصلاح في الوطن العربي . فتناول الشاعر في أعماله الأدبية مشيراً إلى حالها البائس كحال الرجل وقد استغل موقفه من البحر ومهنة الغوص وصلته بمشاكل المرأة الأم والزوجة والجارة في البيئة البحرية القريبة منه فعّبر عن قضية المرأة بصدق وانفعال مؤثر .

4- إبراز قضايا الكادحين :

نضجت فكرة الحق في الأدب العربي وأصبحت موضوعاً بعد أن شاعت حقائق العلوم الاجتماعية والطبيعية ، وبعد الإطلاع على النظم الحديثة السياسية .

ولفكرة الحق في الأدب العربي الحديث جهتان رئيسيتان وجهة عامة ووجهة خاصة . الأولى تتناول الحقوق الإنسانية والثانية الحقوق القومية [1]

الواجهة الإنسانية العامة :

برزت الوجهة الإنسانية العامة في الأدب الحديث في ثلاث كلمات هي الحرية والمساواة والإخاء في ظل وجود التقاليد الذهبية والاقطاعية .

وقد كان طبيعياً في هذا العصر الذي انتشرت فيه الثقافة الإنسانية الحرة ومبادئ النشؤ العمراني أن يتحول الأدب إلى خدمة الشعب والاهتمام بمصالحه . حيث أصبحت النزعة الإنسانية عامة في الأدب الحديث ، نثراً وشعراً [2] .

ومن الأدباء من حمل لواء الثورة الإصلاحة كأمين الرهاني الذي بثّ خطبة ومقالاته نفثات مشبعه بالمبدأ الإنساني وهو يقف فيها وقفة المجاهد في سبل الحق والعدالة والنور .

ومن الأدباء من حمل لواء التمرد على الأوضاع والنظم الموروثة ، ويمثلهم جبران خليل جبران في أكثر ما كتبه بالإنجليزية وبالعربية ومثال ذلك " العواصف " [3].

ويتجلى تمرد جبران في نصرة الحق الإنساني والحياة المثلي وحرية التفكير ، والثورة على الأوضاع السياسية السائدة .

وقد ركّز شاعرنا على المطالبة بحقوق العمال الكادحين في المصنع وقد أسقط الشاعر قصائد الغوص على عمال الألمنيوم [4] ، واستمد معانيه م خلال موقفه من البحر وصاحب السفينة وهما رمز الإقطاع والاحتكار والظلم في شعرة .

---

(1)

(2)

(3) أنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص 240 – 241 .

(4) أنظر قصيدة " علي أبواب الرحلة الأولى " ص 25–34 ، " من أوال الشطر أحكي " ، ص 59–65.

أما مشكلة عمال الألمنيوم فقد أبرزها الشاعر دون توظيف للبحر في قصيدة " كان الفتى سلطان " وأثار الانتباه إلى اقتطاع حقوق العمال في المصانع التي لا تتوافر فيها الشروط الصحية للمحافظة على حياة العمال من حيث التدريب الكافي ، والتأمين على حياتهم ، ودفع التعويض لأسرهم بعد وفاتهم أو عجزهم :

وفَي الطريقَ للعيادة البعيدهْ
ومن خلاَل اللحظة الرهيبهْ
تعَّثرَتْ به الحروفُ : ماءْ
وكانتْ الميَاهْ
بعيدةً ، وهذه الطرُيف خاويهْ
تغُطُّ في سباتها العَميقْ [1]

لا شك أن هذه المعاني تحمل بذرة الوعي لمعاناة الإنسان الكادح ، كما تحمل بذور التوجه نحو المثل الديمقراطية والإنسانية .

وقد حملت الدوافع النفسية والاجتماعية الشاعر إلى ذكر حقائق يتعرض لها العامل الكادح ، و لم يفته أن يشير إلى جشع أصحاب العمل واستئثارهم بالأرباح ، مقابل بؤس العامل ، وفي ذلك ربط الماضي بالحاضر وإسقاط[2] أهوال البحر على مخاطر المصنع ، وقضية البّحار وحقوقه المسلوبة على العمال:

الزَم الإبحارَ يا ابنَ الكادحينْ
...
فاحمد الله ، وباركْ
يومكَ المعُطي الجديدْ [3]

إن هذه الأسطر نعكس الروح التي تشعر بالواقع المرير الذي يحياه الإنسان الكادح ، وهي نوع من السخرية المرّة لهذا الواقع المفروض قسراً .

ومن أقوال الشاعر ما يعكس روحة التي تدافع عن الحق وتتغنى بالحريه وتحمل على ما يتعّرض له الكادحين من شقاء وذل في حياتهم اليومية ، مستعرضاً بعض أصحاب المهن المتواضعة : البحّار والنّهام [4] والفلاح ومستأجر الأرض الزراعية :-

---

(1) علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 70 .

(2) راجع الفصل الثاني ، ص

(3) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 30-31 .

(4) أنظر ، ص ، أنظر " بذر الأرض الواهبه " ص 63 .

الوجهة الإنسانية الخاصة :

وكَذَا نَرى نَجمَ الصبّاَحْ
يوَم أنْ كنَّا صِغَارْ
ماَ يزَالْ
يسري ... يطوفُ على البِلادِ انقطاعْ
ويرى المأذَنَ ، القِلاعْ
ويرى المزارعَ ، والحقولْ
فَيَمُّد للأرضِ ... (للعكارِ)[1] منْ
فَيْضِ الشُعاع
وكَذا يّمدُ على السواحلِ آلْف آهْ
لِلبْحرِ يَحتَضِنُ الشِرَاعْ ، وللْقُلوعْ
وَ يُطلِلّ مِنْ عليا سماهْ [2]

إن رؤية النجم وامتداده في البلاد به ارتباط بكدح الإنسان ومحنته ومشاركته همومه وآلامه المستمرة ، وبالتالي مشاركته الرفض والثورة استنكاراً وأسى لحال هؤلاء الناس المعذبين وقرينة ذلك تواجدهم في المآذن ، وعلى السواحل وفي البّحار والمزارع والحقول ، وتلك أماكن توحي بالحياة البائسة التي يحياها الناس الشرفاء الذين تولّدت عن آلامهم وصبرهم مشاكل الحرمان فهم يعانون الجوع والمرض والهم والغم إلا أنهم باقون شرفاء . فالنجم هنا رمز الثورة واليقضة والمطالبة من هؤلاء الشرفاء بالحق في الحياة الكريمه واسترداد الحقوق التي حرم منها هؤلاء الكادحون .

والنجم أيضاً كما جاء في السياق رمز الإشراق والتسامي فقد يكون إنساناً صاحب مبدأ وله تأثير على هؤلاء الناس وفي توظفيفه دلالة على تأثيره في الناس الشرفاء وشحذ همهم من أجل غدٍ أفضل ، وفي الآهة الصادرة عنه أسىً لحال الناس المزري ورغبة في تغيير الواقع .

ويبرز الشاعر حسرته وألمه لما آل إليه حال الكادحين من ضياع للجهود وسنوات للكفاح ؛ منبهاً الناس في المجتمع إلى سوء الوضع وموحياً لهم تغيير مّما يحمل بذور الوعي الوطني الرافض للظلم ، فيخاطب أبناء الطبقة الكادحة قائلاً :

يا أصدقائي الطَّيبيْن
الفجُر ما طَلَّ على قَعْرِ اِنزواءْ
...

---

(1) العكار : باللهجة البحرينية هو الزراع الذي يستأجر حقلاً ، ويتعهد بالعناية والحرث مقابل أجر يدفعة إلى صاحب الحقل والأرض .

(2) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 69-70.

أوَّاه يا فجرَ بلادي
(آه يا يُبه ، ويْنْ الرَّجالْ) [1]
واضيْعتي ...
والكُلْ مشغولْ ... بداءْ [2]

لقد أبان الشاعر عن همومه تجاه الوضع المجتمع بأسلوب تقريري ذهني مسيغاً بجزء من الموال الشعبي (آه يا يبه وين الرجال) وفي ذلك توظيف للمواويل التي تردد في رحلة الغوص وهي عنصر من عناصر البحر ، إلى جانب عنصر هام وهو (البّحارة) في (أبن الرّجال) . وبذلك لفت الشاعر الانتباه إلى عدم فقدان الأمل . والتهاون في استرداد الحقوق حتى لا تضع جهود الآباء والأجداد ؛ فبدا المقطع مجسماً للواقع والاهتمام بقضايا الإنسان والمجتمع أنكاء على البحر ومعطياته ومن خلال الصور المعّبرة والكلمات البسيطة الموحية .

ويؤكد الشاعر أصالة الطبقة الكادحة وأثر مبادئها وتعاليمها في المجتمع ودورها ، في إذكاء الروح الوطنية . كما سنري في الجزء التالي ، يؤكد ذلك في قوله موظفاً الخليج :

الأرضُ تُنبتُ الرجَال ، والخليجُ يشربُ
الدماءَ والدموعَ ... يقدحُ الشَّرَرْ [2]

لقد ربط الشاعر بين الأرض والخليج (البحر) ربطاً محكماً في بيان جهود الكادحين وصفتهم الأصالة . والولاء للأرض بتقديم التضحيات وفي قوله (يشرب الدماء) ما يؤكد ذلك ؛ إلا أن نتائج هذه الأعمال سوف تبدو في المروح الوطنية والتمرد على الوضع ويدعم ذلك عبارة (يقدح الشرر) .

لعّلنا نستخلص مّما سبق أن شاعرنا قد أعطى البحر دوراً تاريخياً اجتماعياً وأضاف إليه من أحاسيسه وهمومه في التعبير عن قضايا المجتمع وسلبياته ومتناقضاته من خلال ظاهرة البحر والتي إبرز فيها لمعاناة الإنسان المعاصر . وتبين في الجدول التالى مجموعة من القصائد التي وظّف فيها الشاعر البحر للتعبير عن البعد الاجتماعي :-

---

(1) آه يا يبه ، شطر من موال شعبي ، يردّد التّهام ، ومعناه يا أبي أين الرجال ؟ .

(2) علي خليفة ، م . س ، 72 – 73 .

(2) علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 49.

أنين الصواري

القصيدة	الصفحة
*صدي الأشواق	• 40-39
• زغب الطيور الجارحة	• 48-46
• جرح في ضمير الليل	• 90-88-87-86-85
• من أول الشط أحكي	• 64-63-62-61-60-59
• بذر الأرض الواهبة	• 71-70-69-68-67
• جمر الخمودِ	• 80-79
• أنين الصواري	• 56-55-54-53
• على أبواب الرحلة الأولى	• 34-33-31-30-27-25

إضاءة لذاكرة الوطن

• آثار أقدام على الماء	• 16
• ذاكرة البلاد مضاءة	• 49-

لقد تبين لنا من دراسة البعد الاجتماعي أن الشاعر اتخذ من البحر قناعاً تاريخياً عّبر من خلاله عن معاناة غّـواص الأمس وآثارها في المجتمع وقداً سقط هذا القناع على الكادحين والعاملين في المجتمع ، وقد انطلق الشـاعر مـن البيئة المحيطة به لإبراز البعد الاجتماعي فاستعرض ما تواجهه الفئة العامله من مشاق واقهات بتفصيل دقيق أعانتـه على رصده ذاكرته التاريخية فربط بين ذلك البعد وردود الفعل تجاه المتناقضات الحياتية في المجتمع وهـي التمـرد والرفض ، وقد عّبر الشاعر عن الواقع بصدق وعمق يدل على انتمائه إلى البيئة البحرية .

كما أن معانيه وأفكار تشير إلى تأثره بالحركات الأدبية الحديثه في العالم العربي وتوجهاتها الرئيسية .
وبذلك يتضح لنا تميز الشاعر بحس اجتماعي وإدراك لقضايا المجتمع ينّم عن حس وطني وقومي .

ثانياً الاتجاه الوطني القومي

يعّبر الاتجاه الوطني القومي عن الوعي العام في الوطن والبلاد العربية ويبحث في العوامل السياسية الخارجية الداخلية وما أثارت من شعور قومي وحركات وطنية [1] .

1- الروح الوطنية في الأدب العربي عامة :

بدت الروح الوطنية في الأدب العربي الحديث في أوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تّعم البلاد العربية وحين أقبل الشرقيون على دراسة العلوم ، فصارت الطبقة المثقفة تشعر بوجودها ، فينسوها ما نراه في الوطن من أثره أجنبيه وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولاسيما أحياء الروح الوطنية [2] .

وظهرت في البلاد العربية صيحات أدبية تهيب بالعرب أن يسعو الإعلاء شائهم ، فتظمت الجمعيات توصلاً إلى قبل الحقوق ، وصداً للنيارات الاجنبية ومنها التيار الذكي ومن هذه الجمعيات جمعية الفتاة ، والجمعية القحطانية بمصر(1909) والجامعة العربية (1910) مصر ، والجمعية الإصلاحية (1912) بيروت [3] .

وكان الجو العربي الأدبي مشبعاً بالأماني الوطنية ضد الاحتلال العثماني بواسطة الجمعيات العربية ، والأيدي . الأجنبية الأوروتيه التي كانت ترمي لأغراض استعمارية إلى تفكيك قوة الدولة العثمانية وفصلها عن الأقطار العربية.

وكان الشعراء يعّبرون عن أمانيهم باسترداد حقوق العرب ، واستنهاض الهم بالدعوة إلى التقدم والاتحاد والتضامن ضد المصالح الأجنبية وقد انطلقت هذه الأماني في جميع أقطار الوطن العربي في مصر والعراق ولبنان وسوريا ومن المهاجر الأمركية ، وأمريكا الجنوبية [4]

وكان للشعر الوطني أيضاً غايات إصلاحية . تهدف إلى الاعتبار بالماضي وتوجيه النظر إلى أسباب الرقي الصحيح كقصيدة أنشدت سنة 1910 في بيروت ومطلعها :-

كفو البكاء على الطولّ الهّمدِ [5]
ليس القضاء على البلاد بمعتد

---

[1] أنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص 12.

[2] أنيس المقدسي ، م . ن ، ص 58.

[3] أنيس المقدسي ، م . ن ، ص 124.

[4] أنيس المقدسي ، م . ن

[5] أنيس المقدسي ، م.ن ، 134، راجع مجلة الكلية (بيروت مج ، ص 159 وفي المختارات السائرة للمؤلف .

وترمي هذه القصيدة إلى أيفاظ العرب للجري في سبيل تقدم الوطن اجتاعياً ، وحضّهم على توحيد الكلمة تحت إية اللغة .

أبنى العراق ومصر إنا أُمة قعدت بها الأيام أسوأ مقعد
إن فّرق الإيمان بين جموعنا فلسا ننا العربيّ خير موحِّد [1]

ثم حدث في أثناء الحرب العالمية الأولى حادثان لهما اثر عميق في نفوس العرب وبالتالي في شعرهم ، هما إعدام الشهداء والثورة الحجازية ؛ وعاد الشعراء بعد ان وضعت الحرب أوزارها إلى ذكريات الشهداء وتعديد فآثرهم في سوريا والعراق والحجاز وفي المهجر الذين لم يكونوا أقل من شعراء الوطن شعوراً بمكائد الاستعمار وخوفاً من ضياع الآمال [2] .

وتجّلت المشاعر الوطنية في الأدب العربي حينما رفع العلم العربي في المكان الذي شنقافيه الشهداء حيث احتفل العرب احتفالاً باهراً برفع العلم .

وقد كان الشعر العري السياسي (1919 و 1920) في سوريا والعراق حافلاً بالنقمة على السياسة الأوروبية في الشرق بعد الاحتلال العثماني . فكانت الدعوة إلى الجهاد في سبيل الاستقلال . أما مصر فكانت مشغولة بأحوالها الخاصة ، وكان شعرها السياسي منصرفاً إلى مما ربه الاحتلال [3] .

2- الروح الوطنية في الأدب البحريني :

وفي منطقة الخليج والجزيرة العربية كانت الدعوات إلى الإصلاح ، ومناهضة الاستعمار من جانب المؤسسات والحركات الوطنية ؛ فكان الالتزام بقضايا الوطن من الحركة الأدبية الفكرية التي استمدت ملامحها من الأدب العربي الحديث ، ومن خلال التحول الفكري والوعي الجديد الذي طغى على عقول أبناء الشعب في مختلف أرجاء العالم العربي .

ومن المناسب في هذا السياق أن نشير إلى بداية الحركة الوطنية في البحرين والتي أولها انتفاضات الغواصين ، حيث قاموا بثورة أسموها (ثورة الخير) 1919 – وكانت احتجاجاً على ظلم أصحاب السفن . ثم توالت سلسلة الانتفاضات التي كانت تهدأ وتعود : وقد امتدت إحداها من (1926- 1932 وكان سببها تردي [4] .

---

(1) أنيس المقدسي ، م . ن ، ص 134- م . ن ، 133-134 .

(2) أنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص 141- 142 .

(3) أنيس المقدسي ، م . ، ، 155 .

(4) علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 27 ، هيا محمد عبد العزيز الدرهم ، م.س ، ص 45.

وضع البّحارة إلى جانب القانون الذي وضعه المستشار الإنجليزي (بلجريف) [1] لتحديد علاقة الغّواصين بتجار السفن ، لكنه فرض دون مرعاة لحقوق البّحارة ، واعق ذلك في عام (1929) الأنمه المالية التي أدت إلى كساد سوق اللؤللؤ والضياع الكامل لحقّ الغّواص في الحياه الكريمة [2] .

واستمرت الانتفاضات حتى أواسط الخمسينيات حيث اتخذت شكلاً منظماً ؛ فبعد ذلك شهدت البحرين تحولات وطنية قومية مناهضة للاستعمار حيث تم تنظيم هيئة وطنية بالبحرين (1954) لتشكّل أول حركة نظالية منتظمة ، فكانت المطالبة بالحقوق وطرد المحتل ، وقد سعت هذه الحركة إلى عرض مطالبها الوطنية على السلطة وتركّزت حول الأمور التالية :

رفض الاستغلال من جانب المحتل ، وتاسيس مجلس تشريعي يمثل البلاد عن طريق الانتخابات الحّره ، وتأسيس نقابة للعمال واصحاب المهن الحرة [3] .

وقد رفضت هذه المطالب من السلطة ، وقد طبقت الهيئة الوطنية مطالبها بتأسيس اتحاد للعمال البحرينين ، فحدثت المواجهة بين الجانبين وكان التدخل العسكري لإيقاف الحركة ، فاعتقل زعماؤها ونفي بعضهم إلى الخارج وسجن البعض وأعلنت حالة الطوارئ في البلاد حتى (1965) .

وفي مارس (1965) تجّدد مطالب الهيئة وكانت الانتفاضة أكثر عنفاً كما تقدم في الفصل الأول [4] .

وقد استمرت الهيئة الوطنية تنادي بمطالبها متأثرة بالقومية العربية والدعوات المناهضة للاستعمار وكانت موجات الاضطرابات والمظاهرات تسود البلاد احتجاجاً على الوضع على المستوى المحلي أو العربي ، وكان لأحداث فلسطين أثرها في ذلك ؛ ومن ثم تأسس المجلس الانتخابي في السبعينيات والذي حلّ بعد فترة قصيرة وتم تأسس مجلس الشورى عوضاً عنه ، كما تأسس اتحاد العمال البحرينيين ، فهدأت الأحوال في فترة ما بعد السبعينيات.

وقد كان الأدب في البحرين مجالاً للتعبير عن الأحداث الوطنية كما حدث في سائر الأقطار العربية ، فكانت الخطب والمقالات السياسيه تنادي بإصلاح الأوضاع ، وقد عّبر الشعراء مّما يموج في الوطن من أحداث واضطرابات ، ومنهم إبراهيم العريض [5] ، عبد الرحمن المعاودة [6] ،

---

(1) بلجريف : أنظر الفصل الأول ، ص

(2) هيا محمد عبد العزيز الدرهم ، م . س ، ص 45 .

(3) سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، فواز محمود طيفور ، دراسات في أدب البحرين ن ص 333 ، علوي الهاشمي م . س ، ص 28.

(4)

(5) أنظر ، ص

(6) عبد الرحمن المعاودة ، شاعر بحريني ، يقيم في دولة قطر يتركز شعره في غرض المدح ، علوي الهاشمي ، م.س ، ص 301.

قاسم حداد [1] وغيرهم . ومن هؤلاء الشعراء علي خليفة الذي عّبر عن حسرته واستيائه لما يحل بالوطن ومنطقة الخليج العربية من استعمار ، وتدخل في الشئون واستغلال للخيرات ، كما نمت اشعاره عن عدم رضاه لما يسود العالم العربي من ضعف وتفكك. فرى في قصائده نقد للأوضاع السياسية السائدة ، ومناصرة للحركات الوطنية من منطلق الخوف على الوطن ، وبتحريك دوافع الرفض باستنهاض الهمم .

3- إبراز الاتجاه الوطني :

وقد أبرز الشاعر روحه الوطنية بمفهوم ووعي جديد ومن خلال البحر وعناصره ومن الأحداث الوطنية التي استغلها الشاعر للتعبير عن اتجاهه الوطني سقوط عدد من الطلبة مقتولاً برصاص الشرطة في أحداث (1965) [2] الشعبية، حيث وظف اسم أحد الشهداء (عبد الله نجم) [3] إلى جانب عنصر من عناصر البحر (السفينة) فربط بين البيئة البحرية والصناعية بين الغّواص في البحر وعلي ظهر السفينة ، والعامل في المصنع مستغلاً عنصراً هاماً في هذه الأحداث وهو فئة الطلبة التي تنحدر في اصولها من صلب طبقة الغّواصين والفلاحين . لذلك كان الالتحام قوياً في كل الاضرابات والأزمات السياسية بين الطلبة والعمال ودليل ذلك قول بلجريف : لقد كان طلاب المدارس هم أول من أدخل عاده الإضراب إلى الجزيرة ، إذ كانوا دائماً مستعدين للخروج إلى الشوارع بمبادره ذاتية ، لدعم الحركات السياسية والعمالية [4] .

إن الشاعر يشير في هذا المقطع إلى وقوع القتلى من الطلبة الذين التحموا مع الفئة العاملة تأيداً لمطالبها بعوده العمال المفصولين إلى شركة نفط البحرين(بابكو) :

وَإذا النّجمُ الذي اغتيل على ظهر السفينةْ
يعتلي الآفاَق حيّاً
وَيُذكّرُنا انتفاضات طَعِينهْ
فنُغنيّ نحن والنّجمُ البعيدْ
لَحْنَ تِسْيَارٍ وإصرارٍ جديدْ [5]

إن الشاعر كان مؤفقاً في الربط الذي يتعلق بالرؤية السليمة للأحداث حيث يتصل (نجم اليوم) بالنجم الذي خر بالأمس على ظهر سفينة الغوص فهو الغّواص في البحر وهنا الطالب على الأرض ، وكلاهما اعتاله الظلم ذاك على ظهر السفينة وهذا على ظهر اليابسة ، فإن اختلف المكان فالهدف واحد والمصير واحد أيضاً ، إن هذه المشاهد والأحداث لدليل على اتجاه الشاعر الاجتماعي ثم الثوري الواقعي حيث أنفعل بالأحداث وتأثر بها ،

---

(1) قاسم حداد ، أنظر ، ص

(2) علوي الهاشمي ، م . س ، ص 299-334 .

(3) أنظر ، الفصل الأول ، ص

(4) علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 27.

(5) علي خليفة أنين الصوراي ، 79.

ويبدو ذلك من خلال الألفاظ التي تنم عن الحدة مثل (الانتفاضات الطعينة) و (الإصرار الجديد) ، وذلك ما يطابق أقوال الشاعر عن تجربته في البدء فقد ذكَرنا في الفصل الأول من أقواله أن حماسه كان في بدء تجربته الشعرية به اندفاع وحدة وتلك كانت تجارب تعّبر عن فترة زمنية معينة وهي فترة الحداثه ؛ أما فيما بعد فإن هذا الحماس بات متعقلاً وذلك يعكس التطور الفني في التجربة ، والانتقال من مرحلة عمريه إلى أخرى .

مّما تقدم يمكن ملاحظة أن الجزئيات البسيطة المستمدة من المحيط القريب من الشاعر قد أعانته على رسم فكرة كلية، والتعبير عن سوء الوضع والتمرد عليه بالحثّ على المواجهة مما ربط حيثيات النص من خلال الصور الجزئية والكلية ، وذلك من خلال الألفاظ الدالة والتعبيرات الموحية التي تعّبر عن شوق الإنسان إلى تغيير الواقع وخلق البديل الجديد .

إذاً لقد نتج عن احتلال الوطن واستباحة خيراته همٌ وطني لدى الشاعر ؛ لذلك فهو يدعو المحبوبة إلى مشاركته هذا الهم وتلك المحنة كي يتحقق الخلاص من سيطرة المحتل ، وقد تكررت كلمة حبيبتي ثماني مرات في القصيدة ، مّما يوحي بإحساس الشاعر بالضياع وحاجتة إلى المعين الذي يقف إلى جانبه وليس هناك أقرب إليه من حينئذ من محبوبته رفيقة دربه في الحياة .

إن المحبوبة في هذه القصيدة هي دليلنا في رحلة شاعرنا المحفوفة بمخاطر الأجنبي وهذه المحبوبة هي الملهم والمخلص له من همومه مّما يؤكد وجود وشائج علاقة متينة بين المحب والمحبوبه نداء الحبيبة الذي تكرر سبع مرات في مقاطع القصيدة لكلمة (الحفاف) مّما يوحي بالرغبة في الخلاص من حياة الجدب ، والانقال إلى عالم بهيج من السعادة والخصب :-

أنا الجفافُ
بدونما سببْ
يجتاحُني ...
يُعَمّقُ الجِذور لي...
يُجوّعُ الشّغَبْ ،
ويُرْدِمُ العيونَ ، يطفئُ القمر
أنا الجفافُ يا حبيبتي
يُصَوّحُ الشجرْ
ويتقتلُ الزُهُور في حديقتي
بدونِما سببْ [1]

---

[1] على خليفة ، م . ن ، ص 95 .

إن أثر الجدب في الأرض والنفس (يعمقّ الجذور) والجدب يعني الجوع ونهاية الآبار التي كـــأن العواصـــف قـــد ردمتها، ما يعني (تصوح الشجر) و (موت الزهور) ، فالحياة بكل صورها وهنت وماتت ، فلا قيمـــة لضـــوء القمر وسمر لياليه ، ومن هناك كان الربط بين يردم ويطفئ ثم العيون والقمر ، وكأن العيون إذا لم تؤخذ بمعـــني أن الآبار قد أغلقت عمداً و لم تتم نوماً طبيعياً ؛ لأن يردم فيها معنى الفعل القســـري وكـــذلك يطفـــئ ولا بـــد للحياة أن تستمر .

ومن الموقف الخارجي تحدث النقلة إلي الموقف الداخلي إلى الجذور التي تنمو داخل الإنسان :

مَعْ الصّخورِ في مرافئ الشَّجنْ
مسافرّ بلا وطن
وغُربتي يتيمة بلا نسبْ
ضَرْبتُ في البِلاد ... طولِها وعرضِها
مُحّملاً بثقّلِها
...
بكلّ ما انكفأ بداخلي
وكلّ ما احترقْ [1]

وقد عّبر شاعرنا عن حسرته وألمه وخوفه لما يحلّ بالوطن من استعمار ونهب للخيرات في معاني تبرز فيها المواجهـــة للوضع السياسي السائد في الوطن ، وما يعتمل في نفس الشاعر جرّاء ذلك إحساس بالغربة والعزله والقلق وســـط المحيط ؛ لذي يعيش فيه ؛ إذ يقول في قصيدة " شمس المفاوز " :-

مزارعُ النّخيل يا حبيبتي ،
ينامُ تَحتَ ظِلّها التعبْ
ويَرَقُصُ الفراشُ والذبابُ هانئاً
ويَسُرَقُ الرُطَبْ
تَخُوضُ ف الغَجَرْ مَرَكِبُ
وَيُعصَرُ القصَبْ
وألفُ غُصَّة بداخلى [2]
وَأَلْفُ آهةٍ تُصارِعُ اللّهبْ

---

[1] علي خليفة ، م . ن ، ص 95.

[2] علي خليفة ، أنين الصوراي ، ص 93.

نستخلص من عنوان القصيدة أنها تشير إلى الجانب المؤثر سلباً للشمس فهي شمس حارقة ، فضقها (مشمس المفاوز) فالشمس هنا وجهها محرق وليس مشرقاً مضيئاً ودليل ذلك افترانها بالصحراء رمز الجدب والجفاف

وبعد أن بدأت القصيدة بمدخل شائق من خلال السطرين الأولين والذي يشّد القارئ إلى المكدود الذي يستلقي في ظل النخيل رمز الأرض العربية وهو هنا نعمة تحمي من الشمس نجد أن الشاعر في هذه الأبيات يستخدم الرمز للتعبير عن البعد الوطني حيث ألمح إلى المستعمر ورمز إليه في (يرقص الفراش والذباب هانئاً) فرسم بذلك المحتلين صورة في غاية الدقة فهم ينهبون خيرات الوطن في سعادة وهناء ، وهم يجوبون بحار الوطن كالغجر في قسوتهم وبشاعتهم مما يسبب له ألف غصة وألف آه و ألف ألم ؛ لأنه لا حول له ولا قوة . إن هذه الأبيات تصور أجمل تصوير معاناة الشاعر تجاه احتلال الوطن ونهب خيراته وثرواته ، وتبرز شدة ألمه على ما يجري في ساحة الوطن فتبدو الروح الوطنية لدى شاعرنا في أوجّها خلال هذه الأبيات . كل ذلك نسمع من خلاله النداء الموجه إلى المحبوبة من الشاعر والذي يتكرر في أجزاء المقطع نفسه وفي بداية كل مقطع من المقاطع الأخرى في القصيدة وشد انتباه القارئ كي يتتبع الأحداث مّما أعان على الربط بين مفاصل القصيدة وهنا يعود البحر إلى الظهور كمساحة من مكان لها أثرها في نفس الشاعر فالبحر هنا تجوبه المراكب وتلك صورة حقيقية تكمن داخلها صورة أخرى خفية إن البحر رمز الأرض والوطن المحتل وقرينة ذلك (مراكب الغجر) وهي أساطيل المستعمرين ومن هذه الصورة الهامة يتولد الصراع بين جانب الخير في المزارع وحياة الخصب التي يقابلها جفاف الحياة ، فخيرات الوطن من بحر وغيره لا ستفيد منها أبناؤه ، فالبحر مكان مستباح بتدبير فني محكم أعان على تصاعده نمو بناء القصيدة ، ويتمثل ذلك في تتابع وتنظيم حرف العطف (الواو) والحركة المتولدة من الأفعال المتوالية ثم الانفجار في (يعصر القصب) إي الحصاد . الذي لا ستفيد منه أبناء الوطن .

ولا يزال شاعرنا يعّبر عن حسرته لما يحّل بالوطن ، وقد تمثل ذلك في شعوره بالغربة فوطنه قد تحول إلى بحر ملئ بالغجر ؛ لذلك فهو يلحاً إلى الموانئ والتي هي رمز للخلاص والهرب مّما يعانيه ؛ إنها محطات راحة ومنفذ للخروج من العذابات ؛ أنها غربه داخل الوطن وصراع من أجله يبدو في قوله (محملا بثقلها) و (الاحتراق) وفي توظيف ما (المواصوله) بمعنى الذي إلى جانب (كل) ما ويوحي بالامتداد والتشعب الرهيب وسيطرة الإحساس بالضياع الذي يحمله الإنسان في تجواله والمخرج هو حياة الخصب والراحة بعد المعاناة وذلك جزء حيوي في دروة الحياة ودونه لا أمل ولا خلاص [1] .

وتظهر من خلال ذلك الصراع رؤية الواقعي الذي يرى في المحبوب سنداً له في الدرب من أجل تحقيق الأفضل على الأرض الطيبة ، وما ذلك إلا لحياة الجفاف التي تُغربه ، وعبء الكلمة التي يحملها وحده مناضلاً في الدرب دون أن يستمع إليه أحد (سوى المال) وهكذا نجد أن المحبوبة في قصيدة علي خليفة تحاول أن تجد لها نوعاً من الحضور في الجانب الوطني .

---

[1] ماهر حسن فهمى ، تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج ، ص 310-216 .

أنا الذي افتديتُ نطرةً
من العيون ، يستظلُ فَيئها الوَجّلْ
كأنما سَمعَتُ صوتكِ الــمُرِن دافئاً
ينسابُ في خجلْ
يرفُّ خائفاً ... ويبتعدْ [1]

إن المحبوبة في علاقتها بالوطن تكسر حدود المخاطبة اللفظية لتدخل في طور جديد من الحضور الأكبر و الأعمق . وهذه العلاقة أساسها التطور والنمو تجاه ما هو أعمق إنه الوطن فالإنسان نفسياً وفكرياً وفنياً . وذلك من خــلال الهموم المشتركة بين المحبوبة والوطن ونفس الشاعر [2] ، إنه الحلم بالمخلّص المحبوب الذي يمكن أن يكــون مجــرد خيال رومانسي أشبه بأحلام اليقظة لدى المراهقين الذين يحلمون بالشهب تزين مفرق الحبيبــة ، وذلــك أشــبه بنشوة الجفاف بالمطر وهي خطوة لري الأرض العشى ، ودور المحبوب هنا هو نحاولة إعــادة التــوازن للحيــاة ، فالمحب والمخلّص يود رؤية الأخضر زاحفاً مكان الجفاف ، ولذا تكررت في القسم الأخير من القصــيدة كلمــة (حبيبتي) وكأن المَحبة تكثر وترقب أن يسقط المطر فإن قطرات من الحنان يمكــن أن تمنحنــا الصــبر وتنســينا الآلام هنا يختلط المحبوب بالأمل والحنان والخضرة فكلاهما عناصر مفقودة .

نخلص مما سبق إلى أن القصيدة بها تداخل بين الحلم و الحقيقة وبين الذات والعالم وبين الغضــب والرؤيــة وبــين العام والخاص (فالبحر الذي تخوض فيه مراكب الغجر) شئ عام يؤرق الشاعر ويعذّبه وتتداخل معــه الهمــوم الذاتية الخاصة التي يبحث من خلالها الشاعر عن المحبوبة السند ، التي تعينه على الوقوف تجاه ذلك الأمــر العــام وما يسببه له الجفاف . فالقصيدة صحراء شمسها نار محرقة فهي ليست بمشرقة بهيجة ومضيئة ، ذلك الوجه الآخر للشمس الذي أراد الشاعر التأكيد عليه ، إنها ملتهبة وسط الصحراء ، وما ذلك إلا تعبير صادر عمــن يكتــوي وبصطلي بتلك الشمس المحرقة وقد تراكمت عليه الهموم الخاصة والعامة من استباحة البّحار وسرقة خــيرات أرض الوطن وثرواته وبعد المحبوب مع قربه ، والحجة إليه كمنجد في الدرب المجدب ، ويبرز من خــلال ذلــك وجــه الإنسان الشاعر الذي يعاني نفسياً من الوضع السياسي والاجتماعي في الوطن ، وذلك عبر أدوات القصيدة الفنية .

ويبدو موقف الشاعر في التعبير مّما يموج في الوطن من أحداث سياســية في أواســط الســتينيات والســبعينيات حيث تأثره بالتجارب النضالية وما رفقتها من اعتقالات ونفي لزعماء الهيئة الوطنية [3] في قوله :-

---

(1) علي خليفة ، م . س ، ص 95.

(2)

(3) أنظر ،

رُزْقةُ البحر قَامَتْ
على كَتْفِها طِفْلَتَانْ
طِفْلةٌ قَبَلتني ونَامَتْ
حقولُ (بَبَايِ) [1]حزين بِحُضْنِ الــمُروجْ
طِفلةٌ عذّبتني طويلاً
ولَــمَا تَتمْ [2]

تعّبر الفكرة البارزة في هذا المقطع عن الوضع الثوري والوطني السائد في البلاد فـ (طفــول) رمــز سياســي لإحدى الشهيدات في منطقة الخليج العربي في (ظفار) [3] معتقل الثوار الخليجين في الســتينيات والســبعينيات ، وليلى أيضاً في السياق رمز إلى الأرض المحتلة فهي في الشرق رمز المرأة المستسلمة الضعيفة والأرض هنــا تقابــل المرأة المقّيدة الأسيرة لتقاليد المجتمع ، وبين ليلي وطفول مقابلة عكسية .

إن مطلع هذه القصيدة يشير إلى زرقة البحر التي تعني الصفاء وجمال اللون والهدوء الذي قد يعقبه الاضــطراب ، وهذه الرزقة وذلك المنظر الجميل قد يخفيان عيوباً غير محسة ، وفي ذلك رمز إلى وجود أفكار خفية ذهنية يحملــها هنا إنسان في باطنه وأعماقه وذهنه ، كما يحمل البحر المتناقضات ، فالبحر الواسع الهادئ هنا هو الحياة الواســعة بما فيها من جمال بارز وقبح خفي ، إلا أن الجمال ليس أبدياً وكذلك القبح ، وهنا تبــدو الضــدية في الأشــياء الجمال والقبح ، والشر والخير ، الاتجاه السلبي والاتجاه الإيجابي ، الثورة والاستكانة ، ونجــد ذلــك في قولــه : (قامت على كتفها طفلتان) فاللون الأزرق كان تمويهاً يخفي حقائق وأفكــاراً إلا أنهــا اســتطالت وتطــورت (وقامت طفلتان) مما يحدد وجود الضدين في بحر الحياة المائج بالأشكال المتنوعة والغريبة ، وهذان الضدان همــا المتسلم الضعيف (ليلى) والقوي المواجه (طفول) :

وهَي التي رفقتني إليها الموانِي
وسُمرُ الأقاحي ، وجرحُ الغِيومْ [4]

إن الموانئ هنا جعلها الشاعر مصاحبة له والأصل فيها أن تكون مستقرة ثابتة ترسو عندها السفن ، وهــي هنــا تسير مصاحبة الشارع إنها رمز الانفتاح والرغبة في التحرر والخلاص وتغيير الواقع والبعد عن السأم للوصــول إلى تلك الطفلة المثخنة بالجراح والمعذبة والاقتراب منها وتقديم ما قدمته من تضحيات وعطــاء في ســبيل الــوطن ؛ فالموانئ رمز لأبناء الوطن وأفكارهم المتحررة ورغبتهم في عمل شئ من أجل الوطن إقتداءً بالأبطال السابقين .

---

[1] البباي من الفواكه النادرة التي تنمو شجرتها في قرية الخليج المالحة .

[2] علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 5-6.

[3] ظفار منطقة عربية جبلية في الخليج ما بين اليمن وعمان .

[4] علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 6.

تبرز وننتقل إلى قصيدة أخرى من الديوان نفسه وهي قصيدة " لغة الظمأ الأجواني " وقد كتبها علي خليفة في (مايو 1973) وهي اتجاهه الوطني ومعاناته إثر التعرض للتوقيف كما أشرنا إلى ذلك من قبل فهو يقول:

فاعتنقني ، أيها الـمُّد ، تواريخَ جديدهْ
وتجسَّدْ عَطشَ الأرضِ التي لم تروَ منّي
كنُتْ بالأمسِ على الَشاطئِ رملهْ
يَغْسِلُ الطَّلُ على أذيالها مِلحَ البِحارْ [1]

إن الشاعر يلجأ هنا أيضاً إلى بيئة البحر مستخدماً الألفاظ الدالة على ارتباطه بتلك البيئة وتأثره بها من مد وشاطئ ، ورمل وأملاح بحار ؛ وقد بدأ المقطع بفعل الأمر الدال على الطلب (اعتنقني) ثم النداء الموجه إلى (المد) بهدف الإغاثة والرغبة في العودة إلى ذكريات الماضي التي يحن إليها ؛ لكن بأفكار جديدة ، فالرغبة في (اعتناق المد) دليل على الاستياء من حياة الجفاف وهي توحي بالرغبة في وجود من الحنان والمودة . وتعّبر عن الضطراب السائد والقلق النفسي ، ومما يؤكد الرغبة في العودة إلى جزء من الماضي والحنين إليه وجود (الشاطئ) إنه رمز الذكريات السعيدة العالقة في النفس والأسى على ما فات من حياة ناسها كانوا بسطاء مكدودين فهم (الرملة الملقاة على الشاطئ) في ذلك الزمن (كنت يرمي) عندها بأملاح البحار ومخلفاتها مّما يوحي بامتصاص جهود هؤلاء الناس المكافحين البسطاء ، والثورة لذلك الوضع الغريب فكأنما يدعو الشاعر إلى تحمل تبعات الوطن والعمل من أجه وليس الوقوف والاستنكار الصامت دون فعل أو عمل حقيقي ؛ إنها دعوة إلى المجابهة من أجل الوطن معطيات البحر للتعبير عن فكره ومشاعره وأحاسيسه . وتبلغ الثورة الذروة في قول الشاعر في نهاية المقطع الثاني من القصيدة :

فالخليجُ
مُثْخَناً يأتيكِ من كِل الجهاتْ
هذه النارُ لغاتٌ عَلَمتّني كيف أَحْتبحُ وقوفاً
كَيْفَ أَبني من رذاذِ الصَمْتِ بَرقاً
(هل أنا ذاكَ الذي كادَ الصَمْتِ يموتْ ؟) [2]

إن الخليج في هذا الجزء رمز وصورة توحي بما يمور في المنطقة العربية في الخليج من احتلال واضطرابات ، فهو مثخن بالجراح المتناثرة (من كل الجهات) ، والحل الذي يستوحيه الشاعر مقابل تلك الجراح هو الاحتجاج وصورته القوة المتمثلة في (النار) و (الوقوف) مما يوحي بالتأهب والاستعداد ولحركة الشاملة إثر ذلك العمل والموقف ؛ ونخلص من هذا الموقف بمقابلة وهي أن الصمت يقابله الاحتجاج الواضح كالبرق ، والحياة يقابلها

---

(1) أنظر الفصل الأول ، ص

(2) علي خليفة ، م . س ، ص 36.

الموت . ويبقى الخليج هو المحور الرئيسي الذي يتحدث عنه الشاعر عندما يريد التعبير عن انفعاله واتجاهه الـوطني وهو أحياناً رمز الحياة بكل أبعادها وأعماقها ، ورمز للثورة الوطنية بل هو ذاته ثائر قـد اسـتيقظ مـن نومـه مستجيباً لنداء التمرد ، وفي السطر الأخير يستنكر الشاعر هذا الصمت الخانق من خلال الاستفهام الاسـتنكاري في قوله : (هل أنا ذاك الذي كاد مع الصمت يموت!) ، ويدعو إلى أطلاق الحناجر والأقلام لمواجهة المحتـل لأن الصمت في مبدأ الشاعر وشريعته موت زؤام .

إن الخليج أي البحر في هذا الجزء وطن مستباح والشاعر يدعو إلى استرداده من الغاصبين ومن المقاطع الـتي لجـأ فيها الشاعر إلى الرمز فخلع الحياة على البحر بأن جعله إنساناً يسمع ويستيقظ من نومـه وأحلامـه ، اسـتعداداً للمواجهة استخدامه (مد البحر) الذي يوحي بالتقدم والانسياب عند المواجهة و لم يكتف بذلك بل ألبسه ثوبـاً أرجواني الورود رامزاً بذلك إلى ما يقدم من تضحيات في سبيل الوطن فارجواني الورود إشارة إلى دماء الشـباب التي سفكت من أجل الوطن في الأحداث الثورية :

سَمَعَ البحرُ عنائي ، وأفاقْ
يَلْبَسُ المدُّ رِداءً أرجوانّي الورودْ
من ثياب الاخوةِ القتلى ...
أخاطَتْهُ جراحُ السُجناءْ [1]

إن الشاعر في هذه الأبيات بعّبر عن أثر الكلمة والاتجاه الوطني في إثارة الحماس وتوعية أبناء الـوطن ، وبـذلك يبرهن عن حسه الوطني من خلال الكلمة وبأسلوب تتجه فيه القصيدة نحو التطور والحداثة إلى جانـب الانفعـال الصادق تجاه ما بذل من دم الشهداء الذين سقطوا من أجل حرية الوطن وعزته . والبحر الذي أفاق رمز الحيـاة بكل أعماقها وأبعادها ولا نزال نلمح في مقاطع من القصائد أن شاعرنا مهموم لما يـراه مـن سـطوه الأجـنبي وتخلف لمدن بلاده المحرق ، والمنامة والرفاع ، مهموم السيطرة المحتل على البلاد بما فيها من ناس وخيرات ،وهمـه وطني يرى الجفوة والمواجهة بين جهتين السلطه وأبنائها فهو لم ينس الشركات الأجنبية وأحـداث 1956 ومـا نال أعضاء الهيئة الوطنية [2] . ومن ذلك قوله في قصيدة " زهرة البرسيم " : –

يدايَ تَمُرُّ فَوق الصَّخرِ ، تَطْلَعُ من مياهِ البَحرْرِ ،
يَعْلُو تَشْهِقُ الأَمَواجُ ، يَسْعَلُ في أعلى البُرجِ
ناطورٌ
تَهَدَّلَ يَرمْقُ الأُطَرافَ مُرتْاَحاً ...
لأَنْ البَحرِ لَيس لَديهِ مِفْتاحُ الزَّنازينِ الحديديَّهْ

---

[1] علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 32-33 .

[2] سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، فواز محمود مرعي ، م . س ، ص 223.

وأنَّ الصَّخْرِ مَغْرُوزٌ بقاعِ البَحْرِ ، والفُقَرَاءُ
مَكْدُودونَ في الإغفاءةِ الأُولى ...
تُنادي زهرُة البَرْسِيمِ تُرْسِل عِطْرَها
مِنْ داخِلِ الأسْوارِ [1]

هذه الأبيات هي ما اشتمل عليه المقطع الأخير من قصيدة (زهرة البرسيم) التي كتبها الشاعر في السبعينيات ، والقصيدة سياسية ذات اتجاه وطني برؤية وتعبير جديدين ، وبأسلوب متطور وفلسفة جديدة ، إذ ترمز هذه القصيدة إلى ثنائية الشعب والأرض مقابل السلطة ، فزهرة البرسيم محصول من أقدم المحاصيل الزراعية والبرسيم له تقديس عند بعض القدماء مثل اليونانيين كانوا يضعونه كأكاليل غار فوق رؤوس الجنود المنتصرين ، وعلى جدران المعابد[2]، وقد اشتهرت زهرة البرسيم بالتجدد والحياة فعطاؤها مستمر ، إذ كلما اجتثت جذورها نمت من جديد ، وفي البحرين صارت تلك الزهرة وذلك النبات رمزاً للقوة والصلابة ، إذ يضرب بها المثل في معرض الدعاء للإنسان بتجدد العمر وطوله ، فتشبه حياته المتجددة وطول عمره بتلك الزهرة . وتشتهر تلك النبتة باللون الأخضر الزاهي لنضارتها وطراوتها ، ومع ذلك فهي في البحرين ذات لون كالح كما يراها الشاعر ، وتلك حقيقة ولك لملوحة المياه وجفاف الأرض ولعدم الاهتمام بها مع أنها عامل مساعد على تقوية التربة ؛ وما ذلك إلا إشارة إلى عطاء الشعب وتحمله وتضحياته من أجل الوطن ، والذي يقابله عدم الاهتمام ، فحياته يسودها الجفاف والذي رمزه الصخر الصلب الذي كلما حاول ملامسته أو القرب منه طلع هذا الصخر من مياه البحر مما يوحي بالارتباط بين حليفين وعدم القدرة على الفكاك لأحدهما دون الآخر ، وقرينة ذلك أن الصخر مغروز وموضعه الذي غرز فيه قاع ذلك البحر مما يدل على عمق الصلة بين الصخر والبحر ، والبحر هنا مع قوته وجبروته لا يملك القدرة على مواجهة ذلك الصخر ، فهو مغروز بقاعه ويستفيد من خبراته المتمثلة في عطاء زهرة البرسيم التي ترسل شذى عطرها أي خيرها في كل مكان وهي حبيسة الأسوار ويقيدها أول ما يقيدها الانتماء والولاء للبحر مع قسوته معها لا مع الصخر ، فالبحر هو السلطة والأنظمة والقوانين التي تحد من حريتها .

إن زهرة البرسيم هي ذلك الشعب الصابر الصامد على الرغم من كل ما يحط به من صعاب قاتلة وضغوط مميتة ، ولكنه لن يخضع ولن يزول مهما اشتدت الهجمة عليه .

---

[1] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 57-58.

[2] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (22 يوليو 1996) .

وفي قصيدة (الصوت الفارع) يقول علي خليفة : -

غَافَلتنْا دمعةٌ
تَطْفُرُ من غيرِ مكانِ الدَّمع تَسْرِي
تَقْدحُ الهَّم على ذاكرةِ الوقِت شرارهْ
قد رأيناك على الجسرِ تغنِي للمطرْ
وتُنادي غَضَبَ البحر وياقوتَ الحجرْ
كلُّ مَنْ كَان على الجسرِ بذاك اليوم مكسوراً عبرْ
قَصرتْ في الـــحُلم قاماتُ الشَّجرْ [1]

إن هذا المقطع خطاب إلى إنسان صاحب مبادئ وقيم وقد يكون شخصية حية من الحي الذي ولد ونشـــأ فيـــه الشاعر، ويبدو من وصفه في المقطع الثاني أن لونه يميل إلى السواد وهو دائم الابتسامة ويحمل في يـــده خـــرزات سبحه كالحة اللون قديمة وفي ذلك قوله :-

فيراكَ الطفلُ في الـــحَّي غرابهْ
أبنوسُ الغابةِ العذراء يخفي
منكَ وجهاً باسمَ الطِلةِ لا يُخفي عذابهْ
وتُدوي ضحكةٌ مِنْكَ على أرض الكَابَهْ
...
ويداكَ الغُصنُ يعلو ، ثم يعلو
...
خرزاُتِ السبَّحة الكالِحةِ اللّونِ
تدلَّتْ من سحابهْ [2]

إنها شخصية لا تنسى في نطاق تفاصيل الحياة ؛ إنها شخصية ذات أثر ودروسها لها أهمية في الحياة ؛ إنهـــا تعّلـــم الصبر والمواجهة وتبّث روح الوطنية دون أن تبدي ما يشير إلى ذلك ، وقد أوجزتْ هذه المعاني العبارة الفعليـــة في قول الشاعر : (تنادي عضب البحر) ففي هذه العبارة ما يوحي بالتالاحم والتجميع للقوى ، إلى جانـــب تـــأثير هذه الشخصية الذي يسري في جوانب هامة من الحياة ويبدو ذلك التأثير في (الدمع) الذي يســـري في غفلـــة ، وفي قوله : (أجهش القلب) دليل على مكانة صاحب الشخصية عند الناس وارتباطهم به ، وفي كلمة (الجســـر) تعزيز لأثر ذلك الشخص ،فالجسر رمز التواصل واللقاء بين جانبين ثم يحدث التناغم والانســـجام فيمـــا بينـــهما بحيث لا يقدران على الخلاص من ذلك الشيء الغريب المؤثر الذي يشدهما إلى بعض وتلك روعة هذه الشخصـــية وذلك سر الإعجاب بها ، الذي يبدو من خلال (الغناء للمطر) ؛ إذن فالمعلم وغضب البحر وجها لشيء واحـــد

---

(1) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 37-38 .

(2) علي خليفة ، م . ن ، ص 25-26 .

يشدهما إلى بعض إنه القيم والمبادئ التي تشتر بها البحر الغاضبُ وهو هنا رمز إلى (الشعب) الـــذي وعـــى لمـــا يحيط به من هذا المعلم الرائع ، وذلك حس وطني متعمق في الوجدان .

ذلك كان اتجاه الشاعر الوطني كما بدا من خلال الاتصال بالأدب العربي ومنادته إلى تحرير الأرض والتوجه نحـــو الإصلاح ، ودحر المحتل والمطالبة بحقوق الشعب ، كما بدأ من خلال موقف الشاعر من الأحداث على المتســـوه المحلي ، وخوفه على الوطن وأبنائه من التمزق والتشقت ، وإيمانه بدور الأدب في علاج قضايا المجتمع والوطن .

إن ذلك الاتجاه قد بدا واضحاً في أعمال الشاعر من خلال البحر الذي راى فيه الشاعر صورة من صـــور شـــقا الإنسان في جميع ميادين الحياة ، كما رأى فيه رمز اضطهاد الإنسان واستغلاله والاستيلاء على ثمـــره جهـــوده ، فوظفه معنى ولغة لبيان اتجاهه الوطني ورحوحه الوطنية ، ووظّفه أيضاً للتأكيد على قوميته وفخره بأمجاد العـــرب وتاريخهم ، وخوفه على ضياع تلك الأمجاد .

1- الاتجاه القومي العام :

لاشك أن الروح السائدة في الأدب العصري الحديث هي المستمده من تاريخ العرب وحضارة لغتهم هـــي تلـــك المباهية بمآني أمجادهم والداعية إلى تاخيهم وتضامن أقاليمهم .

وقد تقلبت بها منذ بدء النهضة شتى الأحوال الساسية كما رأينا حتى كادت تختفي . على أنها مازالـــت حّيـــة في الأدب و لم تعدم في خلال محنتها مايوقد نارها ومن ذلك قضية فلسطين ، وما أحدثته وطأة الانتداب[1] من ثـــورة وما نشا في نفوس العرب بعد الاستقلال من مطامع وآمال[2] .

فلسطين تعد قومية عامة ولذا تبناها الأدب العربي ف كل قطر واهتم بمصيرها ، وما نظمه الأدباء يؤكد الشـــعور الأدبي العام في موضوع فلسطين في شتى الأقطار العربية [3] ، مصر والعراق ولبنان وسوريا وفي منطقة الجزيـــرة العربية والخليج ، حيث الاتجاه إلى الإخاء والاتحاد والتغني بأمجاد العروبة التي لا يزال يحلم بها الشعور الأدبي العربي.

2- إبراز الاتجاه القومي لدى الشاعر .

لا شك في أن الأدب العربي في منطقة الخليج قد تأثر بالروح القومية السائدة في الأقطار العربيـــة والـــتي كانـــت غرضاً رئيسياً من أغراض الشعراء ستأثر باهتمام الشعراء ، لأن معظم الأوطان العربيـــة ابتليـــت بالاســـتعمار . والبحرين كانت محتلة من الاستعمار الإنجليزي و لم تنل اســـتقلالها إلا في عـــام (1971) [4] فانتشـــر الاتجـــاه القومى انتشاراً كبيراً وارتبط الشاعر المعاصر بأحداث العصر وقضاياه ارتباطاً وثيقاً .

---

[1] راجع الهلال ، 41-751 مقال عبد الرحمن شهبندر ، أنيس المقدسي ، م.س ، ص 192.

[2] أنيس المقدسي ، م . ن ، ص 192.

[3] أنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص 192-197 .

[4] سيهر القلماوي ، محمد خلف الله ، فواز مرعي طيفور ، م.س ، ص 209-210 .

وقد اهتم شعراء البحرين بقضايا التحرير في الوطن العربي وتأصل الشعور القومي في نفوسهم بعد أن حّلت مأساة فلسطين ، كما تغنوا بأمجاد العرب وخصارهم ومن ذلك قول عبد الرحمن المعاودة : -

أسلافنا عرفوا الوفاق وحدوا باسم العروبة والحنيف لواء
وبنوا صروح المكرمات عتيدة وسموا ونالوا العزة القعساء [1]

وعلى مستوى منطقة الخليج تنبة (علوي الهاشمي) إلى وحدة تكون نقطة انطلاق لوحدة عربية شاملة :-

حبيبتي ...
ضمى على حبات عقدك الدين
ثم احرسيها كلها بألف ألف عين [2]

ومن الشعراء البحرينيين الذين أثارت قرائحهم قضايا التحرير والقومية في الوطن العربي إبراهيم العريض في مسرحية "أرض الشهداء " [3] .

وهناك الكثير من الشعراء البحرينيين الذين تفاعلوا مع قضايا القومية العربية لاسيما قضية فلسطين ، وفي تمجيد البطولات الفدائية التي صنعها الفلسطينيون أمثال المناضلة " أمينة دحبور " التي كانت من أبطال عملية زيوريخ الفدائية يقول الشاعر علي خليفة مؤكداً قومية وانتهاءه إلى الوطن العربي وتأثره بنكبة وأحداث فلسطين :-

أنا يا دانة الخلجانِ ...
يا أمي ،
أخيطُ الجرحَ في بيسان
بالإيمان والقّوهْ
أرى الإنسانَ (فِي الأٌغوارِ) ، لا يرجو
عطاَ العرفِ والقانون والنَّخَوهْ
فيلقة الحتفَ مختاراً
أمام الشمس بين الأرض والموتِ[4]

---

(1) سيهر القلماوي ، محمد خلف الله ، م.ن ، ص 252 ، عبد الرحمن المعاودة ، لسان الحال .

(2) سيهر القلماوي ، محمد خلف الله ، م.ن ، ص 253 ، علوي الهاشمي ، من أين نجئ الحزن ، ص 28 .

(3) تقع المسرحية في خمسة فصول هي : جبل الزيتون ، ونشيد الإنشاد ، وباب الواد ، وحيكل سليمان ، وقبة الصخرة ، سيهر القلماوي ، محمد خلف الله ، فواز مرعي طيفور ، م.س ، ص 259.

(4) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 14.

وفي هذا الجزء من قصيدة الجرح الكبير أبان الشاعر عن حّسه القومي متأثراً بما يجري بما يجري على أرض فلسطين ، و لم نيس هنا أن يوظّف في السياق لفظة البحر (الخلجان) و (الدانة) وهي من عناصر البحر في خطابه إلى الأرض والتي ناداها بـ (أمي) وخلع عليها صفة الدانه فهي في راية بحثاية لؤلؤة نادره ثمينة تستحق التحية والفداء.

ويستمر في تمجيد الأعمال البطولية مشيراً إلى المناضلة الفلسطينية قائلاً : -

فراحت تقطعُ الأميالَ في صمت
مسافرتان (لزيوريخ) عيناهاً
مسافُرة قضَّيتُها
لكلَّ مدائن الصبحِ [1]

وقد هزّت الشاعر هزيمه 1967 وما بعدها من نكسات وإحباطات في الوطن العربي ، فدعى الشاعر من منطلق القوميه العربية إلى تغيير الواقع السلبي ، بل هو يرى أنه يدمن حوادث صاعقه في اقطار العروبة تعيد إليها أمجادها الماضية .

ومن القصائد المعّبرة عن الروح القومية العربية لدى الشاعر قصيدة " قادم في الزمن الآتي " التي تشير الفكره البارزة والأفكار السائدة فيها إلى الرغبه في وجود المنقذ المخلص للأمة مّمما تعانيه :-

متى أرَاكَ هَاهُنا
تَختّالُ في الضُلوغْ
على شواطى الجُزُرْ
تفُكُّ سُفرَة القُلُوعْ؟
متى أَرَاكَ فَرْحةً على النخَّيل في الثّمارْ؟

تعالَ دُرَّةً يتيمةً تُفَجِّرُ الـمَحَارْ [2]
وَخَطْفَةً عَنيفَةً تُطوّعُ البِحَارْ [3]

لقد كتب الشاعر هذه القصيدة في عام (1970) وكما ذكر لنا في إحدى المقابلات الشفوية معه أن المواقف النفسية المريرة التي كان يقاسيها بسبب الأحداث في الوطن العربي ، إلى جانب وجود الخلاف الفكري والثقافي في الوسط الأدبي ولّد لديه الهموم التي أوحت له بهذه التجربة الشعرية [4] .

---

[1] علي خليفة ، م . ن ، ص 15 .

[2] المحار: هوالصدف أي غطاء اللؤلؤ .

[3] علي خليفة ن إضاء لذاكرة الوطن ، ص 43-44 .

[4] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (يوليو 1996) .

إن الشاعر يتحدث عن الوضع في المجتمع المتواكل لا المتكل ؛ إنه مجتمع لا يعمل فلا يحـــاول أن يغّـــير واقعـــه ، وإنما يكتفي بالصبر وانتظار الفرج بلا عمل ، والصبر فضيلة إذا كان تجاه قضاء الله وقدره ، أو إذا كـــان يعّـــبر عن فترة استعداد من أجل التغيير ولكنه يصبح النقيض إذا كان بلا عمل واقتنع بأن الأوضاع السيئة هـــي واقـــع قائم ولا أمل في تغييرها ، إن المجتمع حينئذ يكون مزيفاً منافقاً لا يحتمل الشدائد ،ولا يواجهها واســـتمرأ الـــذل والضعف والركوع، وهو لذلك " بحاجة إلى حوادث صاعقة وهزات عنيفة ، لتخلق منه مجتمعاً جديـــداً منطلقـــاً إلى المستقبل ، ذلك يكون بالعمل الجاد والوعي الذي يعصم من التخلف " [1] .

إن ذلك التمهيد الذي لخّص واقع الناس في المجتمع كان تعليلاً للحاجة إلى المنقذ والمخلص للمجتمع مّما يعانيه . ولعّلنا في هذا السياق نوضح جانباً من الخلاف الفكري بين الشاعر والنقاد في الوسط الأدبي ؛ فهناك مـــن يـــرى أن دعوة الشاعر إلى وجود المخلص للوطن العربي من معاناته دعوة بها سلبية وعدم ثقة بقدرات أبنـــاء الـــوطن . وقد ردّ الشاعر على ذلك النقد بأنه لم يقصد بأن يكون الخّلص للوطن من محنته من خارج الأمـــة العربيـــة لأن إصلاح المجتمع لا يأتي إلا بوعيه وثقافته أي من الداخل .

ونحن نرى أن الشاعر قد عّبر عن رغباته في الإصلاح والتغيير من منطلق دوره كأديـــب ، ولـــيس مـــن منطلـــق كونه قيادياً أو سياسياً أو جندياً مقاتلاً ، كما أن ذلك الحل يوحي بعدم ميل صاحبه إلى الحدة والعنف ، وفي ذلك تعقل في طرح الحلول لا يخولّنا أن نحكم على قائلة بالتقاعس أو الضعف ، فلكل إنسان رأيه واسلوبه واســـتقلاليته في التعبير عن أحاسيه ، ولنا في مواقف الشاعر في خدمة وطنه ومنطقة الخليج العربية ، والعمل على تنميتـــهما في مجال الفكر والثقافة ، إلى جانب الأنشطة الهادفة إلى رفع مستوى المواطن والوطن ما ينقض اهتمامـــه الفـــني الأدبي والإنساني بالإحساس السلبي تجاه الوطن بشكل عام ، ولهذا فقد وافق قوله فعله نحـــو وطنـــه العـــربي والقوميـــة وخدمته وإن كان ذلك في صمت واعتدال لا تطرف أو مبالغة .

ولتوضح الحس القومي اتكأ الشاعر على رموز من البيئة المحيطة مـــن شـــواطئ ، وجـــز ودّرة ومحـــار وقلـــوع استخدمها كرموز ودون إغراق في الغموض للتعبير عن أمانيه في خلاص الوطن العربي وتحـــرره مـــن الجمـــود ؛ فالشواطئ في السياق تعبير عن الآمال الواسعة الأسيرة في النفـــوس ، ويؤكـــد ذلـــك (الجـــزر) الـــتي تـــوحي بالمتناقضات وكتب الحرية ؛ مما يستدعي وجود من يفك هذا الأسر (تفك سفرة القلوع) إيـــذاناً بـــالخلاص ، لاشك أن ذلك الأمر يتطلب الإنسان (النادر الوجود) الذعر يشبه اللؤلؤة الثمينة ، وفي الأفعـــال الدالـــه علـــى حدث التحرر في خلاص الوطن العربي من محنته مثل (متى أراك) و (تختال) و (وتفك) إلى جانـــب الجمـــل الاسمية والاستفهام الموحي .

---

[1] سهير القلماوي ، محمد خلف الله ، عودة الله منيع القيسي ، دراسات في أدب البحرين ، ص 382-383 .

إن الشاعر هنا يدعو إلى تكاتف الجميع حول المحرك للقوى الوطنية القومية إلى جانب النضال بالكلمة والشعارات ، وهو يؤمن بقدرات أمته التي أنجبت الأبطال عبر التاريخ ، ولهذا فهو يؤمن بظهور ذلك البطل مهما طالت غيبته وطال فقده ، وبذلك ينبلج عهد جديد مشرق بالأمل . والحياة الحرة الكريمة ؛ إن هذا البطل هو الشعب نفسه الذي سيقف من جديد وينهض من كبوته .

إن هذه المعاني والأفكار قد أوحت للبعض بأن الشاعر يرى أنه لابد من مجيء المهدي المنتظر الذي ينفخ الروح والحياة للعودة من جديد إلى ما كان وإحداث الإصلاح ، وهناك من تصّور أن هذا المنقذ هو بطل من خارج كيانهم الاجتماعي ، أو أمتهم العربية [1] .

غير أن رأي الشاعر ينقض الآراء السابقة فهو عّبر عن الشعور العام بالضعف في جميع أنحاء العالم العربي ، لذلك استوحي الحلين التاليين وهما : حاجة الأمة إلى هزة عنيفة تعيد إليها رشدها ووعيها فتخرج الفرد البطل العظيم إي الإنسان الجديد ؛ ويقول الشاعر أن القصيدة قد فهمت خطأً بأن ما يريده وهو تمجيد وانتظار بطل خارج الأمة لينقذها مّما تعانيه فالإنسان المنتظر هو من تشوق الأمة إلى مولده إنه إنسان عربي جديد قادم في الزمن الآتي وهو المستقبل [2] إنه قادم من داخل نفس الإنسان ذاته الذي عليه إصلاح عيوبه وتطوير أفكاره وقدراته الإنتاجية ، والعمل بإخلاص من أجل المجتمع .

وإذا كان الشاعر قد تمني وجود البطل خارج المجتمع البحريني فمن أين سيأتي هذا البطل ؟ أنه من داخل حدود الوطن العربي ، وفي ذلك ما يؤكد اتجاهه القومي العربي . فعلى الرغم من حبه الشديد للبحرين إلا أنه قومي بعيد كل البعد عن الإقليمية الضيقة .

وننتقل في هذا الجزء إلى الاتجاه القومي المعّبر عن حب الوطن والانتماء القومي له والخوف لما سيحل به وذلك باستعراض ما كتبه علي خليفة بعد مطالبة إيران باحتلال البحر ، ثم تنازلها عن مطالبتها الصريحة واستقلال البحرين عام (1971) فقد كتب مباشرة بعد تاريخ المطالبة قصيدة عنوانها (الحضور والغياب في تضاريس جبل الدخان)[3] وحين استولت إيران على ثلاث جزر عربية عند مدخل الخليج في الإمارات العربية المتحدة ، ومنها هذه الأبيات حول أعلى قمة في جبل الدخان :

تناميْ فوقَ العُبابِ حقولاً
وأطَيافَ ذِكرى حميمهْ

---

[1] خلف محمد خلف ، سهير القلماوي ، عودة الله منيع القيسي ، دراسات في أدب البحرين ، ص 384.

[2] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (22 يوليو 1996) .

[3] جبل الدخان : أعلى مرتفع صخري في البحرين ، حواليه تقع حقول النفط ومعامل التكرير وهو ليس جبلاً وإنما هضبة صغيرة وسمي بجبل الدخان لما يغطيه من لون ضبابي أشبة بالدخان .

توارَيخَ ألفٍ من السنواتِ لُهاثاً
تنامين ، يسكُن فيكِ انفجارُ الزوابع، هذي
قطاةٌ تحُّط على وجنتيكِ ، لأن الرياحَ عسيرهْ
وأنتِ بدربِ التروح منارةْ
تَلوُحينَ ، يَقطُر منكِ التوُّجس وَمَضاً ، ويلقاكِ
في العرضِ والطولِ هَجْسُ البلاد العظيمهْ [1]

لقد أبان الشاعر عن حسة القومي الوطني تجاه بلادة في معانٍ تتفجر بالعاطفة القومية والحسرة على ما يسود البلاد من احتلال واستثمار للخيرات .

وقد تصّور الشاعر قيمة جبل الدخان بأنها تنام فوق بحر من حقول النفط ، مّما يوحي بالانفجار والثورة ففي الوضع (تنامين) و (يسكن فيك انفجار الزوابع) دلاله على ما يعقب الهدوء من تمرد وعصيان ؛ وما ذلك إلا لأن ثروة النفط التي تتربع عليها قمة الجبل ليست من نصيبها ، بل هي للمحتل الذي يستأثر بهذه الخيرات ، لذا فالمواجهه عسيرة بين الطرفين .

إن هذه المعاني تشير إلى خوف الشاعر على الوطن ودعوته إلى ندارك الأمر لئلا يقع الخطب فيطمع الطامعون كما حدث حين احتلت إيران ثلاث [2]جزر عربية :-

تغَّير لوُن الدراري ببحرٍ تّدنَسَ ، ضاعتْ نجومٌ
ثلاثٌ ، ومازالَ يطمعُ حوتُ البحارِ العميقهْ [3]

لقد كتب الشاعر قصيدة (الحضور والغياب في تضاريس جبل الدخان) بعد أن استولت إيران على ثلاث جزر عربية معبراً عن ألمة لضياع جزء من الوطن العربي وخوفه من ضياع أجراء أخرى وكأنه يستنهض الهم ، ويوعّي الجماهير والحكومات العربية في الخليج لما يدّبر ضدها من مؤامرات .

ولا نزال نرى البحر بألوانه ولآلئه وحيتانه هو المعّبر عن اتجاه الشاعر القومي وهو التراث الذي استمد منه معانيه وصوره ودلالاته ، فالبحر في السياق يرمز إلى سوء الوضع في الخليج إنه بحر (متدنس) قد تغيرت ألوان

---

(1) علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 53-54 .

(2) الجزر العربية هي جزيرة طُنب الصغرى ، وطّنب الكبرى ، وجزيرة أبو موسى .

(3) علي خليفة ، م . س ، ص 54-55 .

(لآلئه) و لم نعد نرى فيه إلا الحيتان المفترسة ، وفي ذلك ما يوضع قلق الشاعر من منطلق العاطفة القومية تجاه الوضع في الخليج .

ويحمل الشاعر هماً قومياً يقض مضجعة ، ومصدر هذا الهم خوفه على الخليج من الأعداء ، بلون دماء أبنائه الصارخة ، وبصوت أناهم فاستطان بالصوت لاستكمال هذه الصورة التي تشير إلى خوفه وألمه وحزنه على ما يدبر للخليج وشعب الخليج : –

يَا أيُّها الخلْيجُ كَّيفَ تَأْمنُ المراكُب الصّغيرهْ
تَكاتُفَ الأنواء عَبْرَ الرَّحلة الجوُّفيه؟
وَكَيَف أنْتَ أَزْرَقٌ علىِ جِدارِ قاعِة السُّلطانْ
وَاَخْضرّ على خرائطِ الغُزاهْ
وَكَيَفَ أَنْتِ أحمرّ ، تُضُّج بالأنينْ [1]

لقد أبرز الشاعر الاتجاه القومي في هذا الجزء مشيراً إلى تدهور الأحوال الأمنية والاقتصادية ، والسياسية وموظفاً البحر بمعطياته ومكوناته من مراكب وأنواء ، وألون مياه وخيرات .

إننا أمام بحر واسع تجوبه المراكب الصغيرة وسط الأنواء عبر رحلتها ، وهذا البحر متقلب فهو حيناً ثائر وحيناً آخر لونه أزرق وتارة أخضر وأحمر .

إن الخليج الذي يخاطبه الشاعر رمز إلى اليد القومية ذات التأثير على المراكب الصغيرة ، فنحن هنا أمام القوة المتمثلة في السلطة والشعب الذي تمثله المراكب الصغيرة التي تجوب مياه الخليج غير أمنة وذلك لوجود الأنواء والعواصف على سطحه .

ونخلص من هذه الصورة إلى أن خيرات الخليج لا ستقيد منها أبناءه فجماله ولونه الأزرق وصفاء لياليه لا تبدو للبّحار المكافح وهو يرتاد القارب الصغير ، إنما تبدو للناظر إليها خلف زجاج القصور العالية التي لا تهزها الأنواء أما لونه الأخضر فهو على خريطة الغزاه وفي ذلك كناية عن تمتع المستعمر بخيرات الوطن وهو في جانب آخر بدماء الغّواصين البّحارة من أبناء الوطن في الماضي ، ممتزجة بدماء الشباب والحاضر ، وفي ذلك رمز إلى التضحيات التي تقدم في سبيل الخليج ، وقرنية ذلك صوت الأنين المختلط باللون الأحمر .

إن هذا المقطع ليكشف عن البعد الحس القومي الذي أبرز الشاعر في أبيات من قصائدة موظفاً البحر فماء ذلك تعبيراً عن الوعي والعاطفة القومية الصادرة في تجربة شعرية صادقة .

---

(1) علي خليفة ، أضاءة لذاكرة الوطن ، ص 86. هناك قصائد وطنية في إضاءة لذاكرة الوطن ، آثار اقدام على الماء ، ص 12 – 24 ، لُغة الظمأ الأرجواني ، ص 25 – 27 ، هبوب النار على دم الورد ، ص 87-81-82-83-84 ، لم ترد هذه القصائد في الجدول لأن البحر محلّ الدراسة لم يوظّف فيها .

تلك هي رسالة الأدب الوطني القومي بشكل عام ، حيث أصبحت في صدور العرب على اختلاف أقاليمهم وثقافاتهم وأصولهم ونحلهم وأم بنهضة وطنية قومية مع المحافظة على استقلال البلد العربية ضد المطامع الاستعمارية ونظاماً صالحاً لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

ونخلص مّما سبق أن الاتجاه الوطني القومي بدا في دواوين الشاعر انطلاقاً من رسالة الأدب الغربي ومن خلال البحر ومكّوناته ، بدا مواكباً لتجربة الشاعر فكان واضحاً ومباشراً ومستمداً من طبيعة المجتمع والأحداث ، ثم اتجه نحو الخيال والرمز ، فأبان عن قدرة الشاعر على التعبير عن تجاربه بإمكانات فنية متطّورة وبأسلوب متميز وحس إنساني، علماً بأن الاتجاه الوطني القومي هو امتداد للاتجاه الاجتماعى الذي يتحمل بذور التمرد والرفض للأوضاع .

والجدول التالي ويوضح القصائد والدواوين التي ورد فيها توظيف للبحر ومكّوناته لإبراز الاتجاه الوطني القومي .

القصيدة	***الصفحة***	***البُعد***	***الديوان***
جمر الخمود	79	وطني	أنين الصواري
شمس المفاوز	95-94-93	وطني	أنين الصواري
حزن ليلى طفول	11-10-8-6-5	وطني	إضاءة لذاكرة الوطن
لغمة الظمأ الأرجوانى	35-33-32	وطني	إضاءة لذاكرة الوطن
قادم في الزمن الآتي	44-43	قومي	إضاءة لذاكرة الوطن
آثار أقدام على الماء	17-16	قومي	إضاءة لذاكرة الوطن
الحضور والغياب في تضاريس جبل الدخان	55-54-53	قومي	إضاءة لذاكرة الوطن
هبوب النار على دم الورد	95-93-86	قومي وطني	إضاءة لذاكرة الوطن
الجرح الكبير	14	قومي	أنين الصواري
زهرة البرسيم	58-57	وطني	في وداع السيدة الخضراء
الصوت الفارغ	38-37-36-35	وطني	في وداع السيدة الخضراء

ثالثاً : الاتجاه الذاتي

المقصود بالبعد الذاتي تعبير الشاعر عن الحقائق العاطفية والنفسية والكونية بعد تفكير ينّم عن عميق شعوره وإحساسه . بعد اقتناع ذاتي ، وإخلاص فني ، لا إلى مجرد المهارة في صياغة القول والعبث بالحقائق ، بل من خلال إبراز ما في نفسه من صراع داخلي عبر فكره وتاملاته ، وصلته بالحقائق التي الهمته في تجربته الذاتية ، إلى جانب الأفكار والخيال والعاطفة الصادقة [1] .

ويقول الاتجاه الذاتي في هذا القسم على دراسة ثلاثة جوانب في دواوين الشاعر هي الجانب الغزلي العاطفي ، والطابع النفسي المعنوي ، والطابع الفكري الكوني .

ويتضّمن الجانب العاطفي موضوعات المرأة والغزل عامة ، وتوظيف البحر ومكّوناته توظيفاً مباشراً ورمزاً للتعبير عن العواطف والأحاسيس والمشاعر.

ويدرس الطابع النفسي المعنوي موقف الشاعر من معالم الحضارة ، وتراجع القيم ، ومعجم السفر والرحيل ، وإبراز الشاعر لهذه المواقف من خلال ظاهرة البحر .

كما يتناول الاتجاه الذاتي من جانب آخر صلة الشاعر بالكون من خلال تاملاته وموقفه من الحياه ، وعلاقته بالبحر.

أ- الطابع الغزلي العام :

سنشير في هذا الجزء من الدراسة إلى الغزل والموقف من المرأة في دواوين الشاعر دون ارتباط بتوظيف البحر ، ثم سوف ندرس البعد العاطفي في دواوين الشاعر من خلال توظيف البحر وعناصره حيث أن البحر مساحة من مكان جغرافي حيناً ورمز فني حيناً آخر ، يمتزج بمكّونات وعناصر أخرى كالسفينة والبّحارة ، والشواطئ ، واللآلئ وغيرها ، إضافة إلى التعابير اللغوية المستوحاة من البيئة البحرية . التي استغلها الشاعر في ثنايا قصائده للتعّبير عن عواطفه وهمومه الذاتية ، ووصف الحبيبة وصفاً مباشراً حيناً ووصفاً رمزياً حيناً آخر .

9- الوصف الحسي :

لم تتخذ المرأة في تجربه شاعرنا موضوعاً مستقلاً في البداية ، شانه شأن معظم الشعراء في الستينيات وما قبلها ، وذلك لطبيعة المجتمع الذي يميل إلى الحذر والتحفظ والحرج ، ونظرته إلى المرأة وكأن الشعراء يتحرجّون من وصف المرأة أو مخاطبتها مخاطبة صريحه [2] ، وغالباً ما ارتبط ذكر المرأة بوصف الشاعر حرمانه وأشواقه

---

[1] محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص 363-364 .

[2] علوي الهاشمي ، م . س ، ص 119-122 .

وحنينه إليها ، وذكريات الماضي معها ، أما وصفها فكأن اعتماداً على التشبيهات العربية المتداولة فهي كالقمر وذات سحر وجمال.

ثم اتجه الشاعر إلى وصف المرأة وصفاً حسياً مؤثراً لكشف عن تحرره ، ورغبته في التعبير عن ذاته ، والخلاص من قيود الواقع الاجتماعى ، فأخذ يصف حركتها وابتسامتها وشعرها ، ويخاطب ون حرج أو خوف مبرزاً قيمة جمالها في الحياة ، وذلك شان الكثير من الشعراء الذين أشاروا في قصائدهم الإعجاب بالمرأة وشكلها فهي كالقمر في طلوعه والربيع في جماله وغيرهما ، ومّما يعّز موقف شاعرنا تجاه المرأة أنه حينما طرح علية السؤال التالي وهو : لماذا احتلت المرأة حيزاً واسعاً من شعرك ؟ أجاب قائلاً : إن المرأة يجب أن تاخذ كل حيز من شعري ذلك لأنها تعادل الحياة في رأي وهي في نظري شيء جميل وعظيم في آن واحد ؛ فكل قصيدة من قصائدي خُلقت من المرأة في مضمونها ومعانيها وفي رمزها ودلالتها وصورها فهي كائن عظيم وذات مكانة وتشعر بالتوهج [1] ؛ إن ذلك القول يؤكد لنا أن شاعرنا من أصحاب الحس المرهف والذوق الرفيع الذين يبهرهم الجمال ولا يملكون إلا التعبير عنه في رقة وبراعة تتم عن تقدير للجمال فتبدو المرأة واقعاً ملموساً كما في قوله :

أيها الــحُسْنُ الذي مسَّ الشِغافْ
يا حريرَ الشَعْر ياحُلَو انْعطافْ
يا انيسات يا ابتساماَ جاء عَفْواً
فَتَجلّى وَاَضافْ
يا رَبيعاً جَاء بالخِصْب ،
وأدْنى بالقِطافْ [2]

إن الشاعر في هذه الأبيات يبدو معجباً بجمال المرأة الذي يبدو من خلال الأوصاف الظاهرة ،وقد وصفها وصفاً يعبر عن إعجابه بها كمخلوق جميل ، لكن دون أن يجرح كبرياءها ، بل أضاف على الأبيات باحترامه للمرأة المحبوبة لمسات رقيقة نحسها في سهولة الألفاظ ، وخفة العبارات وانسيابها في رشاقة من خلال التقابل في القافية في نهاية كل سطر ومثال ذلك (الشغاف) و (انعطاف) إلى جانب التقابل في المعنى بين صورة المرأة والربيع .

وقد عبر الشاعر عن معاني الحرمان والبذل ولأوصاف الحسيه للمرأة عبر أشواقه وتساؤله عن علاقته بالمرأة التي يعتر بها اليأس والرجاء والتفاؤل والتشاؤم في قوله :

---

[1] علي حليفة ، المقابلة الشفوية ، (22 يوليو 1996) .

[2] علي حليفة ، أنين الصواري ، ص 131.

بُرْعُمٌ أنتِ على أغصانِ ورْد
وشبابٌ بانعُ الخصبِ ... غَريرْ
طاقةُ البَذْلِ التي فيكِ امتَطيها
وأملَيء دُنياكِ حُباً وعبيرْ [1]

وقد صّور الشاعر المرأة تعكس حالته النفسية المتفائلة فهي هيفاء وذات جمال وهمس مغناج ، وكأنها القمر ومهـــا نجد :

قد حوان اللَّيلُ ،
والأشواُق في الأحداقِ تُوحي
حدِّ ثيني يا مهَا نجدٍ ،
بأشعارِ النـــُّزوحِ
واسْكُبي عَذْبَ حديثِ النَّفْسِ
في قلبي ورُوحي
أسمعيني هَمْسكِ المغْناجَ ،
يا هيفاءُ بُوحي ... [2]

وفي حالة اليأس وفقدان الأمل يصيف الشاعر أحاسيه تجاه الحبيبة وصفاً يتّم عن ثقته بنفسه واحترامه للمرأة دون أن يسخط عليها أو يتندم منها ، فهو يرى في أوقات اليأس أن الحب قد مات واللقاء بينه وبين الحبيبة لم يعد إلا لقتل الوقت . ونجد مع ذلك معاني الاحترام والإعجاب بالمرأة الحبيبة :

ولَسْتِ الآن لي شيئاً
شفيفَ الُّطهْر ... فَّتاتا
مسأ لقاكِ مُصادفةً
كإسمٍ دونَ عُنوان
وألفاكِ إذا شقْتِ...
سنأتي مثلما يأتي
لَقْتلِ الوقْتِ إثْنانِ [3]

---

[1] علي خليفة ، م . ن ، 125 – 126 .

[2] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 135 .

[3] علي خليفة ، م . ن ، ص 113 .

ويصف الشاعرأشواقه ولهفته ورغبته في الإفضاء بمشاعره مخاطباً قلبه متسائلاً :-

قطارُ الحبِّ يا قلبي ، تراهُ فاتَ أمْ طَوَّلْ ؟
أمِ الساعاتُ خَانتْنا ، فما عادتْ كما الأوَّلْ ؟
هل الأحزانُ عَّرتنا ،
فَجُنَّ الشَّوقُ ملهوفاً و لم يَكمَلْ ؟

2- الوصف المعنوي :

ثم أصبحت المرأة في تجربة الشاعر نموذجاً يعكس انتماءه الاجتماعى ، حيث أصبحنا نراه يعّبر عن حرمانه وخيبته وإخفاقه المتواصل مع المرأة بسبب انتمائه إلى الطبقة الفقيرة المحرومة من نعم الحياة بما فيها حب المرأة ؛ كما أصبحت المرأة مثالاً يشير إلى انتماء الشاعر الفكري إلى المرحلة الواقعية في النظر إلى الأمور ؛ بمعنى أن الإخفاق لم يجعل الشاعر بيأس ويسخط على المجتمع ويصفه الزيف ، فهو يدرك بحسه الواقعي أن الأصالة موجودة ف المجتمع ، بينما تفرض طبيعة العلاقات بين الناس وجود الرياء والنفاق [1] .

إن الحب في مفهوم الشاعر أصبح أوسع تجربة من العلاقة الثنائية ، لأنه متصل مع المجتمع والواقع مّما يدفع به إلى الثقة بنفسه وبالمرأة ، والإصرار على البحث عن حب جديد بروحٍ متفائلة بحيط بها الحزن والعذاب .

ومن الأمثلة التي تدل على موقفه من المرأة في المجتمع كمحبوبة حيث تنمو الحقيقة الاجتماعية للمرأة في تجربته معها موقفه منها الذي يبدو من خلال التفاعل والصدق والوعي لتلك اللحظات التي أصبحت قادرة على النمو والتواصل معها قوله :

وماتَ الحُبُّ ... ماَتتْ رعشتي الأولى
وهبتْ يا بقايا الأمسِ أنواءٌ شتائّيهْ
حمَلنا الخافقَ المذبوَح ، وانسَرَبَتْ
نبا في اللّيلِ أصداءٌ لِمرثّيهْ [2]

إنها أسطر تعّبر ع موقف محب من محبوبته التي أحبها وتخلت عنه ، ثم أصبحت تحن إليه ، إلا أنه يحاول نسيانها أو تناسيها لما تركته في نفسه من آثار وجروح ، إن موقف الخيبة والفشل المر مع هذه المحبوبة جعلة يرفض العودة ثانية إليها ، وذلك إثر تجربة ذاتية عاطفية يبدو أن الشاعر قد مّر بها أيام الحداثة ؛ فحين توجهنا إليه بالسؤال حول طبيعة هذه التجربة وهل هي تجربه حب أول لم يحاول نفي أو تأكيد ذلك ، بل أجاب قد يكون وفي قول الدكتور علوي الهاشمي : لابد أن نصيب علي خليفة من المرارة والحرمان والخيبة لم يكن بأقل من

---

(1) علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 162 .

(2) علي خليفة ن م . س ، ص 109 .

نصيب " [1] باقي الشعراء في تجاربهم مع المرأة . إن في ذلك القول ما يؤكد صحة المعاني في هذه الأبيات والتي تحدثنا في الفصل الأول عن معاني مماثلة لها [2] .

إن هذه التجربة لم تقطع الشاعر عن الآخرين ، وتجعله ينقم على المجتمع ، بل أنه زادت من إيمانه بالناس وترابطه معهم :

عَذابي لم يَعُد فِيك
هُمومي قَدْ تَدَتْ كُبري
...
مَسيري حيثُما شِئتِ
تَريني في عُيونِ الخلقِ ... أحبابي [3]

ومع ذلك تبقى المرأة في تجربة شاعرنا المصدر الرحب والطرف الذي يتفاعل معه فنجذباً إليها ليفتح آفق المحبة والحياة بحثاً عن اللحظات الصادقة في حوار لا ينتهي .

فَجاءَ تْ مِنَ الغيب في مَسمَعي
ترانيمُ أنشودةِ لا تَغي
...
فقالَتْ ، وفي كُلِّ لفظِ دليلُ الحذَرْ
- أنْتَ ... ؟
- نعم إنَّني
...
أعاني الّتغَرب في مَوطني
- وأحرقُ قلب فَدى قَطْرة[4]
من الــحُبِّ إنْ كنتِ لا تَعلمينْ ،

ويتحدد موقف علي خليفة من المرأة الحبيبة مقترنة بالنخلة مّما يكشف عن دورها في المجتمع وموقف الشاعر منها وتعامله حضاريا معها في قوله :

---

(1) علوي الهاشمي ، م . س ، ص 162 .

(2) أنظر ، الفصل الأول ، ص

(3) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 111 –112 .

(4) علي خليفة ، م . ن . ص 121-122 .

خبرَها ، يَاقلْبِى الطَّالعَ من شَجَرٍ يَنْبتُ
في أرضٍ عاقرْ
كيف يَمُرُ جُنون الـــحُّب يعيشُ النْخلُ وحِيداً
في أطرافَ النَّهْر الناضِبْ [1]

إنه جزء من قصيدة غنائية رائعة تعّبر عن روح شفّافة متطلعة إلي الخير والحنان ومستعدة للبذل مقابل الجفـــاف ، وإن التميز في هذه الأسطر يصعب بين المرأة والنخلة فهما متداخلان [2] ومعّبران عن حالة نفسية بائسة تعـــاني المرارة ، والعاطفة الحزينة هي المسيطرة والمتوزعة بشكل تتألف فيه المعاني والألفاظ محـــددة الموضـــوع الرئيســـي الذي سّبب العذابات للشاعر إنه المرأة والموقف منها وتتطور تجربه الشاعر والعلاقة بالمرأة ويتحدد موقفـــه منـــها في المجتمع إذ تمتزج المرأة وتتدفع إلى جديدة نحوهموم الوطن والمجابهة الحقيقية مع أعدائه فيقول :

وأنتِ من تَطاوُل الأشياءِ في غرابَة المجابَهةْ
جاءوا بعينكِ على خنجرٍ
واستأصلوا منكِ صهيلَ الحضور
مسبيةَ كنتِ ، وكانَ الخلاص [3]

إن موقف الشاعر إذا من المرأة هو الموقف من المرأة المكافحة في المجتمع فهي ملتحمة بالواقع وعلاقاته بـــه ذاتيـــاً في إطار موقفه من المرأة والوطن النفسي والفكري على السواء مّما يجعلها فادرة على التحول مســـتقبلاً لطـــرح واقع بديل أكثر استمراراً ؛ ومع ذلك فإن الشاعر في مواقفه من المرأة يكشف عن تطور تجربته ونموهـــا ؛ وعـــن أصالته في التعبير عن آرائه بصوته وثقافته الخاصة ؛ فتصبح المرأة ملهمة له حينما يعّبر عن إعجابـــه بـــه إعجابـــاً قيماً وحضارياً ، وروحياً معّبراً عن شفافية الروح ونقائها ومن ذلك قوله مخاطباً المرأة الملهمة المحبوبـــة في قصـــيدة (سيدة القلب) :

وأحُّسك نوراً ، وخياماً وطُيُوبْ
وأحسُّك شيئاً يشُعْلُني
ويُّمد حناناً يُسْعِفُ لوعَة
هذا القلبِ الـــمَنْهُوبْ [4]

---

[1] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 41.

[2] علوي الهاشمي ، ما قالتة النخلة للبحر ، ص 368 .

[3] علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، 90 .

[4] علي خليفة ، م . س ، ص 63 .

إن المرأة هنا هي ملهمة المحبوب الذي يحتاج إلى من ينقذه من الضياع والاضطراب فـ (لنور) و (الخيام) توحيان بالوجدانيات والرغبة في طهارة الروح وانتشالها من الضياع ، وفي قوله (أحسك شيئا يشعلني) تعبير يوضح مدي تأثير هذه المحبوبة أو المرأة في الشاعر والتي قد تكون ايضاً رمزاً إلى شيء ينتمي إليه الشاعر من جهة أخرى كالأرض مثلاً ، وفي ذلك تعبير عن موقفه من المرأة الملهمة ، ومّما يؤكد الإصرار على ذلك الموقف هو الحاجة إلى هذه المرأة الممتزجة بالأرض تكرار حروف العطف وعبارة (من يسعف لوعة القلب المنهوب) .

هكذا بدأ موقف الشاعر العاطفي الذاتي في نظرته إلى المرأة كحبيبة حيث استطاع من خلال احترامه وعدم الإشارة إلى ما يخدش حياءها ، والايمان بدورها كأمرأة مكافحة في المجتمع ؛ استطاع أن يكشف عن تعامل قيمي وحضاري معها ، إلى جانب أنه فتح الطريق بشكل يقظ يتم خارج عملية الإبداع أمام المحبوبة الرمز وذلك حينما جعلها قادرة على الامتداد والتواصل مع علاقات الواقع حينما شحنها بالأبعاد الرمزية التي تعّبر عن هموم الوطن وقضاياه إلى جانب التعبير عن مشاعره وأحاسيسه المستمدة من الواقع ودون مبالغة .

وبلك نجد أن المرأة في تجربه شاعرنا قد نحت وتطررت من خلال تفاعله مع تجربته العاطفية وصدقه الواعي لعلاقة بالمرأة والجدول التالي يوضح القصائد التي ورد فيها تعبير الشاعر عن عواطفه وأشواقه نحو المرأة ، ووصفه لها وصفاً عاماً دون الإشارة إلى البحر وذلك من خلال الوصف الحسي للحبية و التعبير عن العلاقة القائمة على البحر وعدم الوصال [1] ومعاناة الواقع من خلال الهموم الذاتية والتجارب العاطفية بين الطرفين المرأة والرجل .

الديوان	القصائد	الصفحات
أنين الصواري	آثار جرح قديم	113-112-111-110-109
	علي رصيف المحطة	119-115
	جدول على الطرق الآخر	122-121
	أغنية إلى قلب صغير	126-125
	أمام جدار الصمت	129-127
	إلى عينين صديقتي	131-129
	انتظار	134-133
	حديثي	135
	خذني	145
	همس في ضنى الصمت	147
	العزف على وتر صّموت	149

(1) سهير القلماوي ن محمد خلف الله ، عودة الله منيع القيسي ، دراسات في أدب البحرين ، ص 399 .

	عند ما يأتي	151
	حرف إنسان بسيط	153
	خيبة	156-155
في وداع السيدة الخضراء	سيدة القلب	63-60
	النخل وأطراف النهر الناضب	44-40
إضاءة لذاكرة الوطن	لغة الظمأ الأرجواني	33
	هبوب النار على دم الورد	92-91

لعّلنا نتبين من هذا الجدول القصائد العاطفية المستقلة والتي قد تركزت في أنين الصواري هي أربع عشرة قصيدة ، إضافة إلى قصيدتين من ديوان في وداع السيدة الخضراء ، وقد جاء في مقاطع منها وصف الحبيبة في موضوعات غزلية وصفاً عاماً مباشراً ودون توظيف للبحر وإن كانت هناك مقاطع قد وظّف فيها البحر سوف تشير إليها فيما بعد أما في ديوان إضاءة لذاكرة الوطن فإن معاني الحب وردت ضمن قصائد اجتماعية ووطنية لأن معاني الحب صارت إما رمزاً لثورة أو مرافقاً لها[1] ، وكأن التجارب الخاصة لا تكون في قيود المجتمع المتخلّف الذي يحجر العاطفة ، إنما تكون في ظل محبوبة هي الثورة [2] .

3- الاتجاه العاطفي وتوظيف البحر :

تِعد الطبيعة وعناصرها المتداخلة موضوعاً ذا أهمية في الأعمال الأدبية فالطبيعة تعكس حالة الأديب وتصور نفسيته وملامح شخصيته من خلال تفاعله معها وتشكيل تشكيلاً عن الأصل وممتلئاً بالعواطف المعّبرة عن روح الأديب وفكره[3] .

لذلك أصبح الشعراء يعايشون الطبيعة ويمتزجون بها امتزاجاً يوحي بالإحساس العميق بالطبيعة وعناصرها فالشاعر قد يتمقمّص حال الزهرة ويتجاور معها معّبراً عن عواطف الخاصة .

كما وظّف الشعراء الطبيعة وعناصرها توظيفاً نفسياً يشير إلى حالات النفس وتأملات الفكر ، فالشاعر أصبح يرى في الطبيعة نفسه وحسه ، حيث تشاركه همومه وأحزانه كما تشاركه في الإحساس بالسعادة .

وقد تحولت الطبيعة وعناصرها إلى كيان متحير بذات الشاعر فالربيع عند بعض الشعراء لم يعد مشهداً يعّبر عن

---

(1) علوي الهاشمي ، ما قالتة النخلة للبحر ، ص 49.

(2) علوي الهاشمي ، م . ن ، ص 50.

(3) علوي الهاشمي ، ما قالته النخلة للبحر ، ص 49.

الجمال والسحر ، وبما يضيفه على الكون من بهجة . بل أصبح الشاعر يقترب منه كي يشاركه الوجـــد ويقاسمـــه الهموم [1] .

وبما أن حالة النفس مرتبطة بعاطفة الحب المتجهة غالباً نحو المرأة فإن الشعراء قد اســـتغلوا الطبيعـــة وعناصـــرها للتعبير عن الاتجاه العاطفي ، ومن هذه العناصر البحر بمكّوناته والذي يعد عنصر من عناصر الطبيعة الهامة .

لقد ربط الإدباء والكّتاب بين البحر والمرأة في التعبير عن عواطفهم بل عّد بعظهم امرأة " وكان يـــدعى المحـــيط " (البحرة) lamar وهو الاسم الذي يطلقه الناس باللغة الاسبانيه على المحيط حين يتعْشقونه وفي بعـــض الأحيـــان كان أولئك الذين يتعشْقون المحيط يذمونه أو يسبونه ولكّنهم كانوا بفعلون ذلك دائماً وكأنهم يتحـــدثون عـــن أمرأة"[2].

وكان البّحار في رواية الشيخ والبحر " كان لا يفكر فيـــه إلا كلكـــائن مونـــث ، وإلاكشـــيء يهـــب المـــنن الجزيلة أو يحسبها . وإذا كانت " البحرة " تسلك مسلكاً أحمق أو جنيثاً فلأنها لا تستطيع أن تفعل غير ذلك [3] .

وفي رواية " البّحار الذي لفظه البحر يتحدث ، يوجي بطل الرواية قدرة البحر وحسنانه مجدداً موقفه منـــه قـــائلاً عن نفسه بفضل البحر أتته فكرة التفكير بالحب أكثر من التفكير بأي شيء آخر ، عن حب بضنيك ، ويســـتحق أن يموت الإنسان من أجله . وبالنسبة لرجل سجين بصورة دائمه في مركب من الفولاذ ، فـــإن البحـــر الـــذي يحيط به يشبه أمرأة إلى حد بعيد ... [4] .

وفي رواية (حكاية بّحار) يتحدث بطل الرواية عن البحر قائلاً :" هذا حبـــيبي ، الأزرق ، لرحيـــب حبـــيى . منه الخير والعطاء والنقمة والبركة ، ومنه المرأة التي أحب ، والمرأة التي سأحب كل حياتي " [5] .

4- التوظيف المباشر للبحر .

أما شاعرنا كما سنرى فقد اتحد بالبحر وعناصرْ وتفاعل معه معّبراً عن عواطفه ومشاعره لحبـــة الشـــاعر بجـــز ، وهو بعّص بالحب كمن يشرب ماء بحار الدنيا ، ويصّور عواطفه تجاه المرأة بالدنيا الواسعه التي لا يعقهـــا حبـــل مرساة السفينة ، كما يعّبر عن مشاعر تجاه المرأة ويصور ها الخصم ، والقرار العميق ومثال ذلك قوله :

---

(1) علوي الهاشمي ، م . ن ، ص 50 .

(2) ارنست همنغواي ، الشيخ وا لبحر ، ص 29.

(3) ارنست همنغواي ، م . ن ، ص 29.

(4) يوكيو ميشيما ، البّحار الذي لفظة البحر ، ص 44 .

(5) حنا مينة ، حكاية بّحار ، ص 14 .

.. ولَنْ أهَوى
لأَنّ الــحُبَّ يفْجَعُني ، ويَنزِفُني إلى القاعِ
لأنّ مَحَبَّتي بحرٌ
فَمَنْذا يرتضي بحراً يُغرِّقُهُ ..
لكي يَهنا بإِمْتاعِ [3]

إن الحب في إحساس الشاعر هنا نقترن بالبحر بل هي بحر ، مّما يدل على استعداد المحب للعطاء فهو بحر ومتحد به في تدفقه واتساعه وامتداد ، وذلك كناية عن فيض المشاعر والأحاسيس التي تعتمل في نفس المحب ، وهنا تبرز أهمية استخدام البحر عبر أدوات هي التشبيه البليغ والتأكيد بالأداة (أن) مما وضح المعنى إلى جانب المشهد المحّرك للموقف والمعنى المراد توصيله ، فالبحر هنا ليس بحراً عادياً بل هو بحر عميق يغرق من يحاول الغوص به ، وهنا نستبطن معنيين متصادين فالبحر يغرق الحبيب هو هنا متعة إذ يغرقه في حين يفجع المحب فهو يُهدر طاقات المحبة لديه .

ومن الأبيات التي وظّف فيها الشاعر البحر بشكل مباشر للتعبير عن همومه الذاتيه العاطفية قوله في قصيدة "النخل وأطراف النهر النضب " :

أَيا حُبَّاً ضيَعَّني دَهْراً ،
أضْرِمَني خَشَبَاً
شَّربني ماءَ بحارِ الدُّنيا ،
أَطْفأَني ، أَطْفأَني
أَلْقَاني هَشِيماً يَذْرُوني خَيْطُ الرّيحِ الْجَامِعْ [1]

إن هذا الجزء يحكي لوعة المحب ويعّبر عن همومه تجاه الحب ، الذي يحبط به الفشل والحرمان ومن الصور المعّبرة عن الحرمان قولة " شربني ماء بحار الدنيا " وقد بدأ المقطع من خلال النداء الموجَه إلى الحبيب بهدف التهكم ، ثم أتبع ذلك التقرير الإخباري حول ما آل إليه المحب إنه الضياع والاشتعال بنار المحبوب حتى الاكتفاء ، فما بحار الدنيا في السياق كَناية عن التأزم ، وتوالي الهموم الذاتية وعدم القدرة على الاحتمال ثم الانطفاء والارتماء هشيماً .

ويلحظ من خلال القصائد التي تّمثل المحور الأول أي الوصف المباشر أنها تصّور التجار العاطفية المرتبطة بالشارع حيث يحّرر خطابه الموجه إلى فتاته أو محبوبته ، وتتكرر في الأبيات المواقف التي يذكر فيها الشاعر أثر

---

(3) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 142 .

(1) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 42 .

عليه من هموم وشجن وحاولة للنسيان أو التظاهر بذلك مستعيناً بالصور الحسية مثل أسم (الشراع) [1] الذي تكرر في ثلاث قصائد من الديوان الأول أنين الصواري إلى جانب (المرساة) [2] التي جاء ذكرها في قصيدتين من الديوان نفسه إلى جانب (السفينة [3] والشاطئ[4]) في ديوان في وداع السيدة الخضراء ويلاحظ أن هذه الأسماء قد اقترنت في هذه القصائد بمعاني الأسى والشوق الواضح إلى التحر والخلاص من الإرهاق العاطفي ، إلى جانب الإحساس بالغربة ومن ذلك قولة :

وَأُبحُر في دُنَى حُبِّي
ريحٍ تُعوّقُني ولا حَبلٍ بمرساةِ
وَأُدْفِقُ كُلَّ تَحْناني[5]

إن هذا المقطع يؤكّد الرغبة في الانطلاق دون قيود وضوابط تحد منه مما يحّدد موقف الشاعر تجاه تقاليد المجتمع الصارمة التي تحول دون المحب وانطلاقه لك بوضوح من خلال قوله : (بلا ريح تعوقني ولا حبل بمرساة) ، وما تلك الأماني إلا لعدم قدرة الشاعر ذاته على الأنسلاخ من هذه القيود فهو ، وإن عّبر عن ذلك شعراً ، فإنها تظل أماني حبيسة في النفس غالباً ، وقد استعان على إبرازها من خلال عناصر الطبيعة والبيئة الملموسة من ريح وابحار في البحر وحبل ومرساة ؛ إنها أدوات استخدمها الشاعر في صورة القيود التي تكبله وتقيده محاولاً التخلص منها وذلك كناية عن الرغبة في الخلاص والانطلاق نحو العطاء والبذل في عالم المحبة ، إنها معاني تعبر عن روح حيوية متجددة باحثة عن شيء جديد فصورة الشاعر هنا تشبه بشكل مباشر صورة سفينة تبحر في عالم المحبة ، وفي تتابع حروف (العطف) وتكرار (لا) ما يؤكد عن الرغبة وفي تجربة ذاتية أخرى تكون المحبوبة هي البحر هي البحر الخضم ومن ذلك قوله :

وكَيْفَ أن أطيرْ؟
وأنْ أكونَ في الِخضِّم سابحاً ،
ولا أكونُ في القَرار غاطساً كما الغريُقِ ؟[6]

إن المعاني من خلال الألفاظ والأدوات الفنية المثمثلة في تكرار الاستفهام تشير إلى وجود القيود الاجتماعية للأغراف والتقاليد التي تحد من انطلاق الشاعر ، وتحول دون وصوله إلى الفتاة المحبوبة ؛ فشاعرنا يؤكد احترامه للمرأة وتعامله معها تعاملاً قيمياً ، من خلال وتصوير المحبوبة في القرب منها بالخضم والقرار العميق

---

(1) الشراع : أنظر ، ص 109 – 130 – 138، أنين الصواري ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 80 .

(2) المرساة : أنظر ، أنين الصواري ، ص 110-143.

(3) السفينة ، أنظر ، م . ن ، م . س ، ص 62-64 .

(4) الشاطئ ، أنظر ، م . س ، م . ن ، ص 27-53-87 .

(5) علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 143 .

(6) علي خليفة ، م . ن ، ص 127-128 .

الذي يقابله الغرق لمن يحاول الاقتراب منه ؛ إذن إن الخضم وهو البحر العميق رمز إلى الفوارق الاجتماعية والتقاليد العالقة في النفس التي تحول دون تحقيق الإنسان لرغباته حتى وإن بدا ذلك ممكناً ، فالمجتمع تعارف على ذلك وأصبح الإنسان يحس بوجود الموانع نفسياً وإن زالت أسبابها الظاهر.

وهكذا تتكرر المعاني التي تعّبر عن قلق الشاعر وضياعه ومن أقواله في ذلك :

حَملنا الخافَق المذبوَح ، وانسرَبتْ
بنا في الليّل أصداءٌ لِمرثيَّهْ
فأبحرنا بلا زادٍ ، وكان الصَّبرُ موالاً
لإشَرِّعتي ... وأحزاني ... الخريفيَّهْ
نعمْ ، ماَت الذي تَعنيَن من زمنٍ
وخابَ الظَّنُ ، وانكَسرتْ
مْرايا الشوَّقِ مَرْميَّهْ [1]

إننا هنا أمام بّحار قد تّوحد به الشاعر وهما يعيشان الخواء وأهوال البحر ومخاطره ، وقرينة ذلك أنهما لا يحملان زاداً فزادهما هو الصبر، وصورتهما مثل صورة الموّال الذي يردده الغواصّون في رحلة الغوص للحد من الصعاب التي تواجههم وللتخفيف من همومهم ؛ بل إن الصبر ذاته موّال وأغنية يردّدها الشاعر المتوحد بالبّحار لتسيير أشرعته أي للتخفيف من معاناته ، فالأشرعة وسلة تسيير السفينة والرحيل بها من مكان إلى آخر ، وقد أجاد الشاعر استخدامها في السياق ، وهي هنا توحي بمحاولة القوة المستمدة من شراع السفينة في انطلاقه واتجاهه إلى عالم آخر بعيداً عن حياة الرتابة والسأم . فالشاعر حياته الوجدانية يغلفها الحزن وتغشاها الكآبه إثر تجربة ذاتية عاطفية فاشلة يرجح إنها تجربة حب أولى وإنه يحاول أن ينسى هذه التجربة بمرارتها ويصد صاحبتها لكي يستطيع أن يستعيد قوته بعد اليأس ؛ ودليل ذلك قوله؟ (مات الذي تعنين) و (خاب الظن) ثم قوله : (انكسرت مرايا الشوق مرمية) مما يعكس ما ضيه وحاضره والزمان الذي يعيشه وفي قوله : (مرمية) دليل على انكسار نفسية الشاعر في ذلك المرايا وهي مرمية يختلف عن انكسارها وهي مثبتة على الجدر أن أو على أي شيء آخر ، إنه يعني التحطم . وتبلغ المعاناة والإرهاق بالشاعر الذروة حين يخاطب الشاعر الحبيبة قائلاً :

يا سيدَة القلبِ المُتعبْ
إني أتلاشى بين يديكِ : أذوبْ
وأرى سُفناً من ورقِ تُبْحرُ بي
وتَئوبْ
...
فَأحُسكِ في صحراء القلبِ غزالاً مَرْعُوبْ ... [2]

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 109 .

[2] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 62 .

إن شكوى السهد والحرمان والعذاب تظهر بوضوح في هذا الجزء من خلال (يا النداء) التي جاءت دالـــة علـــى الاستغاثة بسبب الحرقة ، وقد أتبع الشاعر تلك الاستغاثة تأكيداً (إني) وهو دال على الإرهاق والضعف أمام هذه السيدة التي ناداها (بسيدة القلب) ويؤكد الإرهاق الفعلان الدالان على حدث (التلاشي – ثم الذوبان) ؛ إذا إن هذه السيدة لها أهميتها لدى الشاعر فهي تتربع على عرش قلبه المنهوك المتعب ، وهي سبب محنته ، لذلك فهو يتمنى الخلاص من سيطرتها ، وكيف السبيل إلى ذلك ؟ إنه يعود إلى البحر وهو الملجأ الوحيد للخلاص مذلك ، وأمانيه في ذلك تبدو منخلال رؤية السفن ، إلا أن تلك الرؤية حلم وخيال وأمان بعيدة المنال ، فتلك السفن سراب ووهم فهي من ورق والسفينة المصنعة من ورق لا تقوى على الإبحار وتئوب إلى صاحبة القلب المتعب التي لا فرار منها ، وهنا تمتزج معاناة الشاعر العاطفية فإحساسه بالفقد والضياع لكل ما هو ذو قيمة من محبوبة ، ومن أرض وبحر وماء وقيم .

ويوضح الجدول التالي قصائد البعد الذاتي القائم على الوصف المباشر لهموم الشاعر والمحبوبة من خلال توظيف البحر

القصيدة	الديوان	الصفحة
لن أهوى	أنين الصواري	143
أمام جدار الصمت	أنين الصواري	128-127
آثار جرح قديم	أنين الصواري	110-109
إلى عينين صديقتين	أنين الصواري	130
سيدة القلب	في وداع السيدة الخضراء	62
النخل وأطراف النهر الناضب	في وداع السيدة الخضراء	43

لعّلنا نتبين مّما ذكر أنفاً أن البعد الذاتي القائم على عاطفه الحب قد بدأ بشكل مباشر وبصورة تقليدية عّبر فيهـــا الشاعر عن معاناته وحرمانه من خلال تساؤله حول بعد الحبيبة ، وأشواقه إليها وجدته أمام العلاقة القائمة علـــى البعد وعدم الوصال ، فاتّخذت المعاني والأوزان الشعرية الشكل التقليدي في التعبير عن مشاعر الشاعر تجاه المحبوبـــه وذلك في الديوان الأول .

ثم تتحول الحبيبة إلى رموز ومعان أخرى في رؤية الشاعر كما سنرى في الديوانين الثاني والثالث .

4- التوظيف الرمزي للبحر :

سوف نستعرض في هذا الجزء البعد الذاتي المتمثل في موقف الشاعر من الحب والعواطف النبيلة التي تختلط فيها معاني الشكوى ، من التجارب المريرة والحرمان برموز الغربة ،وشفافية الروح والحس اللذين صقلتهما تلك التجارب وعّبر فيها شاعرنا عن إحساسه بالحيرة والضياع والغربة إثر معاناته الذاتية وشعوره بالإرهاق .

ويوضح الجدول التالي القصائد التي تضّمنت البعد الذاتي المعّبر عما تقدّم :

القصيدة	الديوان	الصفحة
يعشب الورق	في وداع السيدة الخضراء	27-26
زهرة في القلب	أنين الصواري	138
طائر الجزر الثلجية	إضاءة لذاكرة الوطن	78-78
آثار جرح قديم	أنين الصواري	110
النخل وأطراف النهر الناضب	في وداع السيدة الخضراء	42

في ضوء ماتقدم سوف نتناول بالدراسة جزءاً من قصسدة " يعشب الروق " التي كتبها شـــاعرنا في قطـــر عـــام (1878) فهو يقول :

عاشِقٌ مُجنّحُ القلبِ
ممأسورٌ به وَمُنْطلقُ
يعالجُ الكونَ بالحُبِّ
وفَي أُتُونِ الحبِّ يحترقُ
تنا هَبتْ قَلْبَهُ الشُّطانُ والأُفقُ [1]

إن وصف الشاعر لاتجاهه الذاتي يرد في مواضع مختلفة من هذا المقطع ، فهو عاشق يقابل الطير في تملكه جناحين ، فقلبه بين أمرين وهو إنه إسير ومتحر في الوقت نفسه ، مما يدل على المأساوية والإجساس بالقيود والضوابط ثانية ، فهو هنا أسير المحبوبه ، وهو منطلق إليها بعطائه وتدفقه ورغبته في البحث عنها وعمل الخير وتفسير ذلك معالجتـــه الكون بالحب . فمن كانت هذه صفته فهو على درجة كبيرة من النيل والتسامي ، ذلك لأنه يحترق نبار الحـــب ، ويتمزق قلبه الذي تناهبته الشطان مقابل طاقات البذل التي يقدمها للأحزان ، لذلك فهو ما بين الحرية والقيود اسير بالمعاناة والعذاب ، ومتطلق بعلاح الكون بالحب وتقديم العون للآخرين .

وهكذا استطاع الشاعر أن يحدث تداخلاً ما بين اللغة والمعني الموروث ، فاللغة الشعرية بدت من حيـــث الجمـــل التقريرية الإخبارية في السطر الأول والثاني ، والجمل الفعلية ، المعّبرة عن الأحداث في الســـطر الثالـــث والرابـــع والخامس مستعيناً بالألفاظ والتعابير الدالة على الاحتراق والمرارة ومنها (عاشق مجنح) و (مأســـور) و (أتـــون الجب يحترق) و (تناهبته) ذلك إلى جانب المعاني الشفافة الموحية بحب الخير والتضحية والإيثـــار ، وتوظيـــف الموروث من البيئة مثل الأتون ، والأفق والشطآن التي أدّت المعني بدلالتها على الامتداد والسعة وتلك صفة المحبوب في نظر المحب ، وتلك هي فلسفة المحب .

---

[1] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 26-27 .

إن هذه المعاني تنطبق حقاً على جانب من شخصية شاعرنا كما قد أشرنا إليها من قبل ،ومنها تضحياته من أجل أسرته وتحمله المسئولية مبكراً ، ومساهماته في خدمة المجتمع ،وحاجته إلى الدفء والمحبة ، إذ كانت حياته جادة منذ طفولته المبكرة ، فانعكس ذلك على شعره .

وفي قصيدة " زهرة في القلب" تبدو فلسفة الشاعر في الحب إذ يقّدم في هذه القصيدة خلاصة تجاربه في الديوان بمرارتها وإشراقها وبما فيها من صراع وهدأة وأمل ويأس ومواجهة للسلبيات والفوارق الاجتماعية في المجتمع فهو يؤكد على الجانب المشرق الذي إليه بالزهرة التي تعني الأمل التفاؤل ومحاولة التغلب على الصعاب من خلال عناصر الطبيعة والموروث ، فمن أقواله التي تدل على تفاؤله :

خُذوني شِراعاً ...
خُذوني جناحاً أريدُ أطيرْ
وأرفعُ رأسي لشمسٍ جديدْ
وَأغسِلُ شوقَ فؤادي الكسيرْ
لأرض بعيدهْ [1]

إنها معان توحي بالإشواق و الرغبة في الحب والتشعب والانفتاح على عالم الجمال والسعادة الذي رمز إليه (بالشراع) إلى جانب التطهر مما يكدر النفس ويقلقها ، وهي أبيات تتراقص منها عبارات السعادة والنشوة التي نحسها في الفعل الدال على الحركة من خلال الطيران ، والارتفاع نحو الشمس الجديدة وتطهير الفؤاد ، وذلك لا يكون إلا بالرحيل لأرض بعيدة . وكأن هناك انقلاباً اجتاح حياة الشاعر في هذه الأبيات إذ تناسى الهموم والمأسي وانطلق مع السعادة والهناء ولو للحظات بعيداً عن الواقع ، إنها أمنية الرومانسي وشوقه إلى عالم الفصل والمثال .

تلك كانت معاني تعاود الشاعر الإنسان بين الحين فهو إن شعر بالراحة استعدتنا معانية وإن شعر بالقلق والتعب أثرت فينا معانية أيضاً وهكذا يتأرجح الشاعر ما بين اليأس حيناً والأمل حيناً آخر.

ونجد أن الشاعر في هذا المجال غالباً ما صور مأساته وبث آلامه حينما اصطدم في تجاربه الذاتية بالخيبة والفشل ، وتبدو تلك المأساة في قصيدة " طائر الجزر الثلجية " وتعد هذه القصيدة ذات أهمية في محور التجارب الذاتية ، إذ تعكس متاعب الإنسان وإرهاقه إثر تجربة ذاتية إلى جانب مواقف وأحداث فكرية وثقافية وسياسية واجتماعية واجهها الشاعر في المحيط الذي يعايشه .

وفي هذه القصيدة ، قصائد أخرى سوف نشير إليها ، تنمو الحقيقة الاجتماعية للمرأة في تجربة علي خليفة ، ويبرز تفاعله الحميم مع تجربته ، وصدقه الواعي في تلك اللحظات المكثفة من تجاربه مع المرأة التي أصبحت قادرة على النمو عبر معالجات جديدة من خلال الحركة التواصل مع الآخرين ، مما عمّق وجودها في نفس الشاعر وأصبحت من خلال شعره تحمل هموم المجتمع والوطن ، وتشاركه همومه الذاتية وحيرته ، بعد أن كانت في رأي بعض النقاد مثل علوي الهاشمي امرأة سلبية عاجزة عن تحمل المسئولية ، حيث قرن بين أقوال علي خليفة على لسان المرأة وبين نظرته السلبية إليها ، ومن ذلك قوله على لسان زوجة الغّواص :

رَوَّعِ الحيتانَ في الأعماقِ يَا ابنَ السنَدَبادْ
رَوَّعِ الظُلمَ وَأَنْصَافَ الرّجالْ [2]

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 138 .

[2] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 38.

يرى الدكتور علوي الهاشمي أنه مع كون الصورة السابقة جميلة ونابضة بالذكريات إلا أن المرأة فيها بقيت سجينة ذات الشاعر وينسب ذلك إلى تجربة علي خليفة كما يقول مع المرأة والتي سببها تجربة حب فاشل معها مما كان له الأثر السلبي عليه حيث أصبح غير قادر على الثقة العميقة بدورها الاجتماعي إلى جانب الرجل فاستعاض عن ذلك بعناصر الموسيقى الخارجية والبلاغة التقليدية لإبراز دور زوجة الغواص مما لا يسمح بالانطلاق في التجربة صوب الذات والاتجاه نحو السقوط والتكرار [1] .

بينما يرى الدكتور ماهر حسن فهمى هذا المجال أن المرأة أشرفت على ساحة التجربة المريرة لهموم الغّواص في شعر علي خليفة في هذه القصيدة حيث بدت تعاني الخوف على الخروج من الغربه والشوق إليه فهو يرى أن علي خليفة قد فصّل المواقف الانفعالية في " صدى الأشواق " يوم استقبال العائدين من رحلة الغوص بعد غيبة طويلة و لم يفلت منه الموقف الانفعالي حيث كانت معاناة الزوجة مصدراً شكّل منه الشاعر صوره الممتدة التي استندت الصور الجزئية في داخلها على التعبير الحقيقي المتسم بالتصريح فالتحمت الصورة بالتعبير كي تكشف عن الإحساس بالقلق والاضطراب [2] .

وعلى الرغم مّما ذهب إليه الدكتور علوي الهاشمي نجد أن علي خليفة كان صادقاً في رصد مشاعر الزوجة ، فتحّدت بلسان زوجة تعيش في مجتمع شرقي بين جدران غرفة كان صعباً عليها أن تفتح نوافذها فيسمع منها صوتها ، وذلك كان في ديوان أنين الصواري وبتطور التجربة أصبحت المرأة المحبوبة هي والثورة ، شيئاً واحداً ثم اصبحت في ديوان في وداع السيدة الخضراء هي الملهم الذي يستوحي منه الشارع معانيه وأفكاره مما يؤكد حركتها وتواصلها لدى الشاعر الذي وظّفها في موضوع الوطن والمجتمع كما تقّدم ، وما نحن بصدده الآن هو التعبير عن الاتجاه الذاتي من خلال تراكيب البحر ومفرداته كرمز إلى غربة الشاعر وشفافية روحه وحسه وتعد قصيدة " طائر الجزر الثلجية " مثالاً على تجارب ذاتية عاطفية تردّدت معانيها في قصيدة " أثار جرح قديم " [3] و" النخل وأطراف النهر الناضب " [4] ، حيث أكد الشاعر خلال اللقاء به أن التجربة العاطفية واحدة من القصائد الثلاث وذلك لتشابه التجارب الذاتية فيها.

وهذه القصائد في جوانب منها تشير إلى ما يتعلق بحياة الشاعر [5] ، ومن خلال تلك القصائد استعان الشاعر بالبحر ومفرداته وصوره فهو الملاذ الوحيد لتصوير إحساسه بالجفاف العاطفي والضياع ، ومن ذلك قوله قصيدة " طائر الجزر الثلجية " .

تعالي نقُّص من الليل شطراً
ونكشفُ بعَض خوابي السرور عِلمْتُ بانَّ الوفاءْ
كطير صغير...
يحطُّ قليلاً
لِكسْرةِ حَب وقَطْرَةِ ماءْ
يحطُّ قليلاً ، ثُمَّ يطيرْ
ويَسقطُ يوماً ... ككُلِّ الطُّيُورْ [6]

---

(1) ما قالتة النخلة للبحر ، ص 179-191 .

(2) تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج ، ص 207-209.

(3) أنظر ، أنين الصواري ، ص 109-114 .

(4) أنظر ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 39-44.

(5) أنظر ، ص

(6) علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 82-83 .

إن أصالة الشاعر تظهر وتتجلى من خلال ذلك الاتجاه في ديوان أنين الصواري وفي تلك الغنائية من الديوان الثاني ، والتي يبرزها إيقاع سريع يفرز دفقه شعرية يستقبلها السامع للشعر باعتبارها أولاً أصواتاً موقعة تفرض دلالتها الإيقاعية على السمع قبل دلالتها المعجمية والسياقية المعني . إنها المعاناة إثر تجارب خاصة فهو يتحدث عن الغدر دون أن يذكره مباشرة ، وهناك تتداخل الرؤية الشعرية للعالم مع القدرة على التعبير مع عناصر أخرى عندما يحاول الشاعر البحث عن متغير السرور في ثابت الحزن مع الحبيبة التي لا بد أن تغدر إن لم يغدر بها الحبيب ، فالغدر لم يذكر مع أن المعنى تضمن ذلك ، ولكنه يحول الوفاء إلى طائر في أي لحظة يحط والطائر لا يحط إلا ليطير ومثله الوفاء ، وهكذا استعان الشاعر بقوانين تراث القارئ ملغياً وجه الشبه الظاهر من التشبيه التمثيلي " للوفاء " بطائر يحط ثم يطير ، ووجه الشبه هنا قصر المدة التي يحط فيها قبل أن يطير والتي يعيش فيها الوفاء ثم تعذر أمام القانون الثراثي : ما طار طير وارتفع إلى كما طار وقع ، والوقوع هنا هو السقوط النهائي . ويسقط يوماً ككل الطيور ، أي الفناء ، فقد يكون السقوط برصاصة الصياد أو بالموت ، ماذا يعني هذا ؟ إن التشبيه هنا يخلو من وجه الشبه بل إن التشبيه كله سقط ، فليس الوفاء مشبه والطائر مشبه به في لغة هذه القصيدة بل إن الوفاء والطائر متر ادفان ، أو لنقل : إن الوفاء نوع من أنواع الطيور وهذا ينقل كل صفات الطيور المشتركة للوفاء فهو معطر الوقت في سموه وارتفاعه أبعد من أن يطال وهو يهاجر وينأى ويظهر ويختفي ، لكنه قبل السقوط قليل الطالب (كسرة حب وقطرة ماء) وهما يكفيان لتزيين وجه الحزن والسرور [1] .

أما القانون الموروث من البيئة والوثيق الارتباط بحياة الشاعر فهو الجزيرة التي يحيط بها ماء البحر والتي كانت تمهيداً لتصوير أثر التجربة العاطفية على الشاعر فهو يقول :

طفلٌ يُزغْردُ عرس
غريقٌ يُصارِعُ هولَ الرسوب
تناهَبتْ يداه لشيءٍ كبيرْ
حزيرةُ ثلجٍ عليها يذوبْ
وتصهُر أنفاسُه اللاهِثاتْ
وتُصَّهِرُ فَيها الشمُوسُ الكِثارْ[2]

إن ذلك الجزء كما ذكرنا كان تمهيداً لأثر التجارب الذاتية على الشاعر ، ويبدو فيه تشتته وقلقه الذي يحوّله إلى طفل يزغرد ليلة عرس وغريق يصارع هول البحار ، والبحر هنا رمز إلى الشعور بالأسى والحيرة وعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب وتعبير عما يختلج في نفس الشاعر ؛ فالبحر ما إن يحاول من خلاله الوصول إلى النجاة حتى يحط على جزيرة ، إنها جزيرة ثلج يذوب وفي ذلك رمز إلى ضياع الأماني والأحلام وتلاشيها ؛ مما يوحى بالصدمات والعقابات التي تحول دون تحقيق الرغبات ، وذلك ما يواجهه الإنسان من مشكلات وتحديات تحيل حياته إلى نار ملتهبة مع كون الجزيرة من ثلج . تلك كانت الجزيرة كشيء حقيقي ظاهر أما المعنى المُغَيِّب الخفي فيوحي إذاً بما يكتف حياة الشاعر وما يحيط بها من عوائق مما يسبب له القلق واليأس والخوف ، ثم يختتم الشاعر المقطع بنهاية هي امتداد للبداية فاسأم والأسى لا يزالان مسيطرين على مشاعره وأحاسيسه حيث يقول :

تذوُبُ ، وأغرُق ... أغرُق حتى المماتْ
وتبدو النوَّارسُ عند الغروبْ
تمدُّ انتظاراً لموتٍ غريبْ
يُجَدّدُ فيهِ الفنا والحياةْ [3]

---

(1) سليمان العطار ، دراسات نقدية ، فيثارة المعاصرة بين الذات والموضوع ، دراسة لغنائية على خليفة ، في مجلة البحرين الثقافية ، البحرين ، العدده ، (يوليو 1995) ص 69.

(2) علي خليفة ، م . ن ، ص 79-79 .

(3) علي خليفة ، م . ن ، ص 79 .

وهنا يتآلف المحوران في الجانب الذاتي ليعكسا صورة منفصلة للحالة التي مر بها الشاعر في فترة من حياته ، مثل تعرضه لمتاعب عاطفية وفكرية واجتماعية بقيت متأصلة في نفسه ، وغالباً ما ألمح شاعرنا أحاديثه إلى معاناته تلك في الوسط المحيط به ، وقد ، انعكست تلك المعاناة على شعره إذا تصوّر الماء جزيرة ثلج تذوب ثم تطفو فوقها ثلوج أخرى ، مّما يهدد بالتلاشي والفناء ويوحي بحياة اللاسقرار إنهما الفكر والذات المرهقان والمتأرجحان بين متناقضات الحياة :

تّذُوبُ ثُلوجٌ وتَطْفو ثلوجْ
ويَسَأمُ قلبي الصغير العنيدْ
لكثرةِ هذا الأسى والعثارْ

إنها مأساوية في الرؤية الشعرية يتجلى فيها الاتحاد بين الذات والموضوع في شفافية وتأمل صادقين ، فهي تصوّر ما يختلج في نفس الشاعر من مشاعر وأحاسيس وقد كتب هذه القصيدة في عام (1970) وقبل ذلك بعامين (1969) كتب قصيدة " أثار جرح عميق " التي سبق أن أشرنا إليها ؛ وما بين العامين والقصيدتين تتحدد الصلة بين النصين فهما يمّثلان تجربة ذاتية واحدة نستخلص منها أثراً لجراح عميقة في النفس لا تزال بقايا ندوبها واضحة تتحدث الزمن بلا اندثار ؛ إنها في الذهن والوجدان ومهما حاول صاحبها النسيان أو النكران أو التظاهر بذلك لنزعها من خريطة ذكرياته فهو لا يملك الخلاص النهائي من سيطرتها : ومن أقواله في ذلك موظفاً المرساة رمزاً للخلاص وتأثراً على تلك المحبوبة مّما ينم عن تطور تجربته مع المرأة ومحاولة تحريكها نحو الأفضل أو البعد عنها :

وشَبَّاكي الذي تدرَى ، قّدْ عَصَفَتْ
به ريحٌ شماليهْ
أضَاعَتْ صدْقَ بَسماتي
وَجَدَّتْ في جَدار النفس تعّريهْ
وفكَّتْ حبلَ مرساتي [1]

نلمح في هذا المقطع آثار التجربة العاطفية في الشاعر والتي تبدو في قوله (شباكي عصفت به) و (أضاعت صدق بسماتي) مّما يدل على الألم الدفين والذكريات المريرة التي يحاول صاحبها الخروج منها والانطلاق صوب المجتمع وتجارب أخرى جديدة (وفكت حبل مرساتي) وذلك دون تبرم أو سخط ، بل بمحاولة النسيان والانخراط في علاقات اجتماعية عامة .

وهنا استعان الشاعر بعناصر مستوحاة من الطبيعة من عواصف ورياح ، إلى جانب البحر وأدواته والبّحار ، فالمرساة عنصر من عناصر البيئة البحرية تستخدم فرسو السفينة وتكون مربوطة إليها بحبل ، بينما البحر في السياق رمز إلى الحبيبة التي يحاول الشاعر التحرر من قيودها منطلقاً نحو آفاق إنسانية اجتماعية رحبة .

والبّحار هو الشاعر الذي يحاول الابتعاد عن البحر من خلال السفينة التي تتمنى أن تعود به إلى أرض الواقع والقرار باحثاً عن شيء جديدة ، فالأبيات قد تكون رداً على عودة هذه الحبوبة وطلبها الوصال ثانية . وقصيدة " لغة الظمأ

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 79.

الأرجواني [1] تدور حول التجربة . نفسها هذه القصائد وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول [2] ؛ وكـــأن الآلام والأحزان وسوء الطالع جزء من حياة الشاعر ، فهي تلاحقه وتلازمه في كل موقف من مواقف حياتـــه الذاتيـــة ، وحتى في الجوانب المشرقة من الحياة يكشر سوء الطالع عن أنيابه أمام آماله وعواطفه وأشواقه في زهرة هذا الكون وريحانته وهو الحب ، وهل أجمل من الحب في الكون ؟ ولكنه لم يهنأ بهذا الجانب الوجداني فجاء ربيع الحـــب في هذه القصائد لا سيما قصيدة" آثار جرح قديم " خريفاً أضاع عليه حياة السرور والهناء . فكانت تجربته في الحـــب مأساة من المآسي التي حطمت وجدانه .

وننتهي من هذه التجربة في المحور الثاني إلى رائعة من روائع علي خليفة في دواوينه وهي قصيدة " النخل وأطـــراف النهر الناضب " التي تعد امتداداً للقصائد الثلاث السابقة الذكر وبها إلى جانب المعاني السابقة ثورة على تلاشـــي عناصر الحياة الطبيعية وتأثرها من ليل ونجم وصبح ، إلى جانب العناصر الطبيعية المرتبطة بالبيئة المحلية من نخيل وبحار وما أصابها من جفاف وجدب . وهناك تلتقي تلك المعاني بما يمثل معاناة الشاعر ذاته وإحساسه بالجد والجفـــاف موظفاً البحر للتعبير عن تلك الأحاسيس فهويقول في المقطع الثالث من القصيدة :

مَا أقْساكِ امْرأة جُبَلتْ بسُكُونِ البركان الَـــخامدْ!
ما أقسْاكِ امرأةً ، لا أذكُر في حُبّي معها إلاَّ سُفناً
لا تُبحْر ، حتى في بَحرْ وادِعْ!!
يا امُرْأةً ، لاتَجرؤُ إلاَّ إنْ تَحْلُم ، لا شيءْ
سوى حُلمْ ، واللَّيل طويلْ
اللَّيلُ قصيرٌ يا نَجْمَ الصبُّحِ الطَّالِع [3]

إن القسوة هنا تقتضي سبباً بفرض الاتجاه الذاتي يكتفه الحرمان الذي هو دائم في دائرة تؤدي إلى الانتشـــار عـــبر مشاعر الحرمان والذكريات المؤلمة من خلال التوقف عند نقطة محددة وقد مزج الشاعر هنا مزجاً عجيباً بين ثوران العواطف الجياشة تجاه المحبوبة وهدوء العقل للحد منها وتهدئتها ، فالسفن لا تبحر ويستحيل إبحارها ذلك أنهـــا لا تتحرك في البحر حتى وإن كان البحر هادئاً ؛ إنها من جانب آخر امرأة عجيبة فهي بركـــان بجمالهـــا وتأثيرهـــا وشخصياتها إلا أنه خامد لا يهمه الاشتعال في الآخرين ؛ إنها بركان تجاه المحبوب الذي تشعله بسحر تأثيرها مـــع هدوئها ، وذلك يحتاج إلى تجميع العناصر التي تفيد ذلك التمنع والهدوء ؛ إنها القسوة التي تتكرر مرتين في بدايـــة المقطع وإنه عدم الجرأة ، وهنا نعود إلى الضوابط الاجتماعية التي تحول دون تعبير هذه المرأة عن مشـــاعرها ، ممـــا يجعلها تعيش الأحلام ، ما بين الليل والطويل حيناً والقصير حيناً آخر مما يوحي بتبلد مشاعرها وتعكس هذه المعاني التي أسقطها الشاعر على المرأة جانباً من شخصية شاعرنا التي لم يترك له ، ولها الحبل علـــى غاربـــه في المشـــاعر والأحاسيس والعواطف والوجدان تجاه كل منهما نحو الأخر بل قيدها بقيود العقل والمنطق التي فرضتها قيود المجتمع

---

(1) أنظر ، ص 33-37 ، إضاءة لذاكرة الوطن .

(2) أنظر ، ص

(3) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 42-43 .

وعاداته وقيمه وبيئة الشاعر المحافظة . ولعل هذه المعطيات هي التي أبعدت الشاعر عن حزن الرومانسيين وكآبتهم على الرغم من الجو الرومانسي المثمثل في موضوع القصيدة ، فكانت أقرب إلى الواقع لأن مصـــدرها العقـــل لا العاطفة والوجدان . مع الإشارة إلى أن التمنع واضح من جانب المرأة وإن شوق الشاعر إليها يبدو بين الحين والأخر من خلال ثورته على هدوئها.

هكذا عبّر الشاعر عن أفكاره بعقلة قبل وجدانه مستعيناً بالعناصر الطبيعية المستمدة من الطبيعة العامة والبيئة المحلية المتمثلة في السفن والإبحار في رحلة الصيد والغوص والبحر ، إلى جانب العنصر الشخصي الأصيل [1] وهو الـــروح الشفافة والصور التي تعّبر عن التلاشي والضياع والتتاثر في كل شيء متحداً بذات الشـــاعر ، ويتمثـــل ذلـــك في التراكيب اللغوية من حيث الافتتاح بالجمل الفعلية الدالة على الدهشة والتعجب والاستنكار ، وقد أكدها تكـــرار (القسوة) في السطر الأول والثاني ساهم في عمق الفكرة في المقطع ، إضافة إلى ذلك التكملة بالجمل والإخباريـــة المدعمة بالنداء حيناً ، والتوكيد حيناً آخر والنفي كذلك ، إلى جانب الجمع بين الضدين الـــذي حقـــق التـــوازن والتآلف ما بين العبارات في إيقاع موسيقي خفيف ومن ذلك قوله : (والليل طويل – الليل قصي) إنـــه الليـــل الحقيقي في العبارة الأولى وهو طويل لمن يحلم ويفكر ويضنيه السهر ، أو قد يكون غير مُنهك فيكون ليله أيضاً ليلاً طويلاً مملاً ، والليل قصير إنه ليل العمر فلا مجال للأحلام وإضاعة الوقت وذلك تشبيه بليغ .

إن شاعرنا جدي في حياته فانعكس ذلك حتى على معانيه الشعرية في هذه الأبيات ، فالعمر قصير ولا مجال فيه للهو في عالم الحب اللاهي وإن كان ولا بد من فهو الحب الحقيقي للزوجة والأبناء ولهذا يأمر المرأة بألا تحلم طـــويلاً في عالم الحب وتحاول أن تكون واقعية في علاقتها معه .

لقد عّبر الشاعر عن اتجاهه الذاتي العاطفي بنقل تجربته م أحداث المجتمع والواقع المحيط به ، فتمثل في الحياة وألـــوان الصراع في نفسه مستغلاً المعجم البحري في الكشف عنها دون ابتعاد عن الفكر ، والخيال ، والعاطفـــة ، وهـــذا العناصر أعانته على تأليف المواد التصويريه وبالتالي قوة الإبحار والتعبير .

وقد توافر في تعبير الشاعر عن اتجاهه العاطفي صدق الوجدان ، إذ نقل لنا ما وجده في نفسه وآمن به منطلقاً مـــن صلته بالمجتمع والطبيعة ، أي المجتمع البحري المحيط به ، فنفذ بصيرته من خلال البحر ومكّوناته ليبين لنا عن مشاعره وعواطفه في معاني قويه ، وصور رائعة ، وعواطف جياشة [2] .

ب – الاتجاه النفسي المعنوي .

من أبرز الظواهر التي يمكن ملاحظتها في شعرنا المعاصر من الناحية المعنوية غلبة بعض الموضوعات على هذا الشعر وليست الظاهرة في حد ذاتها ، أو صورتها المجردة في ظاهرة جديدة ، فقد كانت منذ القدِم موضوعات مشتركة بين

---

[1] سليمان العطار ، دراسات نقدية ، فيثارة المعصرة بين الذات والموضوع ، دراسة لغنائية علي خليفة ، في مجلة البحرين الثقافية ، البحرين ، العدد 5 ، (يوليو 1995) ص 70.

[2] محمد غنيمي هلال ، م . س ، ص 367-368 .

معظم الشعراء . أما ما يميز الظاهرة في الشعر المعاصر فهو أن الموضوعات المشتركة فيه عصرية وجديدة ، كموضوع الموت وموضوع المدينة رمز الحضارة الحديثة ... [1] .

وهكذا تتبلور مع الأيام موضوعات جديدة للشعر ، تتكشف للشاعر نتيجة لانهماكه العميق في روح الحضـــارة في إطار العصر ، ومحاولة تفهم أبعاد هذا الوجه الحضاري وقيمه ومُثله .

ولعّل مصدر الاهتمام بأبعاد الوجه الحضاري يعود إلى تأثر الشعراء العرب المعاصرين بنماذج من الشـــعر العـــربي كقصيدة " الأرض الخراب " لأليوت على وجه الخصوص ، بما يشيع فيها من نقمة على وجه الحضارة الحديثة وما أحدثته من تمزق للنفس الإنسانية والعلاقات التي تربط بين الناس [2] .

ولا شك أن هناك دافع آخر قد جعل الشعراء المعاصرين يستجيبون لهذا الموضوع لما له من وقـــع في نفوســـهم ، ولوجود كيان بارز له في واقع الحياة التي يمارسونها ، وواقع التجربة التي يعانونها ، هي التي ارتفعت بهذا الموضـــوع إلى مستوى الاهتمام [3] .

وهناك سمات العصر التي تفرض على الناس نوعاً بعينه من الاهتمام . وليس غريباً أن نجد الكثيرين يهتمون بـــنفس الأشياء ، مادامت الظروف المعُاشة والمؤثرات واحدة . فالشعراء الذين نزحوا من الريف ، ظلت القريـــة حيّـــة في نفوسهم وهم يمارسون الحياة كما تفرضها ظروف المدينة .

وقد تغنى شعراء الفترة الرومانسية العرب تحت وقع الإحساس بالتناقض وعدم القدره على التكيف مع حياة المدينة وتقبلها بكل مواضعاتها ، وتغنوا في أشعارهم بالقرية وبحياة الكوخ البسيطة البريئة ومثال ذلك " أغاني الكـــوخ " لمحمود حسن إسماعيل .

وقد عّبر الشعراء المعاصرون عن تجربة الحياة التي هم منخرطون فيها ، إذ لم يفروا من المدينة ، بل عانوا الحياة المدنية ذاتها ، بشكلها الجديدة في تجارب خيالية ، أو تجارب ارتدادية لواقع قديم [4] في حياتهم يتصل بحياة الآباء والأجداد وتغير الوجه الحضاري وذلك نتيجة صراع أساسي بين القيم : بين الذات والمجموع ، بين الحرية والسلطة ، بـــين التنافس الحاد والمحبة الأخوية ... [5] ، فالفرد يحّس أن قيماً عزيزة على نفسه قد تحولت عن طبيعتها ، وهنا لعكس

---

[1] عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ص 279 .

[2] عز الدين إسماعيل ، م . ن ، ص 279-290.

[3] عز الدين إسماعيل ، م . ن ، ص 180.

[4] عز الدين إسماعيل ، م . ن ، ص 281-282.

[5] إحسان عباس ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ص 80-81 .

الشاعر فقدان النقاء المعنوي في المدينة التي يعيشها سواء كان مهاجراً إليها ، أو عاشها فترة وابتعد عنها ، أو فوجئ بمعالم الحضارة الحديثة.

وبما أن الموضوعات العصرية الجديدة موضوعات مشتركة بين الشعراء ، فإن الشاعر علي خليفة قد أبان عن اتجاهه المعنوي النفسي تجاه الحضارة والمدينة الحديثة في إطار توظيف البحر وعناصره لا سيما أنه قد قـــرأ لـــــ " ت س أليوت " وتاثر به [1] إلى جانب الشعراء المعاصرين الآخرين مثل بدر شاكر السّياب ، والظروف المحيطة المتشابهة التي مّر بها الأدباء والشعراء .

ومن تتبعنا لقصائد الشاعر التي اتصلت بموضوع الاتجاه المعنوي في إطار توظيف البحر يمكن أن تتمثل لهذه العلاقة الصورتين التاليتين : الموقف من معالم الحضاره المادية ، والموقف من الحضرة المعنوية ، وأماني الشاعر وهمومه جّزاء التغير .

1- الموقف معالم الحضارة المادية .

من خلال الدراسة لظاهرة البحر في علي خليفة في الفصل الثاني وأجزاء من هذا الفصل تبين لنا أن البحر يمثّل تعبيراً عن تجارب وأحاسيس من خلال صورة أو تركيب أو معنى أو مفردة أو عبارة ، وسوف نتبين في هذا الجـــزء أن البحر سيصبح قضية إلى تكشف عن اتجاه الشاعر وموقفه من التغيير . وذلك ما سنلقي عليه الضـــوء باســـتعراض القصائد التالية : " شهوة الطوفان " ، وقصيدة في " وداع السيدة الخضراء " و " تجوع الحرة " وقد اخترنا هـــذه القصائد بالذات لأنها ذات صلة مباشرة واضحة باتجاه الشاعر المعنوي نحو المدينة ومعالم الحضارة المادية ، كما تحدّ تجاه الأحداث والتغييرات بشكل عام ، إذ نجد لبعض التغييرات وقعها وصداها في وجدانه وفكره ، فكثيراً ما عّـــبر شاعرنا في قصائده عن التي كانت تعرفه فأنكرته أو تتكرت له ، وأصبح هو ذاته يجهل وجوه اصحاب الحي الذي نشأ فيه ومعالم المدينة التي عاش بها ؛ وذلك لسكن الغريب فيها ، أو لمشاغل الحياة وتقدم السن الذي ينسي الإنسان جانباً من الحياة ومظاهرها.

وقد ظهر اتجاه الشاعر المعنوي من التغيير ومعالم الحضارة بشكل واضح في ديوان في وداع السيدة الخضراء ، أمـــا الديوانان الأول والثاني فإن هذا الاتجاه لم يظهر فيهما وإن حّدد الشاعر فلسفة ورأيه في التغيير في قصيدة " شـــهوة الطوفان " ، حيث تبين موقف الشاعر الذاتي الخاص به ، ورأيه في أثر الحضارة المادية في الأفراد بشكل عام ودون توظيف للبحر ومن ذلك قوله :

---

[1] علي خليفة ، المقابلة الشفوية ، (10 أكتوبر 1994) .

أرَى غَشَّاً وتَزْويراً
يُحطُّ حقيقَةَ الأشياءِ عيني ...
يَنُّر بثورةِ الأوجاعْ ...
يعِّطلُ رَوْعةَ الدُنيا[1]

إلى أن يقول :

وبانَ الكِذْبُ والتزويرُ في الأحبابْ
وشَـــــعُر حَبيـــــبتي شـــــعرّ
طُفوليٌّ الحَريرِ ... مُرَفَّــهْ الأطيــابْ
أعاروهُ لها مـــنَ صـــانعٍ كـــذَّابْ
لَقـــدَّ مَاتـــتْ بســـاطُةُ أصْـــلِنا
في الْمَوَجـــــــــةِ النَّهْمـــــــــهْ

إنها معانٍ صريحة تعّبر عن رؤية الشاعر تجاه معالم التغيير في الأشياء والكون ، وتكشف عن أساه لاختفاء ما هـــو أصل وحقيقة حيث حل محله الغش والتزوير مّما يجعلنا نغوص في أعماق تلك الشخصية ونتبين أغوارها من بساطة وصدق ووضوح في كل شيء وما تكرار الاستياء من الغس والتزوير والكذب في هذا المقطع إلا دليل على ذلك ؛ فنحن أمام شخصية ذات حس مرهف ، وذات قدرة على النفاذ في الأعماق واكتشاف مواطن الزيف والرياء مـــن الحقيقة في نفوس الآخرين ، إنها شخصية إنسان يتعذب لضياع أشياء لهذا أهميتها بالنسبة له لا شك أن هذه المعاني تعكس اتجاه الشاعر نحو معالم الحضارة والتغيير بشكل عام كما ذكرنا أعلاه ، إلا أننا سوف نرى أن الشاعر قـــد أبان عن اتجاهه نحو معالم الحضارة المادية من خلال البحر الذي يرى فيه كما يرى في المدنية والحضارة القديمة صورة للآباء والأحداد ، وكفاحهم ، وحياتهم الاجتماعية ؛ كما أن البحر هو في رآي الشاعر شيء أصيل وجميل قد أخذ ينحسر ويتراجع ويذهب مع ذهاب المدنية القديمة ، إذ قد امتدت إليه الآلات الحديثة كي تدفنـــه وتقـــيم عليـــه العمارات والمصانع وتوسّع من المدينة الحديثة إن الشاعر يقف من البحر موقف المتوجس الخائف م زوال المعـــاني الأصيلة والقيم النبيلة والمثل العليا ، بزواله وزوال معالم الحضارة القديمة .

لهذه الأسباب نعى الشاعر البحر وتحّسر على ذهابه من خلال حسرته لامتداد الحضارة المادية الجديدة .

ومن المقاطع الجميلة التي تبرز فلسفة الشاعر تجاه يغير المعالم ومظاهر الحضارة المادية من خلال توظيف البحر ، في مرثيته الخالدة " في وداع السيدة الخضراء " . إنها مرثية للبواسق التي تغطي بر البحرين وطرقها وتكسوها جمالاً يكاد يتلاشي لصالح الأسفلت والمد العمراني وهي مرثية للبيئة المتدهورة فوق أنحاء الكوكب الأرضي والتي انطلق إليها من

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 103.

خلال بيئة محلية وموروثها من خلال التعبير عن اتجاهه باقتران النخلة بالبحر وكأنها صنوان أو توأمان لا يفترقان في شعره أحياناً كثيرة حيث يقول :

عنـــــــدما يُغْرقُـــــــكِ الـــــــمُّد ،
ويمحـــــــو ذِكْـــــــرَكِ الأســـــــفْلَتُ
تبقين بجـــوفِ التُربـــة الســـمراءَ عِرقـــاً ...
وَكُنْتِ امراة البحر ، يَذُوبُ البحـــرُ وجْـــداً
عنـــــــدما يُجْثـــــــو كليمـــــــاً
يَغْسِـــــلُ الأقـــــدامَ ... حُبـــــاً ثم يَرْحَـــــلْ
فإذا عادَ ، شَرَبْتِ دَمْعَـــهُ المـــالح ، كُنـــتِ
خادَم البيتِ ، مـــلاذَ المتعـــبِ الـــــمُضني
وأمّ الفقـــــــــــــــــــــــــــــــــراَءْ [1]

لقد إبان الشاعر هذا الجزء عن موقفه من الحياة المعاصرة وما يكتفها من جفاف أسقطه على مخاطبته النخلة الـــتي أغرقها المد ، وهو هنا رمز إلى طغيان الحضارة المادية العمرانية حضارة المباني والعمارات وقرينة ذلك قولـــه بعـــد السطر الأول : ويمحو ذكرك الأسفلت . فهنا تقترن الشجرة والنخلة بالبحر فهما يمثلان للشاعر شيئاً قيمة يشّـــده إلى الماضي الذي شهد جزءاً من أحداثه (كانت امرأة البحر) إن الشجرة والبحر شيء واحد وهمـــا يرمـــزان إلى انسحاب أشياء ومعاني جميلة يعتز بها الإنسان ، إنهما كانا مصدر الخير والعطاء والحياة. وما البحر إلا الإنسان ذاته الذي يهفو إلى القيم الأصيلة التي اندثرت كما يهفو إلى الشجرة التي كانت قريبة منه وكان متعلقاً بها ، وهو قرين لها ومتوحد بها ، فهما صنوان متلازمان في هذا المشهد ، وهذه الصورة التي أبدع الشاعر في رسمها مـــن خـــلال الموروث المستمد من البيئة البحرية المحلية ومثال ذلك (يغرقك المد) إن ظاهرة المد هنا تشير إلى علاقة الإنســـان بالنخلة والبحر حيث تفرض ظاهرة المد الرحيل والعودة وما بينهما قد يكون الغرق ، النسيان من خلال الامتداد في التربة والذوبان فالدموع ، أما النخلة فقد تصاب بالجفاف وتسرب المياه المالحة إليها . وهنا نستشف معاني الحسرة علىتراجع القيم الجمالية أمام زحف الحضارة المادية .

إن الشاعر فيهذا المقطع يبكي اختفاء الأصالة والنبل من خلال تراجع النخلة عن علاقتها بالبحر والتوحد به ؛ إنها علاقة قد اصابها الضعف فالفعل يشير إلى الفراق بينهما منذ زمن مضي .

إن تلك التراكيب والصور والأدوات الفنية جاءت عبر ثنائية ، إنها ثنائية من أجل البقاء والتلازم بين البحر والنخلة وبين الحضرة المستحدثة والأصالة ، وبين الماضي والحاضر ،والرحيل والعودة ، والأسفلت والتربة .

---

[1] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 70-71 .

ومع رثاء الشاعر ما فات تبقى نظرة تفاؤل ، فالشجرة لا تزال عرقاً بجوف التربة السمراء مما يبشر بالأمل ، إنها النخلة تقف إلى جانب البحر ضاربة جذورها في أعماق التاريخ ، فإن اختفت عن وجه الأرض فهي حية باقية في جوف التربة السمراء ؛ لأنها خادم البيت وملاذ الكادحين وملجأهم . ولأنها أم الفقراء التي تحنو عليهم وتحميهم من غائلة الجوع في السنين العجاف ، إنها وزوجها البحر الحياة نفسها فلا حياة بدونهما .
ويتحدّد اتجاه الشاعر المعنوي في موقفه من آثار المدينة والحضارةوطغيان المادة في هذا المقطع الذي يبدو فيه تفاؤله وأمله ببقاء البحر :-

والبحرُ هذا ، إنْ تلوَّثَ ، وانشَّقَتْ عباءتُه
في المدِّ والجزْرِ تَبَقْى لنَا فيه
روعةُ الحُلمِ [1]

إن البحر هنا في فلسفة الشاعر يبقى مثالاً للعطاء والصفاء ، والصبر والحكمةُ الصمود أمام زحف المدينة ، فعلى الرغم من الصور التي جعلته يتعرض للتلوث كتعرضه لتسرب النفط من السفن التي تمر به ، وتعرضه لعمليات الدفن حيث تم دفن مياة الخليج وتحولت مساحة منها إلى مبانٍ ومصانع ؛ فإن في ظاهرة المد والجزر دروساً فنحن نتعلم منها فلسفة الأخذ والعطاء ونرى فيها جمال الروح وصفاءها .

هكذا ربط الشاعر بين ظاهرة تلوث البحر وطغيان الحضارة المادية والقيم الجديدة ، وبين طاهرة المد والجزر ممّا يرمز إلى فلسفته تجاه التغيير والتحول وأثر ذلك في المجتمع والناس .

ولا يكتمل الموقف السابق إلا بهذا الجزء الذي يوضح فلسفة الشاعر تجاه طغيان المادة والآلة التي دفعت بالإنسان إلى دائرة الاستهلاك ممّا أدى إلى تراكم الدُيون عليه لاتجاهه إلى الاقتراض من المؤسسات المصرفية والبنوك كي يوفّر له ولأسرته كماليات الحياة ، وقد رمز إلى تلك المؤسسات (بشيلوك المرابي) في صورته الجديدة موظفاً شخصية من التراث الإنساني وردت في مسرحيته شكسبير (تاجر البندقية) فهو يقول في هذا المقطع :

أَلِفَ القطيعُ لُهاثهُ ، وَاسْتَوطَنَ
الوَجَعَ القديَم ، اسْتهْدفَتْني والبلابِلَ
طَعْنة ، سِكِنُها مَقْبُولَةٌ
(شيلوكٌ) ، يَشْحَذُ للقطيع خَنَاجِراً [2]

إنها معانٍ مكملة لما جاء في المقطع الأول توضح أثر التغيير في الحياة والناس فالبحر الملوث هو بحر الحياة الواسع في جانب آخر وما فيها من صراع وتكالب على لمادة والإنسان المكدود الشريف هو المستهدف من خلال ذلك

---

(1) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 111 .

(2) كانت تلك القصيدة باللهجة العامية وعنوانها " نبض المداين " ، في جريدة أخبار الخليج ، البحرين ، (18 أبريل 1884) ، ص 5

التكالب الذي هو امتداد لحياة البحر والغوص والغّواص في شكلها الجديد ، وذلك في قوله " ألف القطيع لهاثـــه ، واستوطن الوجع القديم " إنها القضية نفسها قضية قانون البحر الذي ظلم الغّواص المكدود و لم يؤمن على مستقبلة . وكأن هؤلاء الناس قد رضوا تلك الحياة وكأن القانون القديم يعيد نفسه في صورة جديدة وهو والوجع متأصـــلان وكأن لا سبيل إلى اجتثاثهما ، وفي قول الشاعر :" استهدفتني والبلابل طعنة سكينها مقبولة " .

إن (البلابل) هنا رمز إلى صغار الموظفين والمبتدئين في مجال التجارة ؛ إلا أن ما يبشّر بالأمل في الخروج من هذه الدائرة إلى أن السكين طعنتها مقبولة ، لذلك لا بد من الوعي ، ثم يحدث التحذير باستخدام كلمات توحي بالغدر والعنف إنه (شيلوك) والفعل الدال على الحركة والاستعداد (يشحذ) والأداة (خناجر) التي توحي بالدم والقتل خدعة ، والسطر معانية تحمل التحذير للناس مّما يدبر ضدهم من قبل المؤسسات المستحدثة وبذلك يكون حـــالهم كحال الآباء والأجداد في رحلة البحر والغوص . إن التاريخ يعيد نفسه لذا فعليهم الحذر والتصدي لذلك التخطيط.

أن الشاعر يرمي من خلال ما تقدّم إلى رؤية معينة وهي تغير الطباع في النفوس ، ففي حفل أقـــيم مـــؤخراً عـــام (1996) [1] تكريماً لبعض الشخصيات ذات الاهتمام الديني والعلمي والأدبي والثقافي في البحرين بنادي المحرق ، أشار إلى تغيير معالم الحياة البسيطة وتغّير الأفراد والطرقات التي كانت معلماً من معالم الحضارة والتـــراث لتلـــك المدينة، فهي في رأية وإن بدت جميلة إلا أن أساسها وضعيف مّما يدل على تفكك العلاقات بين أبنائها [2] .

ولابد من الإشارة إلى أن تلك الرؤية لا تعني أنه لا يتقبل الحداثة والتغيير وروح الحضارة ، وإنما يـــرفض الجانـــب السيئ منها ذلك الجانب الرامي إلى الانحراف والتحلل الأخلاقي والقضاء على القيم ، وتزييف المعاني النبيلة منها ، مما يساعد على تفكك أواصر الأخوة والمودة بين أفراد المجتمع لا بل بين أفراد الأسرة الواحدة .

ويقودنا ذلك إلى رؤية الشاعر وفلسفة تجاه وسائل الإنتاج الحديثة ومعطيات التكنولوجيا المعاصرة فهو يراها دفعـــاً إلى استغلال الإنسان ودفعة إلى الاستهلاك الكمالي الزائف ، ومثل ذلك موقفه تجاه البنوك والمؤسسات التي توقـــع الناس في شراكها بإغراءاتها المتعددة وتطيح بهم في دائرة لا خروج منها ، إذ تكبلهم بالقروض والديون لســـنوات طويلة [3] ، إن تلك الرؤية لها صلة لما تعرّض له الشاعر ذاته عند ما أسّس (دار الغد) ووقـــع في دائـــرة الـــربح والخسارة والقروض وخرج من ذلك الموقف بتجربة سلبية قاسية في حياته العملية .

تلك كانت فلسفة شاعرنا تجاه معالم التغيير والحضارة والأحداث وهي فلسفة لا تـــدعو إلى التشـــاؤم والســـلبية والتحجر ضد الحديث ، بل نراه يملك المرونة والإحساس المتجدد والعطاء المتدفق ، فهو يهفو إلى الجمال في كـــل شيء ؛ إنها روح الشاعر الشفافة التي ترقب أصغر الأشياء وتتأثر بها فتميز الجميل من القبيح وتطلب الجمال والحق دائماً .

---

(1)

(2) أنظر أيضاً ، قصيدة " شهوة الطوفان " ، أنين الصواري ، ص 104-105 .

(3) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 74 .

2- الوقف من تراجع القيم .

إن قصيدة " غياب " تلخّص فلسفة الشاعر تجاه تراجع القيم والمبادئ من خلال الموروث البيئي البحر لذلك سوف نشير إلى أجزاء م هذه القصيدة توضح موقف الشاعر من هذا التراجع ، حيث يبدأ في أحد المقاطع بمخاطبة البحر قائلاً :

الراسياتُ علي ضِفَافِكِ أسْلَمَتْ أطْرَافَهـــا
لِلرَّمل بالقاع ، هذي القُلُوعُ على الشّواطئ
حُزْنُهـــا يُبَـــدَدُ الوَقْـــتَ ، مَرْكُونـــاً [1]
وبيـــوتُ صـــغر الكائنـــات خـــوالي

إن الشاعر في هذا المقطع قد استغل البحر وعناصر ، فهو يخاطب البحر في قوله (على ضفافك) والتي نرة عليهـــا السفن والرمال والشواطئ ، كما نرة داخله القاع وبيت الكائنات الصغيرة ، هذه كانت ألفاظ استعان بها الشاعر للتعبير عن رحيل المعاني الجميلة في صورة السفن الراسية على ضفاف البحر وقد ضربت بأطرافها في أعماق البحر مستسلمة مما يعنى ألا عوده ، وحتى السفن المستقرة للإقلاع يسيطر عليها الحزن ، إن إقلاعها يعني الرحيـــل دون عودة و لم لا تقلع والبحر قد ماتت فيه الحياة (بيوت صغار الكائنات) .

لقد أبرز الشاعر هذه المعاني من خلال التقاط العناصر المحيطة به من بيئة البحر ، قصّور معانيه تصوير يشوبة الأسى والحسرة على رحيل البحر رابطاً بين ذلك ورحيل القيم والمبادئ السامية .

ولا تزال في هذه القصيدة نتتبع أثر التراجع على الحياة والمجتمع والأفراد ومن ذلك قول الشاعر في هذا المقطع .

تُغَـــــادِرُ الشَّـــــطآنَ في خَجَـــــلٍ
وتَرَتْـــــــــدُ مُنسَـــــــــحباً
تُلَمْلـــمُ المـــوجَ إثـــرَ الـــمَوجِ
تَضَاءَلَ عُنْفُوانُ المـاءِ ، والصَّـخْرُ يَشْـهدُ
لَلْبحـــرِ في مَـــدِّه سَـــطوةٌ وتعـــالِ [2]

---

[1] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 74.

[2] علي خليفة ، م . ن ، ص 74.

إنها مرثية أخرى لتراجع البحر ، والبحر وحده هو الذي يحتل مساحة كاملة من القصيدة والخطاب موجه إليه وفي هذا المقطع نرى مشهد الذهاب فقط إنه الذهاب الذي سيحدث وفق خطوات منطقية منظمة ، إيـذاناً بالرحيـل واللاعودة وذلك الأمر يتطلب الارتداد فالانسحاب وجمع المتلزمات وفي ذلك إشارة إلى فقد أشياء عزيزة 0 تلملم

الموج إثر الموج) ولذلك الاستعداد والرحيل وقعه وأثره في الحياة وهذا الوقع مكمل لما قبله فبعد (تلملم ، تضاءل عنفوان الماء) إنه التلاشي التناثر والضياع بعد القوة والتدفق والعطاء .

هكذا عبّر الشاعر عن رؤيته تجاه انحسار المعالم الجميلة وضياعها من مدينة ومعالم وغيرها والتي ارتبطت في ذهنـه بالبحر والشواطئ والموج في لغة شاعرية توحي بالتسلسل والهدوء ، ودون ضجيج ، حركتها جمل فعلية متتابعة مما أضفى على المقطع والحركة من غير افتعال فنحس البكاء بلا دموع ؛ إنه بكاء على التراث والشـيء المحبـب إلى النفس، ومحاولة التشبث والبقاء بالمغادر أمام زحف المدينة الحديثة ومعالم الحضارة المادية .

وفي المقطع الثالث من القصيدة نفسها يخاطب الشاعر البحر قائلاً :

يا أبانـا ، وَقَلْبَنـا الـمُترع بالوجْـدِ
يـا عُمْرَنـا الـمُتشظي ،
لِمـاذا تُغـادرُ البَيْـتَ
وتسْـحَبُ أطرَافـكَ مُنْسَـلاً
تَشْـرُ بُـكَ الأَبْعَـادْ ..؟!
بغَته ، ينْسَرِبُ الـحُلمُ ، ويَبْدأُ في التلاَّشي
ضَجِيجُ / هدُوءُ حُضُورِكَ في مَدى الأيامِ [1]

إن الخلود مستحيل ، أما الجفاف فهو الموت يمتص الحياة ؛ بمغادرة البيت والانسحاب بانسلال إلى الأبعـاد الـتي تستفيد من هذا المهاجر ، وبذهابه ذهاب الأحلام وتلاشيها ، إنه البحر التراث المحلي الذي وظّف للتعبير عن آثار المدنية والحضارة في الحياة والناس والمجتمع في رؤية شعرية تجعل من البحر رمزاً لقيم معينة في صيغة إنشائية لها دلالة خطيرة ، وهي أن الشاعر يعكس إحساسه تجاه البحر ويسقط حالته عليه ؛ مما يكشف عن شفافية الروح وعـذابها لنصل إلى مأساوية الذهاب واللاعودة ، لذلك نتج عن هذا الذهاب اللهفة والاستغاثة التي تكررت في السطر الأول والثاني ، وتلاها الاستفهام الدال على استنكار الحدث ، وأثره هو ضياع الحلم واللاحضور ؛ وتبقـى الـذكرى الجميلة (ضجيج هدوء حضورك في مدى الأيام) فلم يعد البحر شيئاً منفصلاً عن ذات الشاعر وروحـه ، فقـد امتزجا حتى غدا الشاعر جزءاً من البحر فهو أبوه وقلبه ووجدانه وعمره ، فبار تحال البحر ارتحال الذات الشـاعر وروحه وقلبه .

---

[1] علي خليفة ، م . ن ، ص 75 .

ويوضح الجدول التالي القصائد التي تضمنتّ الطابع النفسي المعنوي وإبرازه من خلال البحر في دواوين الشاعر .

القصيدة	الديوان	الصفحة
شهوة الطوفان	أنين الصواري	105-104-103
في وداع السيدة الخضراء	في وداع السيدة الخضراء	71-70
غياب	في وداع السيدة الخضراء	75-74
تجوع الحرة	وفي وداع السيدة الخضراء	111
قراءة أول النجوى	في وداع السيدة الخضراء	93
يعشب الورق	في وداع السيدة الحضراء	27

هكذا كان الطابع المعنوي النفسي موضوعاً غنياً بالإمكانات التعبيرية استكشفه الشاعر رؤية واقعية جديدة عّبر فيها عن موقفه تجاه الحضارة المادية والمعنوية من خلال توظيف البحر الذي ربط بينه وبين تراجع الحضارة والقيم الأصيلة. وذلك لأنه يرى في البحر تلك القيم والمعاني السامية ويجد فيه كفاح الآباء ومغامرا تهم وبطولاتهم من أجل الحياة الشريفة .

ج - الاتجاه الفكري :

الاتجاه الفكري هو ما يظهر في الأدب من تطّور في النظر إلى الحياة والطبيعة ومن ميل إلى التأمل في المجرّدات . وهي ليست بموضوعات جديدة في تاريخ الأدب العربي الذي بحث في النواحي التالية : التفكير في الحياة الروحية ، الالتفات إلى المواضيع المجرّدة ، والنظر المعنوي إلى الريف والطبيعة .

1- التفكير في الحياة الروحية :

نشأت في البلدان العربية طبقة أدبية تدعو إلى التفكيري الروحي الجديد في الحياة ، ونبذ التعّصب الطائفي ، ومن ذلك قول جبران خليل جبران : " ماذا تطلبون من الحياة يا بني أمي ؟ ماذا تطلبون من الحياة والليحاة لم تعد تحسبكم من أبنائها ؟ أورواحكم تنتفض في مقابض الكّهان والمشعوذين ، وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة والسفاحين فماذا ترجون من وقوفكم أمام الشمس ؟

إن الحياة الفكرية الأدبية في الشرق اتجهت النزعة الدينية مستمدة أفكارها من وحي الكتب السماوية يهدئ الأمر ومع تقّدم العلم الحديث ، لم يستطع العالم العربي أن يبقى طويلاً بمعزل عن هذه الوجة الفكرية العامة ، حيث أصبحت النظرات العلمية الحديثة مثل نظرية داروين مجالاً للدراسة ، ومثاراً للصراع العنيف اشترك فيه كتاب اللغة العربية وأدباؤها .

كما ظهرت نزعة جديدة في الأدب الحديث ثرى أن الوجود ليس مجرد عبث أو شقاء وفساد ، بل هو أمر جدّى له معناه وقيمته ، كما أن هناك من يرى قيمة الوجود في الجهاد المستمر ، الذي قد يتخذ شكل التمرد على التقدم

وتحطيم القيود التي تعوق الإنسان عن النمّو نحو الأفضل . وهنا تتجلى لناروح جبران خليل جبران في قوله : إنما الحياة عزم يرافق الشبيبة وجّد يلاحق الكهولة وحكمة تتبع الشيخوخه . أما أنتم يا بني أمّي فقد ولدتهم شيوخاً عاجزين ثم صغرت رؤوسكم وتقلصّت جلودكم فصرتم أطفالاً تنقلبون على الأوحال وتترامون بالحجارة "

كما ظهرت إثر التفكير في الحياة الروحية نزعه الإيمان بقديمة الحياة وأسباب الرقي ونظام التطور الأزلي عن طريق السير المتواصل في سبيل الحق والنور الذي يصلح النفوس ، وإدراك جمال النظام الكوني وإتمام التألف بين الإنسان ونفسه بمساعدة الآخرين ورؤية الجانب الماضيئ من الحياة .

كما أنصرف الأدب الحديث إلى التفسير للغيبيات تفسيراً جديداً يدفع إلية التطور الفكري في الحياة الحديثة ، فظهرت انزعة الصوفية في الأدب الروحي ، وأصحابها يجعلون نفقطة ارتكازهم على المواجهة العنيفة لمادة في حياة البشر ، وموقفهم من الروح بعد مفارقة الجسد على أن ما نراه ي الأدب العربي الحديث لا يحملنا على الحكم بالحاد على أصحاب هذه النزعة والأقرب أن نقول أنه إنساني يؤمن بالجمال الروحي وشفافية الحس . وهدفه أن ينمو الإنسان في الحياة الفضلى .

أما الإيمان الحقيقي لدى أصحاب النزعة الصوفية في الأدب الروحي فهو الشعور بالخشوع والرهبة لدى القوّة الأزلية التي تسّير الوجود في سبل ارتقائه ، بعيداً عن التعصّب ، خاضعاً للحق ن متوفياً كل نبيل وجميل في الحياة .

الالتفات إلى المواضيع المعنوية والمجردات :

يعّتبر الأدب مّما تثيره المجردّات النفس من خوالج وصور خيالية ، المواضيع المعنوية في الأدب العربي يقعان نوع يتعلق بفكر الإنسان في عالم الغيب وأحواله . ونوع يدور حول الإنسان ومجتمعه كالحرية والشجاعة والمحبة ، والحقيقة والسعادة . وهما موضوعان يبرزان بوضوح في الأدب الفكري العربي .

النظر المعنوي إلى الريف :

برزت النزعة الريفية في الأدب العربي في ثلاث جهات رئيسية هي الوصف والإشفاق والحنين . وفي الوصف نجد الشغف بجمال الحياة القروية وتصويرها من الأدباء العرب كما نري مصطفى الرافعى في قصيدته " دموع العجز " معجباً بمشاهد القرية الساحرة وجال الفتات القروية .

أما الإشفاق فيعود إلى ما وصل إليه حال الفلاح بسبب الظلم والإهمال والحرمان أو عن حالة القرية والخوف عليها وعلى الوطن بسبب الهجرة من تأخر الزراعة التي هي ثروه الأمة الحقيقية ومن الشعراء الذين أشفقوا على القرية في أشعارهم الشاعر المصري أحمد مختار وبشارة الخوري .

أما الحنين فهو عام في معظم الشعر القروي . ومعطمه من قبيل الشوق إلى أمام الصبا وعهود الحياة الأولى .

النظر المعنوي إلى الطبيعة :

مع تطور البيئة العربية بعد أسنفرار الممالك ، والإنصراف عن الصحراء إلى الحواضر الجديد ، اتجه الشعراء إلى وف ما تحويه البساتين والمنتـــزهات من فواكه وأشجار ونباتات ومياه متوخين الصدق والبساطة في التصوير .

وقد بدا الاتجاه الفكري التأملي لدى شاعرنا واضحاً في التفكير في الحياة الروحية ، والنـــزعة الصوفية الإنســـانية المؤمنة بقيم الحق والجمال والروح والخشوع للخالق سبحانه وتعالي ، كما بد الاتجاه الفكري من خلال الدعوة إلى المثالية وتنقية النفس من الآثام والسير المتواصل في سبيل الحق .

وسوف ندرس هذا الاتجاه لدى الشاعر من خلال توظيفه المعجم البحري ، وموقفه من البحر وتراجعه أمام معـــالم الحضارة الحديثة ، ويتصل ذلك بناحتين هما . السفر والرحيل – والعلاقة بالبحر .

2- إبراز الاتجاه الفكري لدي الشاعر

معجم السفر والرحيل

عند تتبعنا لدواوين الشاعر نرى أن معجم السفر والرحيل الذي يعرض الذهاب والعودة قد تردد بشكل مباشر ، في أنين الصواري ، وقد ورد هذا المعجم معبراً عن روح تاملية وفكر واع ف ديوان في وداع السيدة الخضراء .

فقد عّبر الشاعر عن معاني ذهاب الغّواصين وعودتهم حين وصف أشواق زوجة الغّواص تجاه الزوج الغائب وفرحتها استعدادها للقائها ومن ذلك :

زغردي يا خالتي ... ما (أمَّ جاسمْ)
زغردي قد عاد طرَّاقُ المواسمْ [1]

وقد تردّدت لفظة الرحيل والعودة في سياق حديث الشاعر عن استعداد الغّواص لرحلة الغوص وطلب ابنه منـــه أن يرافقه في هذه الرحلة [2] .

وقد إبرز الشاعر لفظة الرحيل فقط دون العودة في معرض تعبير ، عن همومه العاطفية ومعاناته ، ومحاولته النســـيان والخلاص من التجارب العاطفية بالتحرر ، والاندماج في علامات اجتماعية جديدة بعيداً عن عالم الريف والخداع ،

---

[1] علي خليفة ، أنين الصواري ، ص 35 .

[2] انظر ، الفصل الثاني ، ص

وقد وظف البحر للتعبير عن ذلك :

وُيبحرُ ذوقَ إحساسٍ
على الأمواجِ في التَّرحالْ ،
عزائي حيَن لا أجدُ
أرى في بَسمةِ الأطفالْ [1]

وتحدث إلى قلبه مخاطباً إياه ومعّبراً عن أشواقه تجاه الطرف الآخر وخوفه من مرور الوقت دون أن يلتقي بمن يحب ؛ إلا أنه لم يوظّف البحر واكتفى بلفظة الرحيل :-

أمِ القضبانُ قدْ حملتْ
فطاراً مَّر من زمنٍ ، فلمَ نْرحَلْ ؟
متى تَزْحَلْ [2] ؟

وأشار الشاعر إلى عودة البّحار ، وذلك لا بد أن يكون بعد ذهاب في قوله :-

كنتُ خيطاً في إزارٍ باهت اللونِ
استراحتْ في الثنايا قطرةُ الدَمِّ – الدموعْ
بِعضَ شيءٍ فُتاتِ الصبر في خزن القلوع
...
زفرة الموال شيخٌ عاد من إبحاره صِفر اليدينْ [3]

ثم اتخذ معجم السفر الذي يفترض الذهاب والعودة طابعاً فكرياً تأملياً يعّبر عن فلسفة الشاعر في الحياة ويكشف عن عذاباته والصراع الذي يجتاحه ويجعله أسيراً للهوي ما بين التحرر الذهاب والعودة ، وإن لم يوظّف البحر في هـــذا السياق :-

وَها هُنا غَير بعيدٍ منْك ، عاشِقٌ
يُغالبُ الهوي الذى الذي تَحْتَاحُهُ ...
نَفُكُّ رُوَحُه من الإسارِ ... تَنْطِلقْ
لكّنها تُعاوِدُ الحنينْ [4]

---

[1] علي خليفة ، م . س ، ص 18 .

[2] علي خليفة ، إضاءة لذاكرة الوطن ، ص 27 .

[3] علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 47 .

[4] علي خليفة ، م . ن ، ص 62 .

وهو العاشق الذي يغرض عليه الحب معجم السفر أي الذهاب والإياب ولكنه سفر دائماً في دائـــرة تـــؤدي إلى الانتشار عبر التلاشي والانصهار (أذوب) وذلك من خلال البحر ومعطياته : -

إني أعلاشى بينَ يديك ... اَذُوبْ
وأرى سُفُناً من ورق تُبْحرُ بي ...
وَتَئُوب [1]

وعّبر الشاعر عن إحساسه بالضياع والقلق نتيجة لتأزم فكري وصراع عنيف بين العاطفة والفكر والعودة بعد الغربة والرحيل ففي قصيدة آن أن تهجع الخيل يقول الشاعر : -

جاءها مُتْعباً
فاقِداً وجهَهُ البَدَويَّ الجميل
جاء ها مُثْخَناً
أنهكْتهُ البلاُد التي ترتَمي في حُدود السَّرابْ
جَاءها
وارَتمى ،
يُقَّبلُ بيَن يديها الُّترابْ
وَيْطلبُ في ظّلها قَطْرةً منَ حَنانْ [2]

إنها معاني تشير إلى الفكر والروح وافتقاد عناصر الجمال والسعادة ، والإحساس بفقدان عنصر الأصالة في الحيـــاة الذي يفترض التنقل للبحث عن عالم أفضل ، إلا أن ذلك الرحيل هباء وسراب ، فلا يبدو في النهاية من العودة إلى نقطة البدء . إلى العنصر الأصيل إنه الوطن والأرض (يقبل بين يديها التراب) ، لعله يجد وحهه البـــدوي الـــذي افتقده .

وفي نهاية المقطع الثاني من هذه القصيدة يوظّف الشاعر البحر الماء الأكيد في حياته للدلالة على رغبته في العـــودة والاستقرار بعد صراع ومتاعب وهزائم وانتصارات حيث الأمان والراحة وتلك أماني راودت الشاعر:-

ويرمي لهُ البحرُ شطَّ الأمانْ

---

(1) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 50-51 .

(2) علي خليفة ، م . ن ، ص 53 .

ولا يزال الشاعر يكشف عن تأمله وفكره في الحياة من خلال معجم السفر حيث يحلم بعودة البحر بعد رحيلـــه ، فتراودة الآمال والأماني بعلم يسوده الإصلاح ، والسعادة والقيم النبيلة :-

متى يا تُرى يأْذَنُ بالرَّحيل إليك
فَتَقْفلُ راجعِاً
ويَظَلُّ يَهْجِسُ بالوُعُود غيابكَ المتنامي؟ [1]

إن معجم السفر والرحيل والإياب ثانية من جديد إلى الظهور في هذا المقطع وهو يتكرر كثيراً في الديوان الأخير ، وذلك إشارة إلى ذهاب شيء وحلول شيء آخر محله ، وذلك هو التعبير الذي تم من خلال الذهاب والعودة ومـــا ذلك إلا تعبير عن رؤية الشاعر تجاه ظهور قيم واشياء جديدة غير مألوفة في المجتمع واختفاء معان ومبادئ أصـــيلة كانت متوارثة .

فالقصيدة تشير في معناه المغيّب إلى تراجع وانسحاب القيم المعنوية والأخلاقية الجالية التي تعاني الكثير الكثير والتي لها علاقة بتراجع فكر وثقافة ، ورمز إلى أثر المدنية في البحر ، والبحر هنا رمز إلى إنسان له سلطة وتأثير في مريديه ، وقد يكون إنساناً معلّماً ملهماً وصاحب مبادئ فالنداء بـــ (يا أبانا) دليل على قربه من المخاطـــب ، والأب في السياق أيضاً رمز السلطة والتأديب ، وهو هنا يمثل فكراً واتجاهاً معيناً ، إلا أن التغيير الطارئ فرض عليه الـــذهاب والسفر ، مع أمل في العود فهو قد يكون منفياً سياسياً أو شبه ذلك ، إن البحر هنا أصبح رمزاً لشخصية لها تأثير في المجتمع ، وفي الناس وله قيمه لدى الشاعر فهو يعكس حالته وإحساسه واتجاهه ورؤيته إزاء الأحداث والتغيرات .

ونرى الشاعر بعد هذه المتاعب يميل إلى معجم السفر الذي يفترض العودة والبقاء والتشبث بالأرض :-

تَتْرُكي العُشَّ ، ولا تُغَا دري البَلَدْ
فَضَاءُ الكْون للّنوارِس مُتْعَةٌ
والبَحْرُ أبْقى لها من الزَّبَدْ [2]

كما يقول الشاعر في قصيدة غزلية ذاتية دون توظيف للبحر معبراً عن أشواقه وحنينه :-

لماذا أحس بأني حين أسافر
أطير إليك ، وحين أعود
أحس بأني رجعت إليك ؟

---

(1) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 75.

(2) علي خليفة ، م . ن ، ص 122.

ومن القصائد التي توضح رؤية الشاعر الفكرية في الحياة ، وشعوره بالراحة والاستقرار بعد عناء للغربة والتنقل قصيدة" قراءة أول النجوى " وهي قصيدة كتبها الشاعر أول عودته من قطر عام (1887-1888) وفي المقطع الأول منها يقول :-

مهما باعَدت بيننا اللأيَّام
ومهما كانت الأشجانُ
من بيننا أقْوى
مهما تَراجع البَحْرُ
وماتَ في النَّخلِ زَهْوُ الحياةِ[1]

تبدو فلسفة الشاعر بوضوح هذا المقطع وذلك تأثراً بفترة سفره وغيابه عن البحرين ثم عودته ، ولا يزال قاموس الترحال والسفر ملازماً له في الكثير منالقصائد في هذا الديوان فالبعد يقابله العودة إلى المأوى ، والبعد , السفر وافترض وجود حاجز إنه الأيام والمسافة والأشجان وتراجع البحر ، وموت زهو الحياة فانسداد منافذ السلوى ، تلك هي مساوئ الغربة والسفر ولا تبقي إلا الأرض والوطن وصفتها جنة يشتاق الإنسان إليها كمستقر ؛ هكذا عّبر الشاعر عن فلسفة بعده عن الأرض ومرابع الصبا ، مستخدماً أحب الأشياء إلى نفسه البحر والنخيل رمزاً إلى الظروف والحياة العصبة التي قد تقسو على الإنسان في وطنه بسبب سبل العيش أو الأهل أو الأقارب أو الأصدقاء وغير ذلك مما يضطره إلى الهجرة ، ومع ذلك لا يملك إلا الولاء والإخلاص لهؤلاء الناس وللوطن فهو لم ينسه وفي تكرار (مهما) ثلاث مرات تأكيد صارخ لهذا المعنى لدى الشاعر .

الموقف من الكون :

ويتحمل الشاعر المقطع أعلاه محدداً موقفه من الكون :

يا بهجةَ الدنَّيا ، وما تبقى لنا
من حُلمْنِا المغرور
يا جَهَّة يُحنو بِها المأوى [2]

إن ذلك الموقف من البعد عن الوطن جعل الشاعر يخرج إلى رحاب الفلسفة بما فيها من تأمل روحي وحكمة تجاه الأرض والحياة والناس فلا شيء يدوم حالٍ واحد مهما حاول الإنسان المغالبة والصراع ، ومهما كانت حياتنا مليئة وحافلة بالأمجاد والأعمال ، ومهما ذهبنا وتنقلنا فلا بد من العودة إلى نقطة محددة إلى حيث خرجنا ، فلا نرى في

---

(1) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 75 .

(2) علي خليفة ، م . ن ، ص 75.

الوجود إلا مكاناً صغيراً من الأرض ونقطة من بحر ننتمي إليها في مجال هذه الدائرة التي درنا حولها ولا شيء سوى ذلك ، وتلك هي الحياة بالنسبة للإنسان صغيرة صغر الأرض التي ننتمي إليها ، وصغرها لا يعني عدم أهميتها من النفس بل في الوجود والروح وتلك نظرة فلسفية صوفية بها تأمل أمام الذات وحوار الإنسان مع فكرة بعد تغرب وصراع وهزائم وانتصارات وحزن وفرح .

فعلى الرغم مما في نفس الشاعر تجاه وطنه من آلام وإحباطات دفعته إلى مغادرته بقي الوطن يحيا في عقله وقلبه ووجدانه ، فمهما ابتعد ومهما كانت الأشجان ومهما عانى في الوطن فإنه يبقى بهجة الدنيا وجنة المأوى .

وقد وظّف الشاعر البحر والنخيل أجمل توظيف في التعبير عن الاحباطات التي واجهته في وطنه قُبيل سفرة بقوله : مهما تراجع البحر ، ومات في النخيل زهو الحياة " في وطني فسيبقي وردة في قلبي " .

وبوضح الجدول التالي القصائد التي جاء فيها ذكر معجم السفر الذي يفترض الرحيل والعودة ، أو الرحيل فقط ، وذلك من خلال توظيف البحر وعناصره .

الديوان	القصيدة	الصفحة	الموضوع
أنين الصواري	صدى الأشواق	42-35	الرحيل والعودة
	على أبواب الرحلة الأولى	59	الرحيل والعودة
	شهوة الطوفان	108	الرحيل
	على رصيف المحطة	115	الرحيل
	زهرة في القلب	137	الرحيل
إضاءة لذاكرة الوطن	لغة الظمأ الأرجواني	27	الرحيل والعودة
في وداع السيدة الخضراء	آن أن تهجع الخيل	53-50	العودة بعد الرحيل
	سيدة القلب	62	الرحيل والعودة
	غياب	76	الرحيل والعودة
	قراءة أول النجوى	84-83	الرحيل والعودة
	نهاوند	122	عدم الرحيل

بعد تتبعنا لدواوين الشاعر أثناء دراسة اتجاهه الفكري ، نجد أن الشاعر قد تفرد بأسلوب رفيع يعّبر عن تطور التجربة الشعرية من ديوان إلى ديوان ، حيث وظّف البحر مستعيناً بمعجم السفر بصورة واضحة ومباشرة في الديوانين الأولين ، ثم وظّفه في محاولة لاكتشاف روح الإنساني العربي المعاصرة التي انهكتها متاعب الحضارة والمادة ، فبدا عليها الحيرة والضياع بين الذهاب والإياب ؛ ذلك بسبب الجفاف وعلامته اختفاء الشجرة التي رمز إليها السيدة الخضراء ، ومحاولة البحث عن الماء في الرحلة وعدم الاهتداء إليه ، لأن الماء الأكيد في حياة الشاعر هو ماء البحر وإن كان لا يروي الظمأ . لقد أبان الشاعر في تجربته الشعرية وفكره وفلسفته في الحياة تجاه عدم التناسق

والانتظام فكشف روح تبحث عن قيم الحق والتوازن لاستقرار والتمسك بكل أصل من خلال عناصر مهمة وهي الشجرة والتنقل ما بين الرحيل والعودة محور أساسي هو البحر .

العلاقة بالبحر

مما تقدّم يبرز لنا موقف الشاعر من البحر صلته وقربه منه ، فالبحر يصبح ملهماً له ومعلماً بستوحي منه القيم والمثل التي يبثها أشعاره مما أثرى قصائده وسما بها إلى درجة فنية راقية ، فهو يناجيه ويتحدث إليه قائلاً في قصيدة " يعشب الورق " :-

فَلا قَمَرٌ مُدَلّلٌ بِحبِّ البحر إلاّ زَادَهُ ولَهاً
وَيَتَّم في ٱلافَاقِ بِٱلأَوْتَارِ عَشِقُوا [1]

وفي مقطع آخر من القصيدة نفسها تلمح ما تتمتع به روح شاعرنا من صفات موقفه من المتناقضات الحياتية الـــتي يحياها وعلاقته بالبحر حيث يقول من المقطع الثاني من هذه القصيدة :-

مُمعن في روعِة الشعر

ثم يتحدث حول وفوق العاشق المحب أمام البحر وكاشفاً عن علاقته ذاته بالبحر وقائلاً على لسان هذا المقيم :

يُكاشِفُ البَحر أسراراً تُعذّبُهُ
يا ليت هذا البحَر يفشي سَر من غرقوا[2]

إن المعاني في هذا الجزء تكشف عن وقوف الشاعر وجهاً لوجه أمام البحر الذي يزداد أرتباطاً به وتسمو علاقته به فهو ملهمة ، ودافعه إلى الوله والحب ، وهو الذي يسَر إليه بما يدور في خاطره ، وهو المثير الذي يشوفه إلى معرفة المجهول وخبايا النفوس ، وهنا يظهر ميل الشاعر إلى التقصي عن أسرار النفوس وخباياها رغبة في العلم واكتشاف المجهول .

إن تلك الرؤية والتوحد بالبحر تعود بنا إلى موقف شاعرنا من البحر وحبه له كمنظر جميل يراه من بعيد بينما ينفر من ارتياده في رحلة بحرية وما ذلك الحب إلا للراحة التي يشعر بها وهو يراه ، فرؤيته توحي له بالتعبير عن مشاعره ، وقد يخفّف وقوفه أمامه من همومه إنها الراحة إليه والارتباط به ولا شيء سوى ذلك .

---

(1) علي خليفة ، في وداع السيدة الخضراء ، ص 27.

(2) علي خليفة ، م . ن ، ص 27.

إن صورة البحر في هذا السياق مثل صورة الإنسان الذي يفضي إليه العاشق بمكنون داخله وبما اضناه من الشوق ، مما يكشف عن الرغبة في البوح بما يعذّب النفس عن طريق الحوار والمناجاة ، الميل إلى التأمل في الوجود والمخلوقات.

وبذلك نجد ان البحر قد تحول في شعر علي خليفة إلى صديق وملهم يبثه لواعجه ويتعلم منه الثبات ويستلهم منه القيم الجمالية والأخلاقية متفاعلاً مع ما طرأ على المجتمع والأفراد من تغيير وموظفاً البحر في المقارنه بين الأمس واليوم لتحديد موقفه من تلك المتناقضات في لغة واسلوب به التجديد والخلق والإبداع مستجيباً لنداء التطور والتفوق على نفسه داماً .

وهكذا بدا اتجاه الشاعر الاجتماعي الثوري الوطني القومي والوجداني الذاتي والفلسفي ؛ أما الاتجاه الوطني القومي فاتخذ شكلاً سياسياً يتمثل في متابعة قضايا الاستقلال والحرية السياسية في الوطن والخليج والعالم العربي وذلك ما أشرنا إليه في بداية هذا مع محاولة تطوير جانب معين هو افتقاد الحرية والمعاناة في الدفاع عنها وقد ألقينا الضوء على ذلك من خلال موضوع البحر ؛ ومع أن هناك من يرى أن هذا الشعر يعد وثيقة سياسية خالصة يطغى فيها الالتزام على الفن ويخلو من كل ما يربطه بالفن الشعري مما يحول بعض القصائد إلى نصوص مكررة مملة تعلو فيها النبرة الخطابية ويرتفع فيها الصراخ والعويل في لغة تغمض أحياناً غُموضاً يستغلقُ على القارئ وتسهل أحياناص لتصبح تعبيراً مباشراً يفتقر إلى الجمال الفني وهو غاية كل شعر جيد [1] . ومع صحة ذلك الرأي من وجهة نظر اصحاب نظرية الفن للفن إلا أن هذا الشكل قد كان في البداية وفي بعض من قصائد الديوان الأول والثاني حيث اللهجة الخطابية والرمز ، وفيما بعد من خلال القصائد في الديوان الأول والثاني كان لعلي خليفة في هذا الاتجاه ملامحه المميزة عن كل ما سبق على مستوى الشكل والمضمون ، فقد عبر عن تجاربه بوعي ونضج مستخدماً الأدوات الفنية المناسبة للنص ، فالدواوين لم تكن على هذا النحو من الانفعال الحاد أو التعتيم والرمزية والغموض و لعل لجوء الشاعر إلى الرمز والغموض في قصائده الوطنية والسياسية ليتجنب بطش السلطة وملاحقتها له في تلك الفترة :

أما الاتجاه الذاتي والفلسفي فقد تطور من خلال الدواوين الثلاثه ليكشف لنا في ديوان " في وداع السيدة الخضراء " عن خصيصتين جديدتين إضافة إلى معاني الشوق والمعاناة والحرمان في ديوان " أنين الصواري " واقتران المحبوبة بالثورة في ديوان " إضاءة لذاكرة الوطن " أولا هما نفس تصوفي يخترق أسوار الحس بحثاً عن جمال مفقود يكاد يمسك به في شعره ثم شفافة في اللغة تجعل بعض قصائده صالحة لهدهدة الأطفال دو أن تفقد (جراماً) واحداً م ثقلها كفن رفيع بالغ العمق ليحول الغموض في شعرنا المعاصر إلى بنية القصيدة العميق ؛ ليصبر خفاء يحّرك مشاعرنا عبر حسناً الجمالي [2] .

---

(1) نورية صالح الرومي ، الحركة الشعرية في الخليج ما بين التقليد والتطور ، ص 479 .

(2) سليمان العطار ، دراسات نقدية ، قيثارة المعاصرة بين الذات والموضوع ، دراسة لغنائية علي خليفة ، في مجلة البحرين الثقافية ، البحرين العدد 5 (يوليو 1995) ص 73.

ولكن هناك سؤال يطرح نفسه في هذا المقام ، هل يوجد تناقض في نظرة الشاعر إلى البحر ؟ لأول وهلة يظن القارئ أن هناك تناقضاً في هذه النظرة إذ كانت نظرته إلى البحر في عهد الغوص نظرة سلبية ، فصّوره بالوحش الذي يلتهم من يقترب منه فكانت صورة البحر بشعة مخيفة مليئة بالموت والغناء والمآسي والمعاناة ، ثم اصبحت الصورة على خلاف ذلك إذ تحول البحر إلى صديق الشاعر وملهمه ورمز الخير والعطاء والقيم الجمالية والأخلاقية المتوارثه . فكيف ذلك ؟ .

نعم إن صورة البحر السلبية المخيفة لدى الشاعر لم تتغير ولكن الذي تغّير زاوية الرؤيا التي نظر من خلالها إلى البحر ، فهو يراه جميلاً ، رائعاً من بعيد ، ولكنه مازال ينفر من ركوبه والإبحار فيه و العمل في أعماقه ؛ لأن صورة المآسي والأحزان و الفقر والحرمان مازالت عالقة في ذهن الشاعر عن البحر ، ولهذا فلا تناقض في موقف الشاعر من البحر .

وهكذا كان البحر في شعره من خلال الأفكار والمعاني ، فالبحر بطبيعته كائن بجميع المتناقضات الخير والشر والمد والجزر والأخذ والعطاء الصفاء والثورة الحلم والحقيقة فلا عجب أن نجد ثمة تناقض في موقف شاعرنا تجاهه ، من خلال زوايا الرؤيا لديه .